هذه الرواية تحتوي على مشاهد قاسية، ومظلمة، وتفاصيل دموية تعكس قسوة الواقع وصراع البقاء، إن كنت ممن يحبون هذا النوع من الأعمال فأكمل، وأن لم تكن كذلك فانسحب..

رواية

دماء العابثين

إهداء إلى :

إلى الذين كبروا قبل الأوان، وصارت تجاعيدُ أرواحهم أعمق من تجاعيدِ كبار السن، والذين قرروا في لحظةِ يأسٍ أن يتحولوا إلى جلادين لأن العالم لم يترك لهم مكاناً بين الضحايا..

إلى الذين وُلدوا في قفرِ المودة، ونمت أجسادُهم تحت ظلالِ السياط لا تحت ظلال الأشجار..

إليك أنت.. يا من تلمس ندوبك وأنت تقرأ هذه الكلمات: هذه حكايتُك، ليس لتعرف كيف تألمت، بل لتعرف كيف ولدتَ من جديد في رحم الانتقام.

تمهيد.....

نهشت رائحة الكلور أنفي قبل أن يفعل السوط بظهري. في ذلك المطبخ، لم أكن طفلاً، بل كنت ممسحة لقذاراتهم، وساعةً تُضبط على توقيت صفعات جورج. لم أكن أحلم بالحرية؛ كان أقصى طموحي أن ينتهي اليوم بدمٍ أقل.

بلال.. لم يكن اسمي دعوةً للصلاة أو تيمناً بصوتِ الحق؛ بل كان وسماً أرادوه لي ، ليبقى يذكرني بعبوديةٍ لا تنتهي.

اختاروه لي ليكون قيداً لغوياً يربطني بقرونٍ من السخرية، ليُعلموني في كل مرة يُنادى فيها عليّ أنني لستُ ابناً لهذا العصر، بل بقايا رقيقٍ ضلّ طريقه إلى قصورهم المترفة. كان اسمي هو أول سياطهم، والكلمة التي تذكرني كل صباح أنني خلقتُ لأخدم، لا لأحلم.

هل تعرفون ما معنى أن تكبر وأنت تسمع وقع أقدامهم على الأرض فترتجف أوصالك قبل أن يبدأ الضرب؟

هل جربتم أن تبتلعوا غصتكم مع لقمة خبز يابسة، وأنتم ترونهم يضحكون وتعرفون أنكم لستم سوى شيء مملوك في زاوية بيتهم، ولا تسألوني عن حياتي في ذلك قصر كبير .؟

عشرون عاماً وهم ينحتون في صدري هذا الوحش الذي ترونه اليوم. كانوا يظنون أنهم يكسرونني، لكنهم في الحقيقة كانوا يشحذون نصلي. كل سوط نزل على ظهري، كل كلمة عبد قذفوها في وجهي، كانت مسماراً في نعش رحمتي..

جورج.. سميرة.. ذلك رجل الغني الغبي.... حبيبتي.. وكل من رأى دمعي وصمت؛ أنتم من كتبتم هذه الرواية بظلمكم، أنا فقط سأضع لها الخاتمة بيدي.

والآن، سأفتح لكم أبواب ذاكرتي، لتروا كيف يُصنع الانتقام من رحم الضحية. لا تلوموني على ما سأفعله في الفصول القادمة، بل لوموا الأيدي التي سدت في وجهي كل أبواب النور حتى لم أعد أرى سوى سواد الانتقام.

"لم أختر يوماً هذه الحياة، ولم أكن سيئاً، لكن الدنيا ساءت بي حتى صار الصواب في عيني خطيئة، والخطيئة سبيلاً للنجاة.

"سأكتب نهايتهم بيدي التي ارتعشت يوماً خوفاً منهم؛ فدماء العابثين لا يجففها إلا انتقام من ذاق مرارة ظلمهم."

الفصل الأول:

مزاد الأرواح المكسورة

البيوت التي لا تُبنى على الحب، هي مجرد مقابر فارهة، يدفنون فيها أطفال الآخرين أحياءً.. كنتُ قرباناً لم تشبعه الدماء، وكنتُ الابن الذي اشتُري ليكون حائطاً تُعلق عليه خيباتهم.

تلك الذاكرة لا تأتيني كصور عابرة، بل تأتيني كروائح تخترق الروح؛ رائحة الرطوبة التي تأكل الجدران كمرضٍ عضال، رائحة القهوة المرة التي تفوح من أكوابهم ولا يحق لشفاهي أن تذوق مرارها، ورائحة الخوف التي كانت تفوح من مسامي كلما سمعتُ وقع أقدام جورج؛ ذاك الرجل الذي كان يُفترض أن يكون بدلاً لوالدي الذي لم أعرفه، لكنه اختار أن يكون جلادي.

كان عمري خمس سنوات، سنٌّ اللعب والركض خلف الفراشات، لكنني بدلاً من ذلك، وُضعت في كف القدر ليعبث بي كما يشاء كدميةٍ محطمة.

أتذكر ذلك الصباح الخريفي الكئيب في دار الأيتام؛ كان الهواء بارداً يلسع الوجوه .

اقتحمت سميرة سكون الميتم برائحة عطرٍ باردة تسبقها، يلف جسدها معطفٌ من الفرو كان يلمع تحت ضوء الصباح الباهت . لم أكن أدرك حينها أن ذلك الفراء لم يكن سوى كفنٍ فاخر لآدميتها، وأن ملمسه الناعم يخفي خلفه أنياباً

من صقيع ستنهش طفولتي قبل أن يرتد إليّ طرفي، اختاروني ليس لأنني الأجمل أو الأذكى، بل لأن عينيَّ كانتا تشيان بكسرةٍ مبكرة، كأنهم لمسوا فيَّ خامة العبد المثالي الذي سيبتلع إهانته بصمتٍ مطبق.

وقعت الأوراق التي تثبت بأنني أصبحت مِلكاً لتلك العائلة؛ تبادلوا جثتي الصغيرة بظرفٍ لربما حوى على بعض المال. أمسكتْ يدي لتقودني نحو مجهولٍ لا أعرفه. لم أقل شيئاً، لم أسأل أحداً عن شيء، كنت فقط أنظر إلى طول الطريق وأتساءل:

هل أستطيع اليوم أن أعيش كطفل عادي؟

لكنها كانت إحدى أحلام اليقظة التي لم ولن تتحقق ولو لمرة واحدة.

أخرجتني سميرة من تلك الحافلة ووضعتني أمام منزلٍ متواضع المظهر، لكنه كان يخفي بين جدرانه جحيماً. أمسكت أذني بقوة آلمت صرختي المكتومة، وقالت بصوتٍ متحكم هادئ:

ادخل، هذا منزلك الجديد.. سوف تعمل لصالحنا مقابل العيش هنا أيها الصغير، لا تحاول المقاومة، فعلى الأقل كن شاكراً لأننا وافقنا على تبنيك بعد أن تركتك عائلتك، فلتكن مطيعاً إذاً.

تركتني بعد أن أشارت إلى زاوية المطبخ، لكنها تركت مع جروحي كلماتٍ تلسع قلبي ولا ترحمه، رغم صغر سني الذي لم يشفع لي.

لم يكن لي في ذلك البيت سرير يضم أحلامي، بل كانت لي زاوية.

زاوية ضيقة خلف باب المطبخ، حيث تلتقي برودة البلاط بصرير أنابيب المياه العجوز. هناك، فوق حشية من الصوف المتكتل الذي يسكنه الغبار، بدأت ملامح طفولتي تمّحي وتذوب في العدم.

هناك بدأت معاناتي الأولى، التي بُنيت عليها بقية آلامي.

استيقظت في الصباح على صوت صراخ سميرة الممزوج بنظرة الاستحقار المعهودة. رفعت رأسي لأجدها تمسكني من رقبة قميصي، وتسحبني بقسوة إلى أرضية امتلأت بالبقع. صرخت مدوياً:

- ألم تشبع من النوم؟ لماذا هذه البقع هنا؟ فلتبدأ بالتنظيف!.

قلت باستغراب، بينما كان عقلي الصغير يحاول الاستيعاب: ماذا؟

- هل بدأ عملي منذ يومي الأول؟

لم يمهلوني وقتاً للفهم، بل وكزتني بقدمها وقالت:

- لا تسأل ولا تتذمر أيها الحيوان القذر، فلتنظف الأرضية وأنت مخروس!.

كان دلو المياه والإسفنجة الصفراء يناديانني لبدء العمل الشاق.

هززت رأسي وبدأت؛ كان الماء بارداً جداً كالثلج، والبقع كانت تقاوم يدي الصغيرتين بإصرار. انتهيت من مسح الأرضية بعد ساعتين من العناء، وأمعائي كانت تطلق أصوات إنذارٍ تريد طعاماً يسد رمقها.

ذهبتُ لسميرة بينما كانت تجلس مع زوجها جورج وابنها الذي يبدو أنه أحد أقراني، أخبرتها بأن الجوع تسلل إلى عظامي الباهتة وأنني أريد طعاماً. نظرت لي وأشارت بيدها نحوي لأتقدم لآخذ قطعة من الخبز، وما إن اقتربت حتى رنّت صفعة على وجهي أنستني الجوع وكادت تنسيني اسمي.

صرخ جورج غاضباً :

فلتذهب لتنظيف البيت كله، ثم نقرر إن كنت تستحق الطعام أم لا!

وأضافت سميرة بسمّها:

بعض الملابس المتسخة تنتظرك، فلتنظفها.. جميع أدوات التنظيف في أماكن واضحة، لذلك لا تعُد إلا بعد أن تنتهي توجهتُ لأنهي عملاً لا يليق بطفلٍ مثلي، ولا بأي طفلٍ آخر؛ كان متعباً إلى حد الجنون.

استغرقت ساعات طويلة والوجع ينخر جسدي مع كل حركة، ولم يتبقى لي سوى انظف الأطباق التي تناولوا بها طعام ، كانت يداي المتغضنتان تغوصان في رغوةِ المنظفات، وكأنني أحاول غسل عارِ وجودي لا بقايا طعامهم.

الماء البارد لم يكن يغسل الأطباق، بل كان ينسلُّ كإبرٍ من جليد يسكن مفاصل طفولتي الموءودة. هناك، فوق حوض الرخام، كنتُ أشاهد انعكاس وجهي الشاحب في الأواني الفضية، فيبدو مشوهاً، ضئيلاً، وغريباً، كأنني حطامٌ بشرى يُراد له أن يلمع فقط ليرتاح نظر الأسياد. وفي النهاية، رُمي لي بعض الطعام الزائد وبكمية قليلة لا تليق بالجهد الذي بذلته.. وهكذا كانت تمضي الأيام.

يبدأ يومي في الرابعة والنصف فجراً. العالم يغط في نوم عميق، إلا أنا، وصرير الباب المعدني الذي يفتحه جورج بركلة من حذائه الثقيل. لم يكن يوقظني بمناداتي باسمي، بل بصوت ارتطام الحذاء بالأرض قريباً من رأسي كقنبلة موقوتة: قم يا نغل الوجع.. الأرض تنتظرك.

أول ما تفعله يداي المرتجفتان هو الإمساك بخرقة التنظيف ودلو الماء الممزوج بالكلور المركز.

كان عليَّ أن أجثو على ركبتيَّ الصغيرتين، وأفرك كل بلاطة في ذلك الرواق الطويل الذي لا ينتهي. كانت رائحته تحرق أنفي وتقشر جلد أصابعي حتى تظهر الشرايين الدقيقة تحت الجلد الشفاف.

كنت أمضي ساعتين في تلميعه، حتى إذا ما خرجت سميرة في السادسة، نظرت إلى انعكاس وجهها في البلاط، فإن لم تجده مرآةً تعكس تجاعيدها، كانت تفرغ فنجان قهوتها الساخن فوق تعبي، لتقول ببرود: أعد الكرة.. اللقطاء لا يحسنون سوى التسكع.

كانت المائدة في ذلك البيت مسرحاً للعذاب النفسي؛ يجلس جورج وسميرة وابنهما ماجد يلتهمون أشهى أصناف الطعام.

الدجاج المحمر، الخبز الساخن الذي يخرج دخانه ليطارد أنفي الجائع، والفاكهة الملونة.

كنتُ أقتاتُ على الرائحة؛ تلك التي تعبرُ الهواء لتستقر في جوفي الخاوي كنصلٍ حاد. من مكاني المنخفض تحت الطاولة، كنتُ أراقب حركة أفواههم الراتبة، أبتلعُ ريقي المرّ وأتخيلُ قرمشة الخبز في لثتي الدامية. كنتُ هناك، مجرد ظلٍ منسيٍّ في زاوية الوليمة، أمارسُ طقوس الشبع الوهمي بينما تصطدمُ ضحكاتهم المترفة بقعر معدتي المنهكة.

ذات مرة، اشتد بي الجوع حتى ظننت أن معدتي ستثقب ضلوعي. سقطت قطعة من النقانق تحت قدم جورج نظرتُ إليها كما ينظر الغريق لسترة نجاة، وببراءة الطفل مددت يدي. لكن قبل أن تلمس أصابعي القطعة، شعرتُ

بضغطٍ هائل؛ وضع جورج حذاءه الثقيل فوق يدي، وضغط بكل ثقله. لم يصرخ، بل مال برأسه وقال بنبرة تفيض سماً:

يد اللقيط التي تمتد لما ليس لها، تُقطع.. هل تريدها مقطوعة يا بلال؟

بقيتُ صامتاً، والدموع تحفر أخاديد في وجهي المغطى بغبار المسح، لكنني لم أنطق بكلمة. في تلك اللحظة، لم أشعر بالألم في أصابعي بقدر ما شعرت به في كرامتي التي كانت تُداس مع كل ضغطة.

لكن في ذاك الصباح بدأ قانون جديد يضاف إلى لائحة أعمالي؛ فمنذ تلك اللحظة، عندما يحل المساء، وتبدأ حصة التأديب اليومية. لم يكن هناك سبب معين، كان الضرب جزءاً من روتين البيت، كالصلاة بالنسبة للمؤمنين.

لماذا نظرت لماجد هكذا؟، لماذا تنفست بصوت عالٍ؟

كان جورج يستخدم حزاماً جلدياً قديماً بمشبك معدني يترك علامات زرقاء وحمراء على ظهري.

كنت أرتمي في زاويتي بعد كل علقة، أحاول أن أضم جسدي النحيل إلى بعضه لأقلل مساحة الألم. كنت أنظر إلى سقف المطبخ، وأعد الشقوق في الطلاء، وأتخيلها خرائط لبلاد بعيدة سأهرب إليها يوماً.

في تلك الليالي، كنت أسأل الله، بلسان طفل لم يتعلم الصلاة بعد:

لماذا يا رب؟

هل كنتُ سيئاً في بطن أمي؟

هل كانت رائحتي قبيحة لدرجة أنهم رموني؟.

لكن الصمت كان الرد الوحيد. ومع مرور الأيام، بدأ قلبي يتصلب، لقد حفظت روتيني اليومي السئ ، كيف يبدأ صباحي وينتهي مساءي ، تلك الرقة التي كانت في عينيَّ بدأت تخبو، لتحل محلها نظرة حادة، باردة، تشبه نصل السكين الذي كنت ألمعه كل يوم في المطبخ.

لقد علمتني تلك العائلة أن العالم ليس بيتاً بل هو حلبة، وأنني لست ابناً، بل أداة.

مرت أربع سنوات، لم تكن مجرد أرقامٍ تُشطب من تقويم العمر، بل كانت طبقاتٍ كربونية من الجليد الأسود تراكمت فوق قلبي حتى استحال صخرةً صماء.

في التاسعة من عمري، سلبوني أثمن ما يملكه كائن:

اسمي. صار العالم يناديني بصيغة النكرة يا هذا، وغيرها من المصطلحات. لقد غادرتني ملامح الطفولة في هجرةٍ قسرية؛ غارت عيناي في عمق جمجمتي

كبئرين مهجورين، واستحالت يداي الغضتان إلى جلود زواحف حرشفية الملمس، شققتها المواد الكيميائية ورسمت فوقها خرائط من الوجع المكتوم.

في ذلك القصر الذي كان سجنًا لي، كان ماجد يقطن مجرةً من الحرير والضوء، بينما كنتُ أنا الظلال المهملة التي تمسح الغبار عن حذائه المدرسي، أنحني أمامه في ذلٍّ مقيم ليرى وجهه المترف في بريق جلدي المهان.

كنتُ أحمل حقيبته التي تزن أطنانًا من كرامتي المسلوبة، وأُجبر على الوقوف خلفه كتمثالٍ من الشمع وهو يلتهم الحلويات، أرصد الفتات المتساقط من ثغره المترف، وألتقطه بشهية المذلول كأنه هبة سماوية؛ فالحقيقة المرة هي أن الظلم ليس سوطاً يمزق الظهر فحسب، بل هو أن تُجبر على غسل الثياب التي سيتأنق بها جلادك غداً.

كان الشتاء في مدينتنا وحشاً أسطورياً ينهش بنواجذه العظام، وفي ذلك القصر، كانت المدفأة محرمًا على أنفاسي. روتيني الجنائي يبدأ بغسل بسط البيت الضخمة يدوياً؛ فجورج كان يقدس السجاد ويحتقر بشريتي، رافضاً إهانة الخيوط الثمينة بالغسالة، فقرر أن يكون جسدي النحيل هو الترس البشري البديل.

أقف في الفناء الخلفي، تحت مطرٍ ناعم كالإبر المسمومة، أغرس يديَّ في حوض الماء المثلج الذي تحول إلى مرآة من القطب الشمالي.

كنتُ أشعر ببرودة الماء وهي تخترق المسام، ثم العضلات، وصولاً إلى نخاع العظم، حتى تتخشب أصابعي وتصبح كقطع الخشب الميتة.

وعندما كنتُ أسترق ثوانٍ لأضع يديَّ المتورمتين تحت إبطيَّ بحثاً عن دفءٍ مستحيل، كان صوت سميرة يأتي كفحيح الأفاعي من خلف الزجاج الدافئ:

أكمل عملك أيها الكسول، وإلا فالعراء مضجعك.

كنتُ أغسل ثيابهم بماءٍ يغلي من مرارة قهري، بينما لا يستر رجفتي إلا قميص رقيق يشف عن اضطراب أضلاعي. هناك، أدركتُ فلسفة الوجع اليتيم:

أنَّ البرد يا سيدي ليس انخفاضاً في درجات الحرارة، بل هو الغياب التام للرحمة.

في أحد المساءات، أحضر جورج لماجد سيارةً فخمة تعمل بالتحكم عن بُعد. كنتُ أرقبها من زاويةٍ قصية وأنا ألمع الغبار، أرنو إليها كعصفورٍ يراقب سماءً لن يطير فيها أبداً. غافلني ماجد، وبنزعةٍ سادية ورثها عن أبيه، هشم اللعبة بمطرقة حديدية، ثم أطلق عويلاً مصطنعاً شق سكون الرخام.

هرع جورج وسميرة، فأشار ماجد بإصبعه المترف نحوي: بلال حطمها حقدًا!. لم يسألوني، لم ينظروا في عينيَّ اللتين كانتا تنطقان بالبراءة المذبوحة، بل جرّني جورج من شعري بغلٍّ، وسحبني نحو القبو المظلم، حيث تفوح رائحة الموت الصامت والذكريات الموءودة.

هناك، ربط يديَّ إلى ماسورة مياه مرتفعة، ونزع قميصي ليعري قهري. سأعلمك كيف تنظر لأسيادك بحقد، قالها وهو يهوي بسوطه الجلدي على ظهري العاري.

مع كل ضربة، كنتُ أشعر بجلدي يتمزق كقماش عتيق، وبحرارة الدم وهي تنفر لتبرد فوق البلاط القذر. لم أصرخ؛ ففي مذهب الألم الذي اعتنقته، الصراخ هو الموسيقى المفضلة للجلاد، ولم أكن لأمنحه لذة النشيد. لكن العقاب الأكبر كان الأمر الذي صنعه جورج ؛ حين أعطى ماجد عصا خشبية وقال له: اضربه يا ماجد، لتتعلم كيف تؤدب عبيدك.

ضحك ماجد، وهوى بالعصا على وجهي، تلك الضربة التي استقرت في عيني اليسرى لم تطفئ النور فيها فحسب، بل تركت جرحاً في الذاكرة والجسد لا يندمل.

حين هوت العصا، لم أشعر بالألم في اللحظة الأولى؛ بل شعرتُ بانفجارِ شمسٍ سوداء داخل رأسي. انطفأ العالمُ في جهتي اليسرى فجأة، وكأن ستارةً من الدم والظلام أُسدلت على نصف حياتي. في تلك الثانية، لم يتحطم زجاج عيني فحسب، بل تهشمت صورة والدي التي كنتُ أحاول رسمها في قلبي، وحلّ محلها يقينٌ مرّ بأن النور في هذا البيت هو ملكيةٌ خاصة للأسياد فقط.

انسحب جورج تاركاً وراءه صمتاً يئنّ، وجسداً لم يعد ملكي. لم يكن الألم صراخاً، بل كان همساً بارداً يتغلغل في العظام. استلقيتُ على البلاط الذي امتصّ حرارة دمائي، وشعرتُ بروحِي تحومُ فوق سقف الغرفة، تنظر بشفقةٍ إلى ذلك الكوم الهزيل من اللحم والجلد الممزق.

في تلك اللحظة، لم أتمنَّ الموت خوفاً، بل تمنيتُه كفعلِ تمردٍ أخير؛ أن أسرق من بين أيديهم الشيء الوحيد الذي ما زالوا يحرصون على تعذيبه.

حاولتُ تحريك مفاصل الوجع، لكن جسدي لم يعد مطاوعاً. أخشى على نفسي من هذا التعب، وما زلت لا أدري.. هل أنا حيٌّ أتألم، أم أنني محضُ جثةٍ نسيتْ أن تموت؟

الفصل الثاني:

حين تسقط الرحمة من القلوب، يتحول البشر إلى مسامير، والضعفاء إلى ألواحٍ خشبية في نعشِ الإنسانية.

استيقظتُ على غارةٍ من صقيع؛ مياهٌ كالحمم الباردة انهمرت على وجهي، ألقَت بها سميرة لتنتشلني من غيبوبة نومي المثقل بالأوجاع. نهضتُ فزعاً، أحاول استجماع أنفاسي التي غصّت ببرودة الماء، شهقة طويلة تليها شهقة قصيرة.

كان جسدي يرتعش كغصنٍ في مهب ريحٍ تشرينية، وعقلي لم ينجُ من تلك الغارة، فقد تجمدت أفكاري.

صرخت بي بصوتٍ يملأه القيظ:

انهض أيها الكسول! اذهب إلى تلك البقالة القابعة في أقسى المدينة، فجوعنا لا يرحم. وليكن في علمك، منذ اليوم، هذا طقسك الصباحي.. إياك والتأخر!.

تحاملتُ على جسدي الذي لم تندمل جروحه بعد، وقفتُ والوهن يشدني للأرض، وخطواتي تتعثر ببعضها كأنني أتعلم المشي لأول مرة.

رمت إليّ ورقة المشتريات باحتقار، فالتقطتها بحذر ورحلت. كانت هذه هي المرة الأولى التي تتخطى فيها قدماي حدود الحيّ، بدأت أسير في شوارع المدينة التي بدت لي كغابةٍ من صخب.

رأيتُ الأطفال يركضون كفراشاتٍ ملونة، صرخات لعبهم تملأ المدى بهجة، وباعة الخضروات يرفعون عقيرتهم بأصواتٍ رخيمة: خيارٌ.. تقدموا ... تقدموا.. الكيلو بخمس قطع، طماطمٌ طازجة بسبع!.

لم تغب عن عيني واجهات محال الثياب البراقة، ومتاجر الألعاب التي كانت تضج بالنداءات:

عروضٌ لا تُفوت! ألعابٌ تسلب الألباب، هيا أحضر لصغيرك فرحة!.

كنتُ أقف متسمراً أراقب العائلات؛ آباءٌ يمسكون أيدي أطفالهم، يشترون لهم كل ما اشتهت أنفسهم من لذات، بينما كنتُ أنا غارقاً في عزلتي.

كانت رائحة القذارة تنبعث مني كدخانٍ أسود، شعري الذي لم يعرف المشط منذ أمد، ملابسي التي استحالت خِرقاً، ووجهي الذي غطته طبقات من الغبار والدموع الجافة. همستُ لنفسي بمرارة:

حتى طهر الماء حُرِمتُ منه.. أيُّ قدرٍ هذا الذي صغتُموه لي يا والديّ؟!.

وصلتُ أخيراً إلى البقالة. كانت تفوح منها رائحةُ توابلٍ قديمة وخبزٍ طازج. ومن زاويةٍ خفية، انبعث صوتٌ لم أعهد له مثيلاً؛ صوتٌ ينساب كالماء الرقراق في وادٍ جدب، أيقنتُ أنها أغنية حزينة لأنها لمست شغاف قلبي المكلوم بسرعه ،خفق صدري بعنف، وشعرتُ برغبةٍ جامحة في البكاء والارتماء في أحضان تلك الكلمات المريحة.

دخلتُ بخطواتٍ متعثرة وبطيئة ، كان الباب الخشبي العتيق مفتوحاً، ناديتُ بصوتٍ مبحوح:

مرحباً.. هل من أحد؟، رددتها أربعاً، لكن الصدى كان جوابي الوحيد. انزويتُ في ركنٍ مظلم من الدكان، أرقبُ الرفوف الخشبية المرصوصة بعناية، حتى يآتي صاحب هذا الحانوت.

فجأة، دخل أربعة صبية، ثيابهم ناصعة البياض، ووجوههم تشرق كأنها فُلقت من قمر، بدوا كملائكةٍ ضلوا طريقهم إلى الأرض، هؤلاء من يجب أن يطلق عليهم باسم الأطفال لا أنا ولا أمثالي.

نظروا إليّ لوهلة، ونظروا الى بعضهم البعض، وفجأة تحولت ملامحهم إلى قرفٍ لا يطاق.

اقترب أحدهم نحوي بخطوات مدروسة وثابتة ،ونظر إلى من رأسي إلى أغمص قدمي، وضحك بسخرية، ثم قال الآخر بلهجةٍ لا ترحم:

اخرج من هنا! رائحتك لوثت المكان بأكمله.

في تلك اللحظة، نهض رجلٌ مسنٌّ من خلف كومة من الأكياس المملوءة بالبهارات، كان يجلس على سجادة صلاةٍ من جلد خروفٍ ناعم. تقدم بوقارٍ كأنه جبلٌ من السكينة، سكينة جعلت جلدي يقشعر بالكامل، وقال بصوتٍ هادئ ورزين:

– ماذا قلت يا يزيد؟ كم مرة جيب أن أعيد لك كلامي لتحفظه.

كفاك قولاً لا يُسمن ولا يغني من جوع.

اشتروا ما شئتم وغادروا بسلام. اشترى الصبية ألواناً من الحلوى، وأشهى المأكولات والمكسرات، وكنتُ أراقب حركة أفواههم، أتخيل طعم السكر الذي لم يزر لساني قط.

التفت إليّ الرجل العجوز، كانت عيناه تحملان دفء الدنيا كلها. سألني بحزنٍ ظاهر:

من أنت يا بني؟ وما الذي حلّ بحالك؟

ما بال جسدك قد هزل ووجهك قد شحب؟ هل آذاك هؤلاء الأطفال المشاكسون؟.

خفتُ من سيل اهتمامه الذي لم أعهده من قبل. فمددتُ له الورقة بيدي المرتجفة، وأنا لازلت ألتزم الصمت.

تناول الورقة مني وبدأ بجمع ما وجد فيها، وبينما كان يجمع الطلبات، عاد ذاك الصوت المنبعث من الراديو يصدح مرة اخرى بنفس الكلمات الحزينة، فلم أتمالك نفسي هذه المرة ؛ ضاق صدري وملئت دموعي عيني وانخرطتُ في بكاءٍ مرير، بكاءٍ غسل غبار القهر عن روحي.

قاطع صوت شهقات بكائي صوت صراخ العجوز:

ما بك يا بني ، ما الذي يبكيك؟

توجه رجل العجوز نحوي مسرعاً، تارك كل ما كان يفعله، وحاول تهدئتي، ولسؤاله الملحّ عن سبب هذا البكاء الذي يفطر له نياط القلب ، قصصتُ عليه شذراتٍ من جحيمي، أخبرته وأنا أتلعثم كثيراً ، حتى أنني خفت أن لا يفهم علي ويصفني بالمجنون.

لكنني صدمت عندما سقطت من عينيه دمعةٌ حارة، واحتضنني بقوة كادت تكسر عظامي .

يا الله..! لم يبالِ بقذارة جسدي، ولم يشمئز من رثاثة حالي. غمرني بحنانٍ لم أشعر به منذ يومي الأول على هذه الحياة السخيفة.

أدخلني إلى غرفةٍ ملحقة بالدكان، كان بيته المتصل بمصدر رزقه تفوح منه رائحة المسك والبخور.

أمرني بالاستحمام وقدم لي صابوناً معطراً، وأوصاني بالحذر على ختش جروحي عند تنظيفها فتسيل الدماء مرة آخرى . شعرتُ بالماء يلامس جلدي كأنه يغسل ذنوب العالم عني، ومع كل قطرة ماء تسقط كنت أشعر بأن هم من همومي سقطت معها ، شعور النظافة كان أجمل من أي قصيدة.

خرجتُ، فاستقبلتني فتاة تبدوا أصغر مني سناً بقليل تحمل بين كفيها لفائف طبية وبعض أنواع المراهم، منحتها للرجل العجوز وبدأ بفوره يضمد جروحي بيده الحانية ،وقال لي :

- هذه ابنتي صغرى وقرة عيني أمل، ألقيت عليها التحية، ثم قدم لي رجل طعاماً شهياً وبسكويتاً.

سألته والدهشة تلجم لساني:

- لماذا تفعل هذا؟
- وماذا تريد مقابل هذا المعروف؟
- وما هذا الصوت الذي يسكن روعي، والذي جعل الشجن يسيطر على هكذا؟

ضحك الرجل بوقارٍ وقال:

- يا بني، الإحسان لا يحتاج لمقابل. ديني يعلمني أن الرحمة باليتيم بابٌ للجنة. وهذا الصوت هو القرآن، كلام خالقنا رب سماوات والأرض.

سألته بجهلٍ طفولي:

- وما دينك؟ هل أنت مسيحي أم كاثوليكي؟ وهل ذكر القرآن اليتيم فعلاً؟.

أجابني وعيناه تلمعان بنور الإيمان:

- ديني هو الإسلام، وأتمنى أن تأت هنا دائماً لأحدثك عنه. نعم يا بني، لقد نزلت في القرآن آياتٌ تقرع القلوب والآيات التي سمعتها هي قول الله تعالى:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ۞).

إقشعر جسدي من تلك الكلمات ، أردت البقاء أكثر لأساله أكثر عن هذه الكلمات، لكنني أدركت أنني تأخرت على جورج وسميرة.

ودّعني الرجل بحفنة من البسكويت وكلماتٍ من نور، وعدتُ أدراجي وأنا مطمئن.

لم أكد أنتصف الطريق حتى دهمتني يد جورج الغليظة. انتشلني من أذني بقسوةٍ أخرست لساني.

صرخ بملءِ حنجرته:

- أين كنت يا نذل؟.

وقبل أن أنطق بكلمة، كان يجرُّني بعنفٍ نحو القبو.

صاح بسميرة انظري إليه!

- من أين له هذا المال ليتنظف ويعالج جروحه؟!

ردت سميرة بجفاء وهي تسحب الكيس:

- دعك منه الآن يا جورج، المهم أن الطعام وصل، ماجد يكاد يجن من الجوع.

ألقيا بي في غياهب القبو المظلم، وأوصدا الباب. تمددتُ فوق الحصير البالي، ورائحة الصابون المنبعثة من جسدي كانت عزائي الوحيد. وضعتُ قطعة البسكويت داخل فمي، واسترجعتُ صوت القرآن في مخيلتي.

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ۞).

رغم الظلمة والجرذان وقسوة جورج، نمتُ تلك الليلة والسكينة ترفرف فوق قلبي، أو هذا ما خيل لي ، أحلم بذاك الرجل، وبكتابٍ لا أعلم عنه سوى أنه قال أن اليتيم لا يُقهر فيه..

مرّت ليلة القبو طويلة، لكنها لم تكن كغيرها؛ فقد كان عبير الصابون الذي غسل جسدي يفوح في ثنايا صدري، يطرد رائحة العفن والرطوبة.

في الصباح التالي، لم أنتظر صرخة سميرة ولا رشقة مائها البارد، بل نهضتُ قبل الفجر، يعتليني شوقٌ غريب لتلك البقالة، لذاك الضياء الذي لمسته في وجه الرجل المسلم.

رمت لي سميرة الورقة كالعادة بعد صفعة على وجهي، وانطلقتُ أعدو في شوارع المدينة التي بدت في بواكر الصباح غارقة في ضبابٍ كثيف.

وصلتُ إلى شارع الذي تتواجد به البقالة، فكان الرجل واقفاً أمام دكانه، يمسح الرصيف ببعض من ماء، وحين رآني، انبسطت أسارير وجهه عن ابتسامةٍ شعرتُ معها أنني ولدتُ من جديد.

دخلتُ الدكان، وكان صوت القرآن يملأ الأركان من جديد، لكنه هذه المرة لم يبكني، بل ملأني بطمأنينةٍ عجيبة، طمأنينة تمنيت أن أشعر بها كل يوم، جلس الرجل على سجادة الخروف، وأشار إليّ بالجلوس بجانبه. وضع أمامي قطعة خبزٍ دافئة وكوباً من اللبن، وقال بصوتٍ رخيم:

– أهلاً بك يا بلال.. كنتُ أنتظر قدومك إلى حانوتي بفارغ صبر..

نظرتُ إليه بذهول، وسألته:

– "يا عم، كيف لهذا الكلام الذي يسمى القرآن أن يغير حالي هكذا؟

وكيف لدينك أن يجعلك تعطف على قذرٍ مثلي بينما يضربني من عرفني ؟"

وضع يده على كتفي، وشعرتُ بدفئها يتسرب إلى عظامي، ثم قال:

- "يا بني، ديني ليس مجرد صلاة، بل هو خُلق . نبينا الكريم محمد ﷺ ولد يتيماً كحالك، لذا أوصانا باليتامى خيراً. اسمع ماذا يقول الله في كتابه عن رعاية الضعفاء.."

بدأ يتلو بصوتٍ خاشع:

لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ... وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ ۞ [البقرة: 177].

ثم شرح لي كيف أن البر ليس مجرد حركات، بل هو في العطاء، وفي مسح رأس اليتيم، وفي إطعام الجائع. شعرتُ حينها أنني لستُ منبوذاً من السماء، بل إن هناك خالقاً يرعاني ويسخر لي هذا الرجل الصالح.

بينما كنا نتحدث، دخل زبونٌ غليظ القول، بدأ يتذمر من تأخر الطلب ويرفع صوته على الرجل المسن ويصرخ به:

أنهي طلب يا صالح بسرعة أنهيه، لكن رجل المسلم صالح ظل مبتسماً، هادئاً، يردّ بكلمة طيب وحاضر حتى امتص غضب الزبون ورحل الأخير خجلاً من كرم أخلاق التاجر.

نظرتُ إليه بإعجاب وقلت:

- "لو كنتُ مكانك لصرختُ في وجهه!"

ضحك وقال:

- يا بلال، المسلم لا يسيء لمن أساء إليه، بل يدفعه بالتي هي أحسن. هذه هي العزة الحقيقية، أن تملك نفسك عند الغضب.

أعطاني عمي صالح طلبي، وأضاف إليه خفيةً بعض الفاكهة، وهمس في أذني:

- يا بني، تذكر دائماً أن جروح جسدك ستشفى، لكن جروح روحك لا يشفيها إلا القرب من الله. كن صابراً، فالفرج لا يأتي إلا بعد ضيق.

عدتُ للمنزل، وكان جورج ينتظرني عند الباب، حين ارتفعت يده لتنال من وجهي كالعادة، لم ترتجف أوصالي. كانت صفعةً مدوية، لكنها اصطدمت بوجهٍ استحال صخراً. لأول مرة، لم أبحث عن الأرض لأداري انكساري، بل غرزتُ نظراتي في عينيه المتوهجتين بالغلّ. كان هناك شيءٌ جديدٌ ينمو تحت جلدي، درعٌ صاغته تكون من كلمات صالح وآيات الرحمة، جعلت سوطه يبدو لي مجرد خيطٍ واهن أمام كبرياء الروح التي بدأت تستيقظ من سباتها الطويل.

جُن جنونه من ثباتي، فجرني من قميصي وألقى بي في القبو، صرخ وهو يوصد الباب:

- ستبقى هنا بلا طعام حتى الصباح، لنرى إن كان عنادك الجديد سيطعمك!

تحسستُ حبة تفاحٍ كنتُ قد خبأتها في جيب ثوبي الممزق. أكلتها ببطء، وفي كل لقمة كنتُ أتذوق طعم الرحمة التي غرسها ذلك الرجل في قلبي.

أغمضتُ عينيّ، وبدأتُ أحاول تقليد نبرة صوت الرجل وهو يرتل:

فأما اليتيم فلا تقهر .شعرتُ أن القبو لم يعد سجناً، بل صار محراباً صغيراً. نمتُ قرير العين، أحلم باليوم الذي سأتحرر فيه من سجن جورج لأكون بلالاً جديداً، إنساناً حراً، كما أخبرني عمي صالح .

الفصل الثالث:

البيوت التي لا تشرق فيها الشمس على الحب، تتحول إلى ثلاجات موتى؛ الأجساد فيها تتحرك، لكن الأرواح قد عُرضت في مزاد المكسورين وبِيعت لأول جلادٍ دفع ثمن الصمت.

كان خروجي من منزل جورج وسميرة في كل صباح يشبه عملية إحياء مؤقتة لجثةٍ حُكم عليها بالتعفن خلف الجدران.

كانت سميرة تدفعني من ظهري النحيل، وتلقي في حجري قائمة الطلبات ورزمة من العملات الورقية المهترئة، وكأنها تلقي قذارةً في سلة مهملات.

اسمع يا ابن الشوارع، إن عدتَ وناقصٌ في ميزانك غرام واحد من الهيل أو الزعفران، سأجعل من جلد ظهرك ميزاناً لجلادي، كانت كلماتها تسكن أذني كطنين الذباب الأزرق الذي يقتات على الموتى..

الشارع بالنسبة لطفلٍ مثلي لم يكن فضاءً، بل كان مرآةً تعكسُ قبحي وفقري. كنتُ أمشي بمحاذاة الحائط، أتحاشى ظلال الناس كي لا تتلوث بظلي. كنتُ أرى وجوه المارة؛ وجوهٌ تضجُّ بالحياة، نساءٌ يفوح منهن عطر الياسمين، يحملن أطفالاً بملابس ناصعة البياض، يداعبن خصلات شعورهم بحنانٍ كنتُ أظن أنه خرافة اخترعها الروائيون.

كنتُ أقف طويلاً أمام واجهة محلٍ لبيع الألعاب، أنظر إلى تلك الكرة الحمراء، أو ذلك القطار الخشبي، وأتساءل بمرارة تذبح الحنجرة:

يا والدي.. هل كنتُ يوماً طفلاً يستحق أن يلمس هذه الأشياء؟

أم أن أصابعي خُلقت فقط لتمسح الغبار وتُكوى بالحديد؟.

كانت دمعةٌ حارقة تفرُّ من عيني، فأمسحها بسرعةٍ بيدي الملوثة بالرماد، مخافة أن يراني عابر سبيل فيشفق عليّ، والإشفاق هو السهم الوحيد الذي لم أكن أحتمل دخوله في صدري.

بعد مسيرةٍ في زحام الغرباء، أصلُ إلى ذلك الزقاق الضيق الذي لا تدخله خيول الأغنياء لعرباتها. هناك، حيث يفوح عبيرٌ لم أعهده في منزل سميرة؛ إنه مزيجٌ صوفي من رائحة القهوة العربية الممزوجة بالهيل، وريحانٍ طازج يتدلى من أصصٍ فخارية، وبخورٍ عودي يملأ الفضاء بسكينةٍ تجبر القلوب المنكسرة.

كان صالح يقف بجبته القماشية البسيطة، يبتسمُ لي قبل أن أصل إليه بعشرة أمتار. لم تكن ابتسامته مجرد حركة شفاه، بل كانت حضناً دافئاً يمتد ليرمم شظايا روحي.

أهلاً ببلال.. أهلاً بريح الجنة التي تزور حانوتي المتواضع.. كان ينطقها بصوتٍ جهوري هادئ، يجعلك تشعر أنك أهم كائنٍ في هذا الوجود.

كان أول روتينٍ يقوم به صالح هو التمهيد الإنساني.. كان يترك كل ما بيده، يترك الميزان، يترك الزبائن، ويأتي إليّ. يمسك يديّ المرتجفتين اللتين تحملان المال، لا ليأخذ المال، بل ليتحسس البرد في أطرافي.

يداك باردتان يا بلال.. هل أفزعك البرد أم أفزعك البشر؟

كان يقولها وهو يفرك يديّ بيده الخشنة الدافئة، فكنتُ أشعر بدفءٍ يسري في عروقي لم تشعله مدافئ سميرة طوال حياتي.

يجلسني العم صالح على كرسيٍّ مخصص لي، مغطى بقطعة من الصوف النظيف. يضع أمامي طبقاً لا يشبه أطباق الخدم؛ كان طبقاً مزخرفاً، فيه قطعة كبيرة من الجبن الأبيض، وحبات من الزيتون الذي يقطر زيتاً ذهبياً، وقطعة من الخبز المسمسم الذي تفوح منه رائحة الأمان...

كل يا قرة عيني.. فهذا الطعام لم يُطبخ بماءٍ ومال، بل طُبخ بالحب والدعاء.

كان صالح يتأمل جروحي القديمة، يسألني عن كل ندبةٍ كأنها جرحٌ في جسده هو. كان يحضر زيتاً مباركاً قال بأن مصدره فلسطيني يقرأ عليه آياتٍ من كتابه العظيم، ويدهن به الحروق التي تركتها سميرة على كتفي. كان يهمس:

يا الله، اجعل هذا الزيت برداً وسلاماً على بلال كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

في هذا الحانوت، تذوقتُ معنى الحوار لم يكن يأمرني، بل كان يستشيرني:

ما رأيك يا بلال، هل نضع القرفة هنا أم الزنجبيل؟ .

كانت هذه الأسئلة البسيطة تعيد لي إحساسي بأن لي رأياً، بأن لي وجوداً، بأنني لستُ مجرد جيفةٍ تمشي على قدمين.

كان صالح يعلمني كيف أعتزُّ باسمي. قال لي ذات مرة:

يا بلال، اسمك هو صرخة الحق في وجه الباطل. هل تعلم أن بلال الحبشي عندما كان يُعذب، كان يبتسمُ للجلادين، ويقول أحد أحد، لأنه كان لا يؤمن إلا بالله الواحد القهار، كان يعلم أن السوط يلامس الجلد فقط، لكنه لا يصل إلى الروح. كنتُ أنظر إليه بدهشة، وأتساءل في سري:

أهناك إلهٌ يجعل العبد يبتسمُ لسوطه؟

أهناك دينٌ يعطي للمضطهدين هذه القوة الجبارة؟.

عندما يحين وقت الرحيل، كان صالح يملأ لي الأكياس بأفضل ما عنده. كان يزنُ بميزانين؛ ميزانٌ للطلبات، وميزانٌ للحب. لم يكن صالح يزنُ لي البهارات، بل كان يزنُ بؤسي في كفةٍ، ورحمة الله في كفةٍ أخرى، فكانت الرحمةُ دائماً هي الراجحة. كان يضع حباتٍ من زبيب وبسكويت في جيبي سراً، ويقول:

"هذه لتأكلها في الليل حين ينام الظالمون، تذكر مذاقها وتذكر أن الله يخبئ لك ما هو أجمل من هذا بكثير."

كنتُ أخرج من الحانوت وأنا أمشي ملكاً في ثوب شحاذ. لم أعد أرى أحذية المارة، بل كنتُ أنظر إلى السماء التي حدثني عنها صالح.

كنتُ أشعر أن لي سنداً غيبياً، إلهاً يدعى رحمن ينتظر أن يسمع صوتي، لكنني أخاف أن أدخل هذا الدين فيغضب مني والديَّ....

يا والدي.. لقد كان حانوت صالح هو الرحم الذي ولدتُ فيه من جديد. كانت جدرانه الخشبية أحنَّ عليّ من صدر أمي الذي لم أضمه، ومن ذراعيك اللتين لم تحملاني يوماً.

كنتُ أعود إلى منزل سميرة، وأنا أحمل في قلبي نوراً يكفي لإضاءة كل أقبية العالم المظلمة.

السماء رمادية وثقيلة كأنها سقف زنزانة أخرى. مشيتُ فوق أوراق الأشجار الجافة التي تساقطت في الخريف؛ كان صوت انكسارها تحت حذائي الممزق هو الصوت الوحيد الذي يواسي صمتي.

رائحة الأرض المبللة بطلائع المطر كانت توخز أنفي، تذكرني بأن الأرض لا تزال تتنفس رغم أنني أشعر بالاختناق. توقفتُ للحظة، نظرتُ إلى غصنٍ عارٍ يهتز مع الريح، وشعرتُ أننا متشابهان؛ كلانا جردته الأيام من ستره، وتركته يواجه العراء وحيداً.

كان المطر، يجلد زجاج الحانوت الصغير بانتظام كما لو كان سياطاً تهوي على ظهر المدينة. في الداخل، كان الصمت ثقيلاً، يقطعه فقط أزيز سراج الزيت الذي أشعله صالح. كان اللهب يتراقص، فيرسم ظلالاً متذبذبة على وجه صالح المجعد، بدت لي تلك التجاعيد في تلك اللحظة وكأنها خرائط لدروب سرية لم يسلكها أحد قبلي.

تنهد صالح بعمق، وكأن الكلام الذي سيقوله يزن جبالاً، ثم قال بصوت خفيض:

يا بلال.. لكل منا بئره الخاصة. والفرق بين من يغرق ومن ينجو هو ما يراه في قاع تلك البئر.

هل تسمع حكاية صبيٍّ كان أجمل من أن يتركه العالم وشأنه؟

تركني معلقاً بكلماته، ثم بدأ ينسج خيوط قصة يوسف الصديق. لم تكن مجرد كلمات؛ كنت أرى يوسف الصغير وهو يحدق في إخوته بذهول، يرى الغدر في العيون التي كان يتوقع منها الحب.

في تلك اللحظة، لم أرَ يوسف.. رأيتُ نفسي في مطبخ جورج. شعرتُ ببرد في رئتي وبحرقة السوط في ظهري. تمسكت بطرف رداء صالح بضغط هستيري، وسألته بنبرة مرتعشة:

وكيف لم يمت من الخوف يا عمي؟

كيف لم يتوقف قلبه في تلك العتمة؟

وضع صالح يده الخشنة على يدي، وكانت حرارتهما تتسرب إلى برودة كفّي:

لأنه لم يكن وحده. في قاع البئر، اكتشف يوسف أن الذي شق البحر لموسى هو ذاته الذي يؤنس وحشة الغريب. عاش باليقين يا بلال.

وحين جاءت القافلة، لم تكن طوق نجاة كما نظن، بل كانت بداية عبودية جديدة. بيع بدراهم معدودة.. بيع كأنه سلعة لا روح فيها، تماماً كما حاولوا أن يفعلوا بك.

استمر صالح يروي كيف كبر يوسف في القصر، وكيف حاربته الشهوة والظلم، وكيف اختار عتمة السجن طواعية على نور المعصية.

وصف لي سنوات السجن وكأنها خلوة مع الله، وكيف خرج منها ليس فقط بريئاً، بل عزيزاً يملك خزائن الأرض ويطعم الذين أجاعوه.

سألته والدهشة تأكل ملامحي:

وكيف عرفت كل هذا التفاصيل؟ هل كنت معه في سجنه؟

ابتسم صالح ابتسامة لم أرَ أصفى منها، ثم رتّل بصوت رخيم هزّ أركان الحانوت الصغير:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

سكنت حركتي تماماً. الكلمات لم تدخل أذني، بل شعرت بها تسري كتيار كهربائي يرمم الأعصاب التالفة في جسدي. قلت بانفعال: وماذا فعل بإخوته؟ هل أحرق قلوبهم كما أحرقوا طفولته؟

ضحك صالح ضحكة هادئة وقال:

هنا تكمن العظمة يا بلال. حين وقفوا أمامه أذلاء، لم يرفع في وجوههم سوطاً، بل رفع في وجوههم مرآة الحقيقة

وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

لقد كسر دائرة الوجع بالعفو، وصار ملكاً على قلوبهم قبل أن يكون ملكاً على أرضهم.

خمد السراج قليلاً، لكن النور في صدري كان يتوهج. نظرت إلى كفّي المشققتين، ورأيت فيهما ندوب يوسف، وذل العبودية، وصبر السجن. شعرت لأول مرة أنني لست نكرة في هذا الكون، بل أنا جزء من حكاية كبرى بدأت بدموع صبي في بئر، وانتهت بعزّ نبي في قصر.

عندما انتهى صالح، كنتُ كمن استيقظ من حلمٍ سماوي. نظرتُ إلى يديّ المشققتين وقلتُ: إذن يوسف نبيهم كان يعاني مثلي وباعوه مثلي، وسُجن مثلي، وغدر به أهله مثلي..

أومأ صالح برأسه:

نعم، ولكن نهايته كانت العز، وكذلك ستكون نهايتك إن صبرت.

عدتُ إلى المنزل، كانت رائحة قصة يوسف لا تزال في أنفاسي، لكن سميرة كانت لها رأي آخر مختلفٌ تماماً.

بمجرد دخولي ذاك المنزل ،ماسورة الحديد هبطت على ظهري. تأخرت يا ابن العاهرة!، صرخت وهي تجرني من أذني. رمتني على الأرض، وأحضرت بذور الفلفل الحار وسحقتها، ثم وضعتها في عينيّ!

كان الألم يفوق الوصف، شعرتُ بنارٍ تلتهم بصري، كانت تصرخ: لكي لا تفكر بتسكع مرة أخرى!.

حبستني في غرفة الفئران بلا ماء. كنتُ أتلوى من الحرقان في عينيّ، وظهري ينزف، ومع ذلك، كنتُ أهمس في الظلام بصوتٍ مبحوح: يا رب يوسف. . . لقد وضعوا النار في عينيّ، فأنزل عليّ من ريح قميصك برداً وسلاماً.

لقد كانت قصة يوسف هي الدرع الذي تلقيتُ به ضربات سميرة، والماء الذي شربته في عطشي. نمتُ وأنا أشعر أنني لستُ وحيداً في هذا القبر، فالله الذي كان مع يوسف عندما كان في البئر، هو الآن معي في زاوية هذا القبو المظلم.

الفصل الرابع :

نصبر لا لأننا أقوياء، بل لأننا لا نملك خياراً آخر سوى التلاشي أو الوقوف بانتظار معجزة.

خرجتُ من منزل سميرة في ذلك اليوم وكأنني أحمل جبال الأرض فوق كاهلي. لم تكن الشمس التي تلسع قفاي أشد حرارة من السياط التي تركت أخاديدها على ظهري.

كانت مشيتي متثاقلة، ورأسي يميل جهة اليمين بسبب تشنج في عضلات الرقبة إثر ضربة الماسورة الأخيرة التي هوت بها سميرة بكل حقدها لأنني تأخرتُ في عودة إلى منزل.

كنتُ أجرُّ قدمي جرّاً، وأصابع يدي ترتجفُ بشكلٍ لا إرادي؛ إنها رعشات الخوف التي يسخر منها ماجد دائماً ويسميها رقصة العبيد ،كنتُ أنظر إلى المارة في الشارع، فأرى في عيونهم تلك اللامبالاة الباردة التي تقتلني أكثر من سوط سميرة نفسه.

العالم يمر من حولي، الناس يضحكون، يتبادلون التحية، يشترون الخبز، وأنا أنزف في صمت، ولا أحد يسأل:

لماذا ينطفئ النور في عيني هذا الصبي؟.

وقفتُ عند المنعطف، أخذتُ نفساً عميقاً يملأ صدري الضيق الذي ضاقت به أنفاس الظلم. حاولتُ مسح غبار الطريق عن وجهي بكسرة ثوبي المهترئ، وهذبت خصلات شعري بيدي المرتعشة، أردتُ أن أداري انكساري، أن أبدو قوياً كجنديٍ عائد من معركة خاسرة لكنه لم يسلم سلاحه بعد.

دخلتُ الحانوت، فدقَّ الجرس الصغير المعلق على الباب الخشبي العتيق، كان صوته بالنسبة لي كأجراس الحرية.

كانت الرائحة في الداخل اليوم استثنائية؛ مزيج من القرفة، البخور العتيق، وصبغة الجلود، رائحة طهرت مسامي من عفن القبو الذي أقطنه. لم يكن صالح خلف الميزان، بل كان في زاويته المعهودة، ساجداً لله بوقارٍ يجعل الجدران تخشع معه. وقفتُ مكاني أراقبه، كان ظهره المنحني كجسرٍ يربط الأرض بالسماء، شعرتُ بالغيرة من تلك السكينة التي تغلفه، سجدة تجعله يبدو ملكاً متوجاً رغم ثيابه المرقعة.

حين رفع رأسه ورآني، شهق شهقةً مكتومة، كأن قلبه هو الذي أبصر جروحي قبل عينيه. ركض نحوي، وأمسك بكتفيّ بقوة:

يا الله! يا الله! يا بلال.. ما هذا؟

هل تحولوا إلى وحوش ضارية؟

وجهك خريطة من الوجع يا ولدي!

لم أستطع الصمود، انهرتُ بين يديه كجدارٍ قديم نخر فيه السوس. سقطتُ على ركبتيَّ وبكيتُ بكاءً مريراً، بكاءً كان يخرج من أعماق روحي قبل حنجرتي. كان صالح يضمني، يدفن رأسي في جبته الخشنة التي كانت أحنّ عليّ من ريش النعام، ويتمتم بكلماتٍ نورانية كانت تبرد حروق قلبي.

أجلسني على صندوق خشبي تفوح منه رائحة الزعتر، وأحضر قطعة قماش بيضاء ووعاءً من الماء البارد. بدأ يمسح الدماء اليابسة عن جبهتي برفق، كأنه يرمم لوحة أثرية محطمة، ثم همس في أذني بصوتٍ حازم كحد السيف:

اسمعني جيداً يا بلال.. لقد طفح الكيل، والظلم إذا اشتد انقطع. سميرة نزعت الرحمة من صدرها واستبدلتها بحجرٍ أصم.

الليلة، حين يغرق المنزل في النوم، وتكف العيون عن المراقبة، لا تبقَ هناك ثانية واحدة. اهرب يا ولدي، تعال إليّ، سأخبئك في المخزن السري خلف رفوف التوابل الثقيلة، وهناك لن تصل إليك يد بشر. ومع أول خيط من الفجر، سأخذ أول طائرة ونرحل نحو المدينة المنورة.. هناك، حيث العدل يسقي الشجر والبشر.

سألته بدموعٍ حارقة:

- وماءا عنك يا عمي؟
- ماذا لو عرفوا؟

ابتسم صالح ابتسامة شاحبة وقال:

- أنا رجلٌ عجوز، قضيتُ عمري أبيع التمر وأنتظر لقاء الله. إن حدث لي شيء في سبيل إنقاذ روحك، فَديتك يا ولدي، فإن سجنت

فسيكون سجني خلوة، وإن قتلتُ، فشهادتي حياة. المهم أنت يا بلالي الصغير.. لا تتركهم يكسرون روحك أكثر.

سندتُ ظهري الموجوع وقلتُ بصوتٍ كأنما يخرج من بئر عميق:

- حدثني يا عمي.. هل كان في المدينة المنورة طفلٌ مثلي ؟
- هل عانى من لون بشرته؟

أجاب صالح وعيناه تفيضان بالدمع والنور:

يا بني، في ديننا، اللون هو زينة الخالق لا تهمة المخلوق. كان هناك أنس بن مالك، قدمته أمه للنبي ﷺ وهو طفل صغير. يقول أنس:

خدمتُ النبي عشر سنين، فوالله ما قال لي أف قط، ولا ضربني، ولا انتهرني. كان النبي يعامله كقطعة من قلبه.

- أتدري يا بلال؟

مرةً أرسله النبي في حاجة، فتاه أنس مع الصبيان يلعبون، فخرج النبي يبحث عنه، فما زجره ولا صرخ فيه، بل أمسك بأذنه مداعباً وهو يضحك ويقول: يا أُنيس، أذهبت حيث أمرتك؟

ناداه بـ أُنيس يا بلال!

كلمة تذيب الجبال حباً.

صحتُ بمرارة:

- يا ليتني كنتُ هناك!
- إن دينكم لا يعرف السياط!

أمسك صالح بوجهي بكلتا يديه:

الإسلام هو الثورة على الظلم يا ولدي. هم يخشوننا لأننا نعلمك أنك لست عبداً لأحد إلا لله. دين محمد ﷺ يقول: الناس سواسية كأسنان المشط. لا فرق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى.

خرجتُ أمشي بخيلاء، أقضم التفاحة بمرارة جروحي، لكنني لم ألحظ ماجد الذي كان يترصدني خلف حاوية النفايات كشيطان صغير. رأى الابتسامة على وجهي، رأى التفاحة، فاستشاط غضباً وركض لسميرة:

- أمي! العبد يخطط للتمرد!
- لقد رأيته يقبل يد المسلم ويأخذ منه زاداً للرحيل!.

عند وصولي، استقبلتني سميرة بصمتٍ مرعب. داست بكعب حذائها الغليظ على كف يدي المحروق، فسمعتُ طقطقة عظامي. ثم سكب ماجد دلو الماء المثلج فوق رأسي وقال بضحكة صفراء:

- أتظن أن صاحب التمر سيحررك؟

- غداً ستراه في الأغلال، وستبقى أنت كلبنا المطيع.

في تلك الليلة، كان القمر محاقاً، وكأن السماء تآمرت معي لتمنحني غطاءً من الظلام.

في منتصف الليل، سكن الكون إلا من نبضات قلبي التي كانت تطرق صدري كطبلٍ ينشد الرحيل. تسللتُ من النافذة الضيقة، ركضتُ حافياً، كانت الحجارة المدببة تنهش قدمي، لكنني كنتُ أشعر أنني أملك العالم.

عندما وصلت إلى الحانوت، وضع العم صالح يده الثقيلة الدافئة على كتفي، ونظر في عيني بنظرة لم أرَ مثلها في حياتي؛ كانت نظرة أبٍ يرى ابنه يغرق ويحاول انتشاله بكل قوته.

عند الساعة الرابعة فجراً، كانت سميرة تستيقظ بغريزة السجان. قامت من فراشها الوثير، لفت جسدها برداءٍ من الحرير القاسي الذي يشبه قلبها. كانت تمشي في الرواق، وصوت خطواتها يتردد ببرود. توجهت إلى القبو، ليس لتفقد حالي، بل لتركلني كعادتها وتبدأ يومها برؤية انكساري.

فتحت الباب الخشبي الثقيل الذي يئن دائماً. صرخت بصوتها الصدئ:

- قم يا نفاية! الماء بانتظارك!.

ساد الصمت. كان الصمت ثقيلاً ومستفزاً لها. اقتربت من الفراش المهترئ، رفعت الغطاء بسوطها، فإذا بالسرير فارغ، والنافذة العلوية الصغيرة مهشمة، وقطعة من ثوبي عالقة في مسمارها الحديدي كشاهد عيان على الفرار.

جمدت الدماء في عروق سميرة. لم تكن خائفة عليّ، بل كانت خائفة على ممتلكاتها. جحظت عيناها، وبرزت عروق رقبتها كأفاعي تتلوى.

صرخت صرخةً هزت جدران المنزل:

- جورج! ماجد! استيقظوا يا حثالة! لقد سرقنا العبد! لقد هرب اللقيط!.

استيقظ جورج مذعوراً، سقط عن سريره وترنح من أثر الخمر الذي لم يغادر رأسه بعد. ركض نحو الردهة وهو يشد حزامه:

- ماذا هناك؟ هل اندلع حريق؟.

صفعته سميرة على وجهه بقوة:

الحريق في عقلك المخمور! ، بلال هرب!

العبد الذي دفعنا فيه ثمن كرامتنا هرب في جنح الليل!

اخرج وابحث عنه قبل أن يختفي في أزقة المدينة!، يا أسفاه ماذا سوف يصنع بنا الزعيم الآن.

أما ماجد، فقد خرج من غرفته بابتسامة خبيثة، وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة. لم يبدُ عليه التفاجؤ، بل كان يفرك يديه بلؤم:

- ألم أقل لكِ يا أمي؟ لقد رأيته مع بائع المسلم.
- رأيتهما يتهامسان كالملوك، ورأيته يعطيه تفاحة حمراء، وكأنها عربون للهروب. هو هناك.. أنا متأكد يا أمي ، ذلك الرجل غسل دماغه بأفكار كفرهم!.

رفعت سميرة سماعة الهاتف، كانت أصابعها ترتجف من الغيظ. اتصلت بمركز الشرطة، وبدأت تمثل دور الضحية ببراعة شيطانية. بكت في الهاتف بصوتٍ مصطنع:

أيها الضابط! أنقذونا! لقد تعرضنا لعملية اختطاف مروعة!

رجلٌ مسلم من الحي، يدعى صالح، تسلل إلى منزلنا وخطف ابني الصغير تحت تهديد السلاح!

إنني أخشى على حياة ولدي، فالرجل كان يحمل سكيناً ويتمتم بطلاسم دينية! أرجوكم.. اذهبوا لحانوته، إنه يخبئه هناك ليبيعه أو ليقتله!.

أغلقت الخط ونظرت لجورج بنظرة ثاقبة وصرخت :

- اذهب معهم، ولا تسمح لهم بالعودة دونه. وإذا وجدتموه، تأكد أن يكون درساً لا ينساه الحي بأكمله.

بينما كانت المداهمة تتحضر، كان ماجد يجلس في مركز الشرطة أمام الضابط . كان يتصنع الارتجاف والخوف، وهو يروي قصة ألفها في مخيلته المريضة:

الضابط:

- أخبرني يا بني، ماذا رأيت بالضبط؟

ماجد بتمثيل متقن:

- رأيتُ الرجل المسلم، صالح، يمسك ببلال من رقبته ويسحبه نحو الحانوت. كان بلال يبكي ويتوسل، لكن صالح كان يقول له سآخذك إلى مكان لن يجدك فيه الكفار.

لقد رأيته يخبئه خلف صناديق التوابل ويقفل عليه بالمزلاج.

أنا خائف يا سيدي، هذا الرجل يريد إيذاء أخي.

أومأ الضابط برأسه بجدية، فالقضية الآن لم تعد مجرد هروب، بل أصبحت اختطافاً وتهديداً للسلم الاجتماعي.

كنتُ أسمع كل ذلك في خيالي وأنا أرتجف خلف الرفوف. وفجأة، تحطم العالم. دوت صافرات الشرطة، وركل الضابط باب الحانوت بعنف. وقف صالح بشموخ:

أنا لم أختطف أحداً. الصبي جاء إليّ فاراً من جحيمكم. ركل الضابط الرفوف، سال الزيت كدموع الحانوت، وصرخت سميرة:

- ابحثوا خلف التوابل!.

دفعوا الرفوف، فانكشف مكاني. سحبوني من ثيابي، وقيدوا يد صالح بالأغلال.

صرختُ: هو لم يفعل شيئاً!، لكن جورج هوى بيده على فمي، فطارت إحدى أسناني وسقطت بين حبات التمر. جرّوا صالحاً للسيارة، وكان ينظر إليّ وصية صامتة:

أصمد يا بلال.

عُدتُ للمنزل يجرني جورج كشيء بلا قيمة. سميرة أحضرت سيخاً حديدياً وضعته وسط النيران حتى صار كالجحيم.

قالت بهمس تقشعر له الأبدان:

- الكلمات التي سمعتها من صالح أفسدت عقلك. لسانك الذي تذوق طعم تفاحه، لن يتذوق بعد اليوم إلا طعم الحديد المحمى.

ثبتني جورج، وغرزت سميرة السيخ في طرف لساني. صرختٌ خُنقت في حنجرتي، رائحة احتراق لحمي ملأت القبو، وغبتُ عن الوعي في بئر سوداء.

حين أفقتُ، كان فمي مليئاً بالدم والرماد. تذكرتُ صالحاً في سجنه، وأُنيساً الذي لم يُضرب قط. استجمعتُ كبريائي، بصقتُ الدم، ونطقتُ الكلمة التي لا تحتاج لسانًا سليمًا:

أح... دٌ... أح... دٌ.

سجنوا صالحاً، وكووا لساني، وظنوا أنهم انتصروا. لم يدركوا أنهم في تلك الليلة، لم يقتلوا العبد، بل أحيوْا الثائر.

الفصل الخامس:

قمة الوجع أن تضطر لتمثيل دور الحجر، لكي لا يرى الآخرون اهتزاز روحك تحت وطأة المطارق.

كفى.. وألفُ كفى! لا تسألوني عن حالي، فالسؤال في حضرة الانهيار ليس إلا طعنةً أخرى تُغمد في صدرٍ لم يعد يجد متسعاً للنزيف. لا تطلبوا مني سرد تفاصيل يومي، فمن ذا الذي يمتلك الجرأة لترجمة الجحيم إلى كلمات؟

لقد سئمتُ هذه الدنيا التي تدور كرحى عمياء، تطحن عظامي لتصنع خبز الأسياد.

صباحٌ يشرق بلهيب القهر، ومساءٌ يغرب على شظايا روحي المتشظية. سحقاً لكم أجمعين! لا تتظاهروا بأن أمري يعنيكم، فبينما كنتم تتنفسون الحرية، كنتُ أنا أستنشق غبار النسيان في زاويةٍ قذرة لا تصلح حتى لإيواء الموتى.

لقد فُقدت طفولتي في ذلك المنزل الملعون، هناك حيث كنتُ شبحاً يسير في ممرات التجاهل، أرى الجميع بوضوح الكارثة، ولا يراني أحد بوضوح الرحمة. كنتُ أتوق للخروج، للهروب من سجن الجدران الأربعة، ولو للحظةٍ خاطفة أتحرر فيها من جاذبية الذل، لكنني لم أجد إلا الزوايا المعتمة التي شهدت على طفولتي المبتورة وبكائي الصامت.

والديّ.. يا غائبين خلف حدود الذاكرة، هل طرق سمعكما يوماً أنين طفل يُدعى بلال؟

وهل هذا هو اسمي حقاً، أم أنه مجرد اسم أطلقتموه عليّ لتتخلصوا من عبء وجودي؟

أريد تفسيراً واحداً يليق بحجم هذا الخراب، فالبكاء في هذا المنزل الذي أقطنه ليس مجرد دمع، بل هو جناية تُعاقب عليها القوانين الجائرة.

أردتُ الصراخ حتى تنفجر جدران صمتي، أردتُ أن أهدم هذا العالم بزفيري، لكنني مكبلٌ بالخوف من سوط العقاب الذي يترصدني.

أين أنتما؟

وما هي الجريرة التي اقترفتها يداي الصغيرتان لأُحرم من أبسط حقوق الكائنات؟

حُرمتُ من اللقمة، ومن شربة الماء، ومن بهجة اللعب التي يرتديها الأطفال ثياباً.

يا أمي، بأي ذنبٍ أهنتني وألقيتِ بي في غيابات الجهل والدموع؟ أنا الذي لا أعرف عن نفسي شيئاً، سوى اسمٍ بدأت ملامحه تتلاشى من ذاكرتي كما تتلاشى ملامح وجوهكما.

أريد أن أعدو بكل ما أوتيت من ضعفٍ نحوكِ يا أمي، أن أرتمي في حضنكِ الذي أتخيله دافئاً كشمس الشتاء.

سأفعل المستحيل، سأكون طوع بنانكما، سأبيع روحي لأرضيكما، فقط لا تتركاني مع هذه العائلة التي تنهش طفولتي. تذكرا أنني قطعة منكما، لا تتركاني نهباً لجنونٍ بدأ يتسلل إلى أصابعي، ويقرع أبواب عقلي بعنف.

أتأمل ماجد من خلف زجاج النافذة، وأتساءل:

هل توسل يوماً كما أفعل؟ لم يكن يوماً مطيعاً مثلي، ولم يعرف يوماً معنى أن يُحبس داخل جدران منزل ليوم كامل.

أراه يركض في الزقاق، يلهو بالكرات الزجاجية والأحجار ، ثيابه متسخة باللعب وقلبه نظيف من الهم، بينما أنا أنظف أوجاعي وحدي. أكان من الصعب عليكما أن تحتفظا بي كبشر؟

لماذا قذفتما بي في سلة المنفى ، كفُتات مائدةٍ لم تعد تروق لكما؟

يا الله! هل يوجد في هذا الكون إلهٌ يوصي باليتيم؟ هل يوجد دينٌ يرى في انكساري جريمةً تستوجب النهي؟

لطالما سألتُ الرجل المسلم الذي آسروه ظلماً ،بفضولٍ مسموم بالوجع في كل مرة أزوره بها :

أهكذا يتعامل المسلمون مع من لا أب لهم؟". فابتسم في وجهي بمرارةٍ لم أفهمها إلا الآن. أحببتُ ذلك الدين، لكنني كبلتُ قلبي عن اعتناقه، لا خوفاً

منه، بل خوفاً عليكما يا والديّ، فربما لو كنتما مسيحيين أو يهوداً، لزاد ذلك من كرهكما لي.. وأنا، يا للمأساة، كنتُ لا أزال أقتات على فتات الأمل في العثور عليكما.

أتذكر يا والدي ليلة ماجد تلك حين تأخر في لعبه مع أقرانه، رأيتُ سميرة تبكي دماً، وجورج يبحث عنه كالمجنون كأنه فقد روحه ، كنت أنتظر حينها أن يعاقب أمامي للمرة الاولى، أن يصفع على وجهه ، أو يحرم من غداءه ،لكن لم يحدث أي من هذا .

حين عاد إلى المنزل لم يُجلد، لم يُحبس، بل احتُضن بلهفةٍ كادت تمزق صدري حسداً، في تلك الليلة نادتني سميرة لأتناول حلوى بمناسبة عودة ماجد سالماً ، تذوقتُ الحلوى لأول مرة.. شكولاتة ممزوجة بدفء العائلة. كان مذاقها غريباً، حلوةٌ لدرجة الوجع، استثنائيتاً لدرجة البكاء.

في تلك اللحظة أدركتُ أنكما ملعونان، فكيف لقلبٍ بَشري أن يلقي بفلذة كبده في سلة مهملات اليتم بينما الآخرون يقلبون الدنيا لأجل تأخرٍ بسيط؟

سحقاً وهلاكاً لكما! إن لم تُقنعاني بسببٍ يفوق طاقة العقل، فسأجعلُ دعائي عليكما وقوداً لناري.

في الثالثة عشرة، تحول جسدي إلى متحف للندوب. لم تعد ركلة جورج توقظني، بل غريزة البقاء المريرة. صار عملي يتجاوز المسح، صرتُ حمالاً وجبّاراً وبنّاءً. كنتُ أحمل جِرار الغاز على ظهري النحيل، أشعر بفقراتي وهي تتطاحن تحت الثقل، بينما ماجد يراقبني من شرفته كإلهٍ صغير يقذف بقايا فستقه على الظل القبيح الذي كنتُه.

أثناء تلك الفترة يا والدي توقف الضرب فجأة.. ليس رحمةً، بل صيانة للسلعة. بدأوا يطعمونني بقايا طعامهم الفاخر لكي لا ينهار جسدي أمام المشتري. وفي ليلةٍ غاب فيها القمر.

في تلك الليلة زار جورج رجل بدت عليه ملامح الثراء، نظر رجل إلي مطول ، ثم قال هل أنت واثق أنه جيد ، لا يريد زعيم تجديد العبيد كل فترة .

قال جورج بينما يأخذ رزماً من الأموال :

قل لجدي ألا يقلق انه عبد مطيع ،ينفذ كل ما تأمرون به بلا أي تذمر أو شكوى ، وعملت إلى أن أبني له جسداً قوياً يستطيع أن يحتمل ألعاب السيد ، لذا لا تقلق.

رأيتُ جورج يقبض ثمن طفولتي، وسميرة تعدُّ الأوراق النقدية بعيونٍ تلمع بالجشع، ولم تنظر إليّ نظرة وداع واحدة.

ثم اقتادني رجل من يدي بعنف ، وتوجه بي نحو سيارة كبيرة رُميتُ في صندوق السيارة كجثةٍ فائضة عن الحاجة، وانطلقت بي نحو المجهول.

توقفت السيارة أمام قصرٍ أسطوري، فخامةٌ تصرخ بالثراء، وقسوةٌ تهمس في الأرجاء. تبعتُ الرجل الغريب، وقلبي يقرع طبول الرعب ، توقفنا أمام باب كبير، قال الرجل انتظرني هنا ، وبعد دقائق معدودة أمرني أن أتبعه .

عندما تبعته دخلت غرفة مرصعة بجواهر وثرية من الكريستال تدلى منه نظرت لها بذهول اذ انني لم انظر إلى مثل هذا الشيء طوالُ حياتي ، جاء بصري على سيد يجلس على عرشه المترف ، بتكبر واضح.

- ما اسمك يا هذا؟ سأل بنبرةٍ لا ترى فيّ بشراً.

قلتُ والارتجاف يمزق حنجرتي:

- بلال.. اسمي بلال ...

وفجأة.. ركلةٌ غادرة أسفل ركبتي أسقطتني أرضاً، وصوت

الرجل يزأر:

- انحنِ أيها العبد الساذج! أنت في حضرة السيد!

ضحك الغني باحتقار وقال:

- لا تغضب يا حسام كثيراً، لكن أخرجوا هذا العبد، رائحة المكان فسدت بوجوده، طهّروا الغرفة من أثره القذر..

ثم اقتادوني إلى قبو العبيد... مكانٌ يضجُّ بالأرواح المنطقة:

رأيتُ هناك عجوزاً قد انحنى ظهره حتى صار كالقوس، عيناه غائرتان تحكيان عن عقودٍ من السخرة، نظر إليّ نظرةً باردة كأنه يرى فيَّ جنازتي القادمة.

رأيتُ فتيةً في مثل عمري، وجوههم شاحبة كوجوه الموتى، يتكدسون في الزوايا كحزم الحطب، يتبادلون نظرات الرعب الصامت كلما ارتفع صوت سوطٍ في الممرات البعيدة.

رأيتُ فتاة تجلس في الركن، تهزُّ جسدها بإيقاعٍ جنائزي وهي تتمتم بكلماتٍ غير مفهومة، ربما كانت تنعي نفسها التي لم تعد تذكرها ،أذكر أن أسمها كان أمل.

يا والدي.. انظر إلى ابنك بلال، الذي دهستما كرامته لأجل حفنة مال. لقد حددتما قدري كعبدٍ دون أن يسألني أحد. ها أنا ذا أعمل كالحيوان، أُجرُّ من مكانٍ لآخر، تُهان إنسانيتي كل صباح ومساء. أنا أطهر من هؤلاء الأسياد، لكنني في نظرهم قذارة يجب تنظيفها.

أنا هنا، في زاوية الجنون، أصابعي ترتجف، وروحي تتهالك. أرجوكما.. ابحثا عني، تذكرا أنني ابنكما، تذكرا أن في هذا القصر الموحش طفلاً يُمحى اسمه

شيئاً فشيئاً، ولا يزال رغم كل السواد.. ينتظر معجزةً تعيده إلى حضنٍ لم يعرفه أبداً.

يا والديّ سأبحث عنكما، ليس شوقاً فقط، بل لأقف في وجهكما وأسأل: لماذا؟ فإن لم تكن أسبابكما بحجم مجرتي من الألم، فسأدعو عليكما بالهلاك، أو لربما سيخونني لساني ويخضع قلبي، فأصمت.. لأن الضحية دائماً تحنّ لجلادها.

كان القبو الذي نُلقى فيه نحن العبيد الجدد يفوح برائحة العفن المختلطة برائحة الخوف الزنخة. لم يكن هناك ليل أو نهار، بل كان هناك الصمت الذي يسبق العاصفة.

في صباح الباكر أي قبل شروق شمس دخل حسام، صرخ بي أنت أيها العبد بدء عملك الآن، اقتادني من قفاي كأنني جيفة هامدة، جرني عبر ممرات القصر ، كان القصرُ متحفاً من البرودة؛ رخامه الصقيل يعكس وجوهاً لا تعرف الابتسام، وثرياته المتدلية كعناقيدِ ضوءٍ جارح لا تضيء الزوايا المظلمة في قلوب ساكنيه.

كل قطعة أثاث فيه كانت تصرخ بالثراء الفاحش الذي بُني على أنقاض أرواحٍ مطحونة. كان مكاناً مصمماً لجعلك تشعر بضآلتك، حيث الجدران لها آذانٌ لا تسمع سوى أوامر الأسياد، ولها عيونٌ تراقبُ الأنفاس.

دفعني حسام إلى البهو العظيم، حيث تتوسط السقف ثريا ضخمة من الكريستال، تبدو كأنها خناجر متدلية من السماء.

قال حسام وهو يضغط على فكي حتى شعرت بأسنان تتهشم، اسمع يا نطفة الشؤم، سيد القصر يكره الساعات الميكانيكية، يكره طقطقتها المزعجة التي تشبه قلوب الضعفاء.

هنا، الزمن يُقاس بأنفاسكم. ستقف هنا، في هذه الزاوية، تحت هذه الشمعة الضخمة. أنت الآن عقرب الدقائق، كلما مرّت دقيقة، ستنطق بالوقت بصوتٍ مسموع وواضح. لا حركة، لا رَمشة، لا انحناء. إن فاتتك دقيقة، أو تحركت قيد أنملة، فستتذوق ما يجعل الموت أمنية.

وقفْتُ. كانت قدماي الحافيتان تلتصقان بالرخام البارد. بجانبي، كان هناك رجلٌ عجوز، كان نحيلاً لدرجة أن عظام صدره تبدو كقفص مهجور. كان هو عقرب الساعات. لم ينظر إليّ، كانت عيناه شاخصتين نحو الفراغ، وجلده قد استحال لونه إلى رمادي كئيب.

مرّت الساعة الأولى.. بدأت فقرات ظهري، التي أنهكها حمل جِرار الغاز في منزل جورج ، تصرخ. شعرتُ وكأن مسامير تُدق في كعبيّ، أردت أن أجلس أو أن أتحرك أي حركة مهما كانت، لكن قاطع تفكيري صوت رجل العجوز حين قال :

الرابعة ، وقلت بصوت مرتجف بعده ودقيقة...

وفجأة، سقطت قطرة من الشمع المغلي من الثريا فوقي، لتستقر مباشرة على كتفي العاري. لم تكن مجرد حرارة، كانت ناراً تخترق الجلد لتصل إلى العصب. تشنج جسدي تلقائياً، أردت الصراخ، لكنني تذكرت نظرة حسام. كتمتُ الصرخة في أعماقي حتى شعرت بمرارة الدم في فمي.

همس العجوز بجانبي دون أن يحرك رأسه، بصوتٍ يشبه حفيف الشجر الميت:

- لا تقاوم الألم يا بني.. الألم هو الشيء الوحيد الذي سيجعلك تدرك أنك ما زلت حياً. رحب به، اجعله صديقك، وإلا سيقتلك الجنون قبل أن يقتلك السوط.

بكيتُ في داخلي. يا والدي.. هل تسمعني؟ أنا الآن ساعةٌ بشرية. أنا الذي كنتُ أركض خلف الفراشات في أحلامي، أقف الآن متجمداً كتمثالٍ من بؤس. هل كنتَ تعلم أن طفلك سيتحول إلى أداة لقياس الوقت في قصر رجلٍ يرى فينا مجرد أشياء؟

في الساعة الثالثة من وقوفي، بدأ جسدي ينهار. شعرتُ برغبةٍ جنونية في الحك، في العطس، في الارتماء على الأرض وتقبيلها طلباً للرحمة. بدأت عضلات ساقي بالارتجاف اللاإرادي . نظرتُ إلى العجوز، رأيتُ ذبابةً تقف على عينه المفتوحة، تحاول امتصاص رطوبتها، ولم يرمش. كان جثةً واقفة.

- كيف تفعل ذلك؟ همستُ بلهثٍ منقطع.

أجاب العجوز ببرود مرعب:

- "لقد قتلتُ الرجل الحالم الذي بداخلي منذ زمن. اقتل بلال يا صغيري، ليعيش هذا العبد الذي تراه. القلب هو عدوك الأول هنا، انزعه وألقه للكلاب.

كلماته كانت أشد إيلاماً من شمع الثريا. هل عليّ أن أقتل نفسي لأعيش؟ هل هذا هو ثمن البقاء يا أمي؟ أتذكرين عندما كنتِ تمسحين على رأسي أو هكذا تخيلتُ في أحلامي؟ هنا، لا تمسح الأيدي إلا بالصفعات.

في منتصف الليل، دخل السيد وهو يترنح من أثر الخمر، يمسك بيده سوطاً ناعماً من جلد الغزال. وقف أمامي، كانت رائحته تفوح بالثراء العفن. نظر إلى عينيّ اللتين غرقتا في الدموع الصامتة.

سأل بسخرية:

- لماذا تبكي أيتها الساعة القذرة؟

ثم هوى بالسوط على وجهي، لم يكن ضرباً للتربية، كان ضرباً للاستمتاع. شق السوط خدي، وشعرتُ بدفء دمي يسيل على رقبتي.

- أجبني.. كم الساعة؟

ابتلعتُ غصتي ودماء وجهي، وقلت:

- االثانية عشرة.. تماماً.. يا سيدي.

ضحك بصوتٍ عالي كالمجنونٍ ، ورمى بقطعة خبز يابسة على الأرض الملطخة بدمي.

كلها.. لكن دون أن تتحرك يدك. التقطها بفمك كالكلب، ولا تبرح مكانك.

انحنيتُ بجذعي فقط، كانت المسافة بين فمي والخبز تبدو كألف ميل. انحنيتُ وظهري يطقطق، والدم يقطر من وجهي على الرخام الأبيض ليصنع لوحةً من العار.

التقطتُ الخبز الذي كان طعمه تراباً ودماً.

وفي تلك اللحظة، رأيتُ وجهي في الرخام مرة أخرى.

لم أجد طفلاً؛ وجدتُ شيخاً يسكنُ جسداً نحيلاً، تجاعيدُ روحه سبقت خطوطَ وجهه. كانت عيناي بئرين من الغسق، غرق فيهما كل بريقٍ للدهشة.

يا والدي.. إن أصابتي بالجنون تقترب فعلاً. لم أعد أخاف العقاب، بل صرتُ أخاف أن أحب هذا العقاب لأنه الصلة الوحيدة التي تربطني بالواقع.

عندما انتهت نوبتي في الفجر، سقطتُ أرضاً ككومة من الخرقة البالية.

لم أستطع تحريك قدمي، كانتا قد تورمتا لدرجة أن جلدي تشقق وخرج منه سائل أصفر. زحفتُ نحو العجوز، أردتُ أن ألمسه، أن أشعر ببشر إنساني.

سألتُه وأنا أتلوى ألما:

- هل سنفعل هذا غداً أيضاً؟

نظر إليّ لأول مرة، وكانت عيناه بئراً من السواد:

- غداً؟ لا يوجد غد في هذا القصر يا بلال. يوجد فقط الآن المكرر إلى الأبد. نحن هنا لسنا بشراً، نحن تروس في آلة لا تشبع..

عدتُ إلى زاويتي في القبو، ضممتُ جسدي المنهك وزحفت نحو الزاوية حيث ينسلُّ خيطٌ رفيع من ضوء القمر عبر الشق العلوي للجدار. سندتُ رأسي على الحجر البارد، ولم أفكر في جروحي، بل فكرتُ في شيءٍ تافهٍ جداً:

تذكرتُ طائرة ورقية صنعتُها حين كنتُ في الخامسة.

كانت ملونة، وطارت عالياً حتى ظننتُ أنها ستلمس الغيوم. أتذكر ملمس الخيط وهو ينسلُّ من بين أصابعي الصغيرة، كان ذلك الخيط هو صلتي الوحيدة بالسماء. والآن، وأنا هنا في هذه العتمة، أتساءل:

أين ذهبت تلك الطائرة؟

وهل لا يزال ذلك الخيط معلقاً في مكانٍ ما، أم أنه انقطع للأبد كما انقطع كل شيء يربطني بالحياة؟

نظرتُ إلى يدي المحترقة، وتساءلتُ بمرارة:

هل خُلقتُ لأكون مجرد مساحة للألم؟

هل للأوجاع تاريخ صلاحية، أم أنها تنمو معنا كما ينمو الشجر؟ شعرتُ بالوحدة ليس لأنني وحيد في القبو، بل لأنني أدركتُ أن الألم لغة لا يتقنها أحدٌ غير صاحبها، وأن كل صرخاتي لن تكسر صمت هذا العالم الذي يراقب انكساري ببرود.

الفصل السادس:

أصعب ما يواجهه المرء هو أن يضطر للعيش مع شخص غريب يسكن جسده، شخصٌ صنعته الظروف ولم يختره هو.

لم يكن انتهاء ساعة الصمت يعني الراحة، بل كان يعني الانتقال من جحيم الوقوف إلى جحيم الزحف. في القصر، لم تكن الأجساد تُترك لتبرد، فالعمل هو الطريقة الوحيدة لمنع العبيد من التفكير في الانتحار.

اقتادني حسام في الفجر، وجسدي لا يزال متيبساً كلوح خشب، وهبط بي سلالماً حجرية لولبية، كانت تضيق وتظلم كلما نزلنا، حتى وصلنا إلى قبوٍ يقع تحت أقبية القصر؛ مكانٌ يُدعى مخزن الجلود الميتة.

كانت الرائحة هناك قادرة على قتل طائر في كبد السماء؛ مزيجٌ خانق من رائحة العفن، والجلود الرطبة، والكيماويات الحارقة، ورائحة عرق الأسياد المتراكمة في أحذيتهم.

رمى لي حسام فرشاة خشنة مصنوعة من سلك معدني، وخرقة بالية، وزجاجة تحتوي على سائل أسود لزج يفوح منه سمٌّ زعاف.

اسمع أيها العبد ، قال وهو يغلق الباب الحديدي خلفه، هذه مئات الأحذية التي تعود للسيد وضيوفه ورفاق. مهمتك ليست تنظيفها فقط، بل تنفسها، سوف تبقى هنا عددت أيام..

عليك أن تلمعها بلسانك إن لزم الأمر حتى يرى السيد وجهه فيها. وإن شممتُ رائحة واحدة غير رائحة الخادم المطيع، سأجعل هذه المواد الكيماوية طعامك الوحيد.

بقيْتُ وحدي في العتمة، يرافقني مصباحٌ زيتي شاحب. بدأتُ العمل.

مئات الأحذية المصنوعة من جلود التماسيح، والنعام، والجلود الفاخرة التي سُلبت من حيواناتٍ كانت حرة يوماً.. مثلي تماماً. كان عليَّ أن أنحني لساعات، وظهري المقوس يأنُّ تحت وطأة الألم، وجسدي النحيل يرتجف من أبخرة الصبغات السامة.

بعد أيامٍ قليلة، بدأت آثار مخزن الموت تظهر على جسدي. تلك المواد الكيماوية لم تكن تلمّع الجلود فحسب، بل كانت تأكل جلدي أنا.

أصابعي التي كانت صغيرة وناعمة يوماً، استمال لونها إلى السواد القاتم، وتشققت حتى صارت تنزف دماً ممزوجاً بالصبغة السوداء.

كانت أظافري تتساقط واحداً تلو الآخر، مخلّفةً وراءها لحماً مكشوفاً، ومع ذلك، لم يكن مسموحاً لي بالتوقف.

ذات ليلة، دخل إليَّ عبدٌ يُدعى مرزوق، كان رجلاً قد أكل الجذام نصف وجهه، ومهمته نقل الأحذية من القبو إلى غرف الأسياد. نظر إليَّ وأنا أسعل سُعالاً جافاً يمزق صدري.

همس مرزوق بصوتٍ مبحوح، يا بني.. غطِّ فمك بتلك الخرقة، هذه الصبغة هي سمُّ الرصاص.

إنها تدخل إلى رئتيك، وستجعل عظامك هشة كالفخار. لقد رأيتُ قبلك خمسة صبية في هذا القبو.. جميعهم انتهوا بصدورٍ محطمة وظهورٍ لا تقوى على الوقوف.

قلتُ له والدموع تسيل وتصنع مسارات بيضاء في وجهي المغطى بالهباب الأسود:

- يا عم مرزوق..
- لماذا يكرهنا الأسياد هكذا؟ لماذا يريدون منا أن نكون أدنى من أحذيتهم؟

أخذ مرزوق نفساً ثقيلاً وقال بمرارة:

- لأنهم لا يشعرون بعظمتهم إلا إذا رأونا تحت أقدامهم. الحذاء بالنسبة للسيد هو تاجُ قدمه، وأنت.. أنت مجرد الظل الذي يجب أن يخدم هذا التاج.

مرت الأيام لا بل أعوام ببطيء لم أعده في حياتي كانت سيئة إلى حد الجنون، إنني أذكر كل تعذيب مررت به في هذه السنين الجوفاء.

في إحدى الأيام بينما كنت أقتلع الأعشاب في حديقة قصر مع العم مرزوق وقفت فجأة عن عمل إذ أنني رأيت رجل ذو مظهر عظيم ، يمشى خلف جورج وسميرة ، سحقاً لهما ماذا يفعلان هنا.

هل جاءوا ليأخذوني مرة آخرى؟

هل آتوا ليخلصوني من هذا الجحيم؟

هل عاد لهما ضميرهما؟..

لقد كبر ماجد كثيراً ، لكن لم يتغير شيء فهوا الآن فالعشرين من عمره ويبدوا عليه الثراء الفظيع ، بينما أنا أمضيت طفولتي كعبد وشبابي أيضًا .

لاحظ العم مرزوق توقفي ، ووكزني بالمجراف على ظهري.

- ما بك يا بني؟ ، لماذا توقفت ؟.

أكمل قبل أن يأتي حسام ويعاقبنا، قلت له وأنا أشير إلهم:

- هؤلاء كانوا من تبنوني في صغيري ، لربما جاءوا لأخذي .

ضحك مرزوق ضحك منكسرة وقال:

- اعتذر لك يا بني ، لكن هؤلاء ثلاثة من عائلة السيد ، وهم يذهبون كل عام إلى مدينة جديدة لتبني اطفال وتربيتهم ليكونوا كما يرديهم السيد ، مقابل مبلغ مالي ضخم جداً ، وعند انتهاء مهمتهم يعودون إلى أسوار هذا المكان لتمتع في ما تبقى من عام بهدوء ، أكملت عملي ومازال وقع ما علمته يهز رأسي ويكسر قلبي ،هؤلاء المجانين بأفكارهم المجنونة من سوف يحاسبهم.

في أثناء شرودي تلقيت ركلة على رأسي من خلف ، استدرت فوجدت حسام برفقة ماجد ينظران لي ، قال حسام :

- هذا هو الذي تبحث عنه يا ماجد واسمه بلال، فرقع ماجد أصابعه، فجاء حارسان يمسكوني من ذراعي ، توجه ماجد نحوي، وقال بصوت يملأه الحقد والغل معاً :
- أتذكر من أنا يا بلال، أتذكر ،لا تقلق ،إن نسيت سوف أذكرك بذلك ، ليس عندي مشكلة، ثم وضع أصبعه على عيني اليسرى بقوة .

قال:

- أتذكر الضربة التي نلتها مني بعصا خشبية لأنك كسرت لعبتي ، عندما كنت صغيراً ، هل تذكر؟ .

صرخ وضغط على عيني التي لم تألم بعد من تلك الضربة ، بدئت أصرخ ، أذكر يا سيدي أذكر، أقسم لك أنني أذكر عيني عيني !عيني!!.

ثم تناول حذاءه الرياضي الذي تعمد أن يغرسه في الوحل الحديقة عند قدومه إلى هنا ، وصفعني في وجهي بقوة شلة خلاياه ، صرخ في وجهي ، قال باحتقار:

- نظفه أيها العبد أريد أن أرتديه بعد ساعة في حفلة الرقص، وإياك أن تترك فيه ذرة غبار، وإلا سأجعل حسام يفرك وجهك بهذا الوحل.

أمسكت بحذاءه ويدي ترتجف ،وبدأتُ أنظف الحذاء بكل قوتي، لكن الوحل كان عنيداً. شعرتُ بالغثيان، بدأتُ أتقيأ مادةً سوداء، كانت رئتاي ترفضان الهواء المسموم.

سقطت قطرة من دمي النازف من أنفي على حذاء ماجد الأبيض.

تجمدتُ. شعرتُ أن قلبي قد توقف. في القصر، دم العبد هو نجاسة تُفسد طهر مقتنيات الأسياد. حاولتُ مسحها بسرعة، لكن الصبغة السوداء في يدي لوثت الحذاء تماماً.

في تلك اللحظة، دخل حسام. لم يتحدث.. لم يصرخ. سحبني من شعري وجرني إلى وسط القبو، حيث توجد مدفأة قديمة تُستخدم لتجفيف الجلود. فتح بابها الحديدي، كانت النيران تتراقص بداخلها بجوع.

قال حسام ببرود مرعب:

- بما أنك لوثت حذاء السيد بدمك القذر، فستدفع الثمن من لحمك، أمسك بيدي اليمنى، وقربها من جمر النار المتوهج. صرختُ.. صرختُ صرخةً هزت جدران القبو، صرخةً تمنيتُ أن تصل إلى أذني والديَّ في أي مكان كانا فيه. شعرتُ بجلدي وهو ينكمش ويحترق، برائحة لحمي وهي تملأ المكان. لم يتركني حتى فقدتُ الوعي من شدة الألم.

عندما أفقت، وجدتُ نفسي ملقىً في زاوية القبو، يدي ملفوفة بخرقة ملوثة، وحذاء ماجد بجانبي يذكرني بخطيئتي، بدئت أبكي بجنون، أبكي وصديق الرحيم مرزوق يجلس بجانبي يمسح على رأسي بيده المرتجفة.

همس لي :

- بلال.. اسمعني يا بني.. لا تمت الآن إن موتك هنا يعني أنهم انتصروا. عش لكي تشهد على ظلمهم.

لكن جسدي كان يخذلني. بسبب تسمم الرصاص وبخار الصبغات، بدأت أصاب بقشعريرة دائمة، وفقدتُ القدرة على الرؤية بوضوح؛ كانت الأضواء تبدو لي كبقعٍ مشوشة.

صرتُ أهلوس في الليل، أرى أحذية الأسياد تتحول إلى وحوشٍ لها أفواه، تطاردني في الممرات وتنهش جسدي. كنتُ أرى أمي.. كانت تأتي في هلوستي، تمسك بيدي المحترقة وتبكي، لكن دموعها كانت تتحول إلى صبغة سوداء تحرقني أكثر.

أصبحت صحتي في تدهورٍ مريع. عظامي بدأت تبرز من تحت جلدي الشاحب الذي صار لونه يميل إلى الخضرة المريضة. كنتُ أسير منحنياً كعجوزٍ في الثمانين، وأنفاسي كانت تصدر حشرجةً تشبه صوت احتكاك المعدن بالمعدن، أعطاني عمي مرزوق ثلاث حبات من دواء كان قد استطاع أن يحصل عليها من مكان لا أعرف أين هوا، وطريقة مجهولة، استطاعت أن تخفي هذا الألم وأنت تعالج جسدي ضعيف بشكل مؤقت.

يا والدي.. انظر إلى ابنك خادم الأحذية.. لقد صار وجهي يشبه النعل الذي أنظفه، وصارت روحي ملوثة بسواد لا يزول.

أهذا هو مستقبلي؟ أن أموت في قبوٍ مظلم، محاطاً برائحة الموت والجلود، لكي يسير رجلٌ غني بزهوٍ على الرخام؟

سحقاً لهذه الحياة! سحقاً لقلبكما الذي سمح بهذا!

بينما كنتُ أغوص في غيبوبة الألم، سمعتُ صوتاً من أعلى الدرج.. صوت ماجد وهو يضحك ويقول لرفاقه:

- "لقد أحرقنا يد العبد الجديد، صار الآن يعمل ببطء، أعتقد أننا بحاجة لبيعه وشراء قطعة غيار أخرى."

قطعة غيار! هكذا كنتُ في نظرهم.. مجرد برغي في آلة، إذا صدأ أو كُسر، يُلقى في القمامة.

زحفتُ نحو الحذاء الذي لوثته بدمي، وبصقتُ عليه بكل ما أوتيتُ من كراهية، وهمستُ:

- يوماً ما.. سأجعلكم تشربون من هذا السواد الذي سقيتوموني إياه.

لم تكن جروح يدي المحترقة قد التأمت بعد، ولم تكن رئتاي قد تخلصتا من سُموم صبغة الأحذية، حتى استيقظتُ على صوت حسام وهو يركل باب الزنزانة بقدمه الغليظة.

كانت الشمس تشرق بضوءٍ كاذب، ضوءٍ لا يحمل دفئاً، بل يحمل نذيراً بشؤمٍ جديد.

انهض أيها الحطام، قال حسام بابتسامةٍ صفراء:

اليوم ستحصل على نزهة في الحديقة.

السيد الصغير ماجد لديه ضيوف، وقد وقع الاختيار عليك لتكون بطل اللعبة.

لم أفهم معنى كلامه حتى اقتادني إلى ساحة القصر الخلفية.

هناك، كانت الحديقة شاسعة، محاطة بأسلاك شائكة وكهربائية.

رأيتُ ماجد وأربعة من أصدقائه المترفين، يرتدون ثياب الصيد الفاخرة، ويحملون بأيديهم أقواساً وسهاماً تبدو غريبة؛ لم تكن سهاماً معدنية قاتلة، بل كانت رؤوسها مصنوعة من مادة مطاطية صلبة، مغموسة في سائل لزج أخضر اللون.

جردوني من خرقتي البالية، وألبسوني جلداً يكسو ظهري وصدر فقط، يشبه جلد الغزال، وربطوا في رقبتي جرساً صغيراً.

قال ماجد وهو يشد وتر قوسه ويصوبه نحو عيني بسخرية:

- القوانين بسيطة يا بلال ،لديك عشر دقائق لتختبئ في الحديقة. نحن سنطاردك. الجرس في رقبتك سيخبرنا بمكانك، وكلما أصابك سهم، ستحصل على جرعة من السائل الذي في رأسه.

هذا السائل يسمى لدغة الغول، وهو مادة تسبب تشنجاً عضلياً مؤلماً وحكةً تحرق العظام. إذا استطعت البقاء دون أن نطبق عليك لمدة ساعة، ستحصل على وجبة طعام حقيقية. وإن أمسكنا بك.. حسناً، لن يروقك ما سيحدث.

دفعوني نحو الأشجار. ركضتُ... ركضتُ بكل ما أوتيتُ من وهن. كانت قدمي الحافيتان تصطدمان بالأشواك والصخور الحادة، لكنني لم أكن أشعر بألم القدمين، كان قلبي يقرع في صدري كطبلٍ يوشك على الانفجار.

رن.. رن.. رن، كان الجرس يشي بمكاني مع كل خطوة. حاولتُ كتم صوته بيدي، لكن السهام بدأت تتساقط حولي كالمطر الأسود.

صرخ أحد أصدقاء ماجد :

ها هو هناك! خلف شجرة الصنوبر!

فجأة، شعرتُ بضربةٍ قوية في فخذي.

السهم لم يخترق اللحم، لكن المادة الخضراء بدأت تتسرب عبر مسامي. في ثوانٍ، أحسستُ بآلاف الإبر تشتعل داخل عضلة فخذي. تيبست رجلي، وسقطتُ على وجهي في الطين.

أصابته! الظل القبيح تعثر! تعالت ضحكاتهم التي كانت تصل إليّ مشوهة عبر ضباب الألم.

زحفتُ على بطني، أتجرجر كالزواحف، أبحث عن شجيرة كثيفة. كان جسدي يرتجف برعشاتٍ غير مسيطر عليها بسبب مادة التشنج. كنتُ أسمع وقع أقدامهم تقترب، ورائحة عطرهم الباذخ تختلط برائحة خوفي الزنخ.

وقف ماجد فوق رأسي، وضع قدمه على رقبتي، وضغط حتى كدتُ أبتلع التراب.

همس ماجد وهو ينحني نحوي:

- أتعلم يا قذر؟ والدي اشترك مع حسام في تربيتك لهذه اللحظة.
- أنت لست بشراً، أنت دمية حية صُنعت لنسلي بها نحن الأسياد. هل كنتَ تظن حقاً أنك ستكبر لتكون مثلنا؟
- انظر إلى جلدك، إنه يشبه جلود الوحوش، وأنت تنتمي للغابة، لا للبيوت.

بصقتُ التراب من فمي، وقلتُ بصوتٍ مخنوق بالدموع والغل:

- ما ذنبي؟ ماجد.. كنت أساعدك دائما ،وبلا مقابل ، أطمئن عليك من خلف زجاج النافذة وأنا أنظف.. ألا تذكر؟

ضحك ماجد ضحكةً هزت أغصان الشجر، وركلني في صدري ركلةً جعلتني أفقد النفس لدقيقة كاملة.

- خلف النافذة كنتُ أراقب حيواناً أليفاً في قفص، والآن.. أنا أصطاد وحشاً ضالاً.

عندما انتهت الساعة، لم يتركوني. اقتادوني إلى السور الكهربائي.

أمسك حسام بيدي المحترقة أصلاً، وقرّبها من السلك المكهرب.

اللعبة لم تنتهِ يا بلال، هذه فقرة الرقص الطروب.

لامست الكهرباء جلدي.. لم يكن وجعاً يمكن وصفه بالكلمات. شعرتُ وكأن روحي تُنتزع من عروقي، وكأن دمي يغلي في الشرايين. صرختُ صرخةً قطعت نياط قلبي، صرخةً لم تكن تطلب الرحمة، بل كانت تطلب الموت. الموت الذي بات يهرب مني كلما اقتربتُ منه.

رموني في وسط الحديقة ، ورمى ماجد لي الترياق لمعالجتي بعد أن قال لي:

لن أسمح لك بالموت مبكرا يا بلال ،فما زال لدينا وقت طويل للمتعة، تناول هذا الدواء سوف يبقيك على قيد الحياة فقط.

لن أتناول دواءه الآن، وبعدها تركوني تحت المطر البارد الذي بدأ يهطل بغزارة. كان جسدي متشنجاً، يدي محترقة، وظهري ممتلئاً بكدمات السهام.

نظرتُ إلى السماء، إلى الغيوم السوداء، وقلتُ في نفسي:

يا والدي.. هل تشعر الآن بالبرد الذي ينخر عظامي؟

يا أمي.. هل تسمعين صدى رقصتي الكهربائية؟

لقد تحولتُ إلى شبح، أطارد نفسي في حديقة الأغنياء.

☆ الراوية ☆

استلقى بلال على الأرض المبللة، جسده المتشنج يرتجف، وحرارة حروقه كانت تبخّر قطرات الماء بمجرد ملامستها لجلده. لكن، ولأول مرة منذ زمن، سكتت الأصوات. لم يبقَ سوى إيقاع المطر الرتيب على رمال التي بردت أخيراً.

وسط هذا الصمت المهيب، رأى شيئاً يتحرك في وحل الأرض. ليس بعيداً عن وجهه الملقى في التراب، كان هناك عصفور أزرق صغير، غريقٌ بريشه المبلل، سقط من علوٍ ولم يعد يقوى على الطيران.

لم يشعر بلال بالمرارة تجاه ضعف هذا الطائر، بل شعر بقرابة عجيبة معه. كلاهما تحت المطر، وكلاهما يُعذب بضعفه أمام جبروت العناصر. بجهدٍ جهيد، وبيدٍ محترقة بالكاد استطاع بسط أصابعها، زحف بلال بجسده المنهك

نحو الطائر. لم يغضب، لم يصرخ على السماء التي خذلت جناح هذا الصغير، بل بسط كفه المتعبة لتكون ملجأً له.

وضع العصفور في حضنه، ودفأه بأنفاسه التي كانت تخرج منه بصعوبة، وشعر بنبضات قلب الطائر المتسارعة تهدأ شيئاً فشيئاً بمجرد شعوره بالأمان. في تلك اللحظة، شعر بلال أن قوته ليست في تحمل السوط، بل في قدرته على أن يمنح الأمان وهو في قمة الخوف.

مال بلال برأسه نحو بركة صغيرة من الماء تشكلت بجانبه. رأى وجهه المنعكس على سطح الماء؛ كان مشوهاً بالسواد، مغطى بالدماء والغبار، والعيون غائرة من شدة التعب. مدّ يده الأخرى السليمة، غرف غرفةً من الماء البارد، ومسح بها جبهته وعينيه.

كان برودة الماء تتسرب إلى خلاياه، وكأنها تطفئ النيران المشتعلة في عروقه. غسل السواد عن وجهه، فظهرت ملامحه الصابرة تحت الطين. نظر إلى صورته في الماء وقال في نفسه:

أنا لست هذا الجسد المحطم، أنا الروح التي لا تغرق.

استلقى بلال على ظهره، تاركاً المطر يغسل جراحه المفتوحة. أغلق عينيه، وتلاشت آلام الكدمات في ظهره، واختفت حروق يديه أمام عظمة هذه اللحظة، والآلام الوخزات الكهربائية.

شعر بأن المطر ليس مجرد ماء، بل هو رسالة سماوية تخبره أن الأرض التي تستقبل هذا الماء لتزهر، ستستقبل دماءه وصبره لتثمر حريةً لا تنتهي.

الفصل السابع :

عندما تصبح الأمعاء الخاوية هي بوصلة الإنسان، يتساوى لديه طعم الرغيف بطعم الموت؛ فكلاهما نهاية لرحلة الشقاء

يقولون إن الجوع كافر، لكنهم لم يجربوا الجوع في قصر الأسياد؛ حيث الجوع ليس فقراً، بل هو هندسة مقصودة لإبقاء روحك معلقة بخيطٍ رفيع من الذل.

في هذا القصر، كانت الرائحة هي عدونا الأول؛ رائحة الشواء التي تتسلل من المداخن، وعبير الخبز الساخن الذي يملأ الممرات، بينما نحن العبيد كنا نقتات على العدم.

كان نظام الإطعام في القصر يعتمد على قاعدة واحدة:

العبد لا يأكل، بل يُحقن بما يكفي ليعمل. لم يكن لنا أطباق، بل كانت تُوضع لنا قصعة كبيرة في وسط ساحة الخدم، تحتوي على ما يسمونه الغسيل. وهو ماء غليت فيه عظام الذبائح بعد أن نُزع منها أثر للحم، ممزوجاً بفضلات الخضروات المتعفنة وبقايا دهون الصحون التي تُجلى من مائدة السيد.

كان علينا أن نجثو على ركبنا حول تلك القصعة كالكلاب الضالة. كنتُ أنظر إلى الماء الكدر الذي تطفو فوقه طبقات الزيت الصفراء، وأشعر بغثيان يمزق أحشائي. لكن الجوع كان أقوى من القرف. كنتُ أرى الأطفال الآخرين يتدافعون، يغرسون أيديهم المتسخة بالدماء والقذارة في ذلك السائل، يلعقونه بنهمٍ هستيري.

لم يكن الجوعُ في أحشائي صوتاً يطلب الطعام، بل كان ذئباً ينهشُ ما تبقى من كرامتي. كنتُ أرقبُ الفتات المتساقط من موائدهم المترفة كأنه قطعٌ من روحي تتساقط على الرخام البارد.

في تلك اللحظة، لم أكن أشتهي مذاق الخبز، بل كنتُ أشتهي تلك اللحظة التي لا أضطر فيها لمفاوضةِ غريزتي بين الموت جوعاً أو العيش ذليلاً تحت أقدام مَن لا يرون فيّ سوى ظلٍّ لآلةِ مسحِ البلاط.

ذات يوم، دفعني الجوع لدرجة أنني بدأتُ أبحث في القمامة خلف مطبخ القصر. وجدتُ عظمة ساق خروف، كانت جافة وبيضاء تماماً، لكنني انقضضتُ عليها كأنني عثرتُ على كنز. بدأتُ أمضغ العظم الصلب، أحاول استخراج أي ذرة نخاع بقيت في داخله. شعرتُ بأسنان الضعيفة وهي تطقطق، وبدمي يسيل من لثتي الملتهبة ليختلط بطعم العظم المترب.

وفجأة، وقف فوق راسي طباخ القصر، رجلٌ ضخم ذو كرش عظيم ووجه محتقن بالدم.

أرأيتم؟ صرخ وهو ينادي الحراس، هذا الجرو يسرق طعام كلاب السيد! إن عظام الغنم مخصصة لكلاب الصيد، وأنت أيها العبد أقل شأناً من كلب.

ركلني في بطني الخاوية ركلةً جعلتني أتقيأ عصارة معدتي الخضراء المرة. صادروا العظمة، وأجبروني على لحس الأرض التي سقطت عليها القيء كعقوبة على السرقة.

بدأ جسدي يتغير بشكلٍ مرعب. بسبب غياب الغذاء الحقيقي، أصبتُ بمرض لا أعرف ما هوا . بدأت عظام ساقي تتقوس للخارج، وصار المشي عبارة عن عملية تعذيب مستمرة. برزت أضلعي من صدري كأنها قضبان سجن تحبس قلبي الكسير.

أما بطني، فقد انتفخت بشكلٍ غريب استسقاء الجوع، مما جعلني أبدو ككائن فضائي مشوه؛ أطراف نحيلة كالأغصان اليابسة، وبطن بارزة، ووجه غارت فيه العينان حتى صارتا مجرد ثقبين من السواد.

كنتُ أجلس في الليل أراقب أصابعي، كانت ترتجف دائماً. شعرتُ أن عقلي بدأ يتآكل أيضاً؛ صرتُ أنسى الكلمات، لم أعد أتذكر كيف يُنطق اسمي أحياناً. الشيء الوحيد الذي كان يسكن خيالي هو أنواع طعام التي تناولتها في بيت رجل مسلم، كنتُ أغمض عيني وأحاول استحضار طعم السكر، فأسيل لعابي على صدري العاري، ثم أستيقظ على واقع الجوع الذي ينهش أمعائي كأنه حيوان مفترس يعيش داخلي، كنت فقط أتناول الدواء الذي يعطني إياه ماجد لاستمرار في عيش لضمان بضاعته أمام أصدقائه .

في زاوية القبو، كان هناك طفل أصغر مني يُدعى نادر. كان نادر في حالة احتضار بطيء بسبب سوء التغذية. كان يهمس لي في الليل:

- بلال.. هل تعتقد أن الرب يقوم بإطعام الجياع في الجنة؟

مسحتُ على رأسه الذي تساقط معظم شعره، وقلتُ بصوتٍ مخنوق:

- أنا أعلم عن الله وهو اله المسلمين، يقولون إنه الرزاق، يا نادر. يقولون إن هناك أنهاراً من عسل ولحم طير في جنته.

بكى نادر وقال:

- أنا لا أريد عسلاً.. أريد فقط قطعة خبز يابسة، لا يشاركني فيها الصرصور.

في الصباح، وجدنا نادراً قد فارق الحياة.

مات وهو يغرس أظافره في جدار الزنزانة، وكأنه يحاول أكل الحجر. لم يبكِ عليه أحد، بل جاء الحراس ورموه في كيس القمامة وكأنه سقطة متاع.

☆ الراوية ☆

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، حين كفَّ بلال عن تقليب أوجاعه فوق الحصير المتهالك. في تلك الليلة، كان الصمتُ ثقيلاً، ليس صمت الخوف، بل صمت الترقب المهيب. تسلل العبيد من أركان القبو المظلمة، يمشون على أطراف أصابعهم كأنهم أنفاسٌ هاربة، واجتمعوا في تلك المساحة الضيقة التي لا تصل إليها عيون الحراس ولا يطالها ضجيج القصر العلوي.

في المنتصف، وضع عجوز في القبو شمعةً صغيرة جداً، كانت تبدو في حجم بصيص أملٍ ضائع، لكنها حين اشتعلت، استطاعت أن تبتلع كل سواد القبو في جوفها. لم تكن مجرد قطعة من الشمع، بل كانت شمساً مصغرة، تحلق حولها أولئك الذين نسوا شكل الشمس الحقيقية.

جلس بلال، ولأول مرة منذ دهر، لم يشعر ببرودة الرطوبة التي كانت تأكل عظام ظهره. أحس بدفء الأجساد البشرية من حوله، دفء لم تصنعه المدافئ، بل صنعته القلوب التي قررت أن تنبض معاً في لحظة واحدة. لم تكن هناك سياطٌ تلوح في الأفق، ولا أوامر تنهش الكرامة، بل كان هناك همسٌ بشري

خفيض، أشبه بصلواتٍ سرية تُرفع إلى سقف القبو.

وضع أحد الفتية يده على كتف بلال، شعر بلال بسكينة غريبة تتغلغل في مسام جلده المحترق بكيٍّ سميرة؛ أحس بأن روحه تنفصل عن جسده المثقل بالندوب، لترتقي إلى فضاءٍ لا يملكه الأسياد. كان ينظر إلى لهب الشمعة الراقص، فيرى فيه وجوه الراحلين، يرى فيه وجه نادر الصغير الذي غادر بجوعه إلى جنات الخبز، لكنه لم يعد يراه بوجع، بل بسلامٍ عميق.

تحدثوا بكلماتٍ لم يعرفها القبو من قبل؛ تحدثوا عن لون البحر الذي سمعوا عنه في الأساطير، وعن رائحة المطر حين تبلل تراب القرى البعيدة. كانت كلماتهم تخرج مغلفةً بالهدوء، وكأنهم يرممون بها ما تكسر من أرواحهم طوال النهار. كان بلال يستمع بقلبه، يشعر بأن كل همسة تسقط فوق جروحه كأنها بلسمٌ بارد.

لقد كانت هذه الليلة جزيرةً من الهدوء في خضم محيطٍ من العذاب.

☆_____بلال _____☆

في إحدى الليالي الباردة، استدعاني ماجد إلى غرفة الطعام الكبرى. كانت المائدة تئن تحت وطأة الديوك الرومية، والفاكهة الاستوائية، والحلويات الملونة.

سأل ماجد وهو يمسح فمه بمنديل حريري:

- أنت جائع، أليس كذلك يا بلال؟

أومأتُ برأسي، واللعاب يسيل رغماً عني.

- حسناً.. سأطعمك.

أخذ قطعة من الكعك المغطى بالكريمة، ووضعها على

الأرض، ثم داس عليها بحذائه المتسخ حتى تهرست واختلطت بتراب النعل.

كلها.. انحنِ وأكلها كما تأكل الحيوانات، وسأعطيك قطعة أخرى.

انحنيتُ.. نعم مع الأسف انحنيت..

انحنيتُ يا والدي. الجوع كسر كبريائي. بدأتُ آكل الكعك المهروس من تحت حذائه، والدموع تنهمر وتغسل التراب عن وجهي. كان ماجد يضحك، وسميرة تنظر من بعيد وهي ترتشف قهوتها ببرود، وكأنني مشهد مسلٍ في سيرك.

بينما كان السكر يمتزج بطعم التراب في فمي، شعرتُ برغبة في الموت تفوق رغبتي في الأكل.

نظرتُ إلى السماء من النافذة العالية وقلتُ:

يا والدي.. أينما كنت، أتمنى أن تُحرم من الماء والزاد كما حُرمت. أتمنى أن تشعر بـ أنياب الجوع وهي تمزق كبدك، لتعلم أي جحيمٍ تركتني فيه.

عدتُ إلى زنزانتي، وبدأتُ أتقيأ ما أكلته. لم تقبل معدتي طعام الذل. بقيتُ مستلقياً على الأرض، أسمع أصوات أمعائي وهي تئن، لم أعد بلالاً.. لقد أصبحتُ مجرد فراغ يسكنه الوجع.

أقبل الشتاء على القصر، ولم يكن شتاءً عادياً؛ كان صقيعاً ينزل من السماء كالإبر المحماة بالثلج.

في غرف الأسياد، كانت المدافع الرخامية تلتهم أحطاب البلوط، والستائر المخملية الثقيلة تحجب نسمات البرد. أما في أقبية العبيد، فقد كان الموت يتسلل عبر الشقوق، يغرس أنيابه في أجسادنا الهزيلة التي لا يسترها إلا خرقٌ بالية.

لكن السيد كانت لديه فكرة أكثر ابتكاراً من المدافئ. كان يؤمن أن حرارة الأجساد الحية أكثر ليونة وطواعية من حرارة النار.

كنت أجلس في زاوية القبو قبل أن يأتي حسام ليجعلني مدفئه بشرية.

حيث كان العم مرزوق يجلس ، يعلم بعض من الأطفال القراءة والكتابة من خلال كتابة على الحائط بعود فحم، كنت اجلس مع هؤلاء الأطفال واتعلم ، كان الجميع يتفوق على في هذا، لذلك كنت أسهر طوال الليل وأنا أتمعن في تلك الحروف التي كتبها العم مرزوق على الحائط، حتى أجدتها كلها.

لذلك عزمت وبعد انتهاء من عملي كأداة تدفئة ، على أن أسرق إحدى الكتب في المكتبة أثناء عودتي إلى هذا القبو، لكن الآن يجب علي أن أنام لأنني متعب جداً.

في كل ليلة، وعندما يهبط الليل بظلامه الدامس، كان حسام يجمعنا نحن شباب الصغار، الذين بقيت في أجسادنا بقايا حرارة رغم الجوع. يأمرنا بالاستلقاء على أرضية غرف الضيوف، متراصين بجانب بعضنا البعض كقطع السجاد.

كان علينا أن نشكل طبقة بشرية فوق الرخام البارد، ثم يوضع فوق ظهارنا سجادٌ فارسي خفيف، ليمشي عليه الأسياد أو يضعوا أقدامهم علينا وهم يحتسون النبيذ.

إياكم والحركة، كان حسام يهمس وهو يمر بسوطه فوق رؤوسنا، أريد أجسادكم متوهجة كالجمر. من يبرد جسده، سيُجلد حتى يسخن دمه.

كنتُ مستلقياً ووجهي ملتصق بالرخام الذي كان يمتص آخر ما تبقى من دفء في قلبي. فوق ظهري، شعرتُ بثقل قدمي ماجد ، كان يضغط بكل قوته وهو يضحك مع أصدقائه. كان برْد الرخام من تحتي يفتت أضلعي، وثقل الأقدام من فوقي يحطم فقراتي. كنتُ بين فكيّ كماشة من الجليد والحديد.

بجانبي تماماً، كان هناك شاب جديد، لا يتجاوز العشرين، يُدعى سليم. كانت أسنانه تصطدم ببعضها البعض لدرجة أنني خشيتُ أن تتحطم. همس لي وصوته يخرج كحشرجة الموت:

- يلال.. أنا لا أشعر بقدمي.. هل سقطتا مني؟، هل وجدتهما.؟.

حاولتُ أن أمسك بيده تحت السجاد، كانت يده كقطعة من الجليد الغارق في بئر.

همستُ له:

- تمسك بي يا سليم.. تخيل أننا قرب دكان الرجل المسلم.. تخيل أن الشمس تشرق الآن فوق رؤوسنا.

بكى سليم بصمت، وشعرتُ بدموعه الساخنة تسقط على ذراعي، كانت تلك الدموع هي الشيء الوحيد الدافئ في تلك الغرفة اللعينة.

قال:

- أريد أمي.. هل أمي تذكرني الآن يا بلال؟ هل تذكر أن لي اسماً؟

لم أستطع إجابته، فأنا أيضا ما زلت أبحث عن جواب هذا السؤال الذي اعتصر مخيلتي، لكن قدماً غليظة داست على رأسي في تلك اللحظة، لتدفن وجهي في الرخام.

بسبب ساعات الوقوف الطويلة في السنين الماضية، ثم الاستلقاء لساعات في البرد القارس، بدأت أصاب بقضمه الصقيع .بدأت أطراف أصابعي تتحول إلى اللون الأزرق الداكن، ثم الأسود. فقدتُ الإحساس بها تماماً، وكأنها صارت قطعاً من الخشب الميت ملتصقة بجسدي.

أما صحتي الصدرية، فقد انهارت تماماً. صرتُ أسعل دماً ممزوجاً بقطع صغيرة من البلغم المتجمد. كانت رئتاي تصدران صوتاً يشبه عويل الريح في ممر ضيق.

أصبتُ بالتهاب رئوي حاد، ومع ذلك، كان عليَّ أن أقف في الصباح لأحمل الماء المثلج من البئر، وأعود في الليل لأكون مدفأة لأسياد.

☆_____الراوية_____☆

قبل بزوغ الفجر انتهت نوبة بلال حتى تيبست أطرافه، لكن عقله كان يغلي. تسلل من غرفة العرش، تلك القاعة التي تشبه فم تنين ذهبي، حيث الثريات تتدلى كعناقيد من النور الميت. كان الحراس يغطون في نومٍ ثقيل، ورائحة النبيذ المعتق تفوح من أنفاسهم، مما جعل حركته الخفيفة كحركة قطٍّ جائع تمر دون أثر.

تسلل بلال عبر الممرات الطويلة، وقلبه يقرع صدره مثل طبلٍ بدائي. كان يسمع دقات قلبه تتردد في أذنيه: دب، دب، دب، وكأنها ستوقظ القصر

بأكمله. وصل إلى باب المكتبة العظيم، دفعه ببطء، فاستقبله عبق الورق القديم والجلد الفاخر.

كانت مكتبة جيوفاني عالماً موازياً. أرفف تعانق السقف، آلاف المجلدات التي اصطفت كجنودٍ صامتين يحرسون أسرار الكون. لم يكن هناك ضوء سوى خيوط القمر المتسللة من النوافذ العالية، لترسم ظلالاً مهيبة على الأرضية الخشبية. مدّ يده المرتجفة، لم يختر عنواناً، بل اختار ملمساً. سحب كتاباً ضخماً، ودسه تحت قميصه المهترئ، ثم ركض عائداً إلى ملجئه الوحيد.. القبو.

هناك، في الزاوية التي تفوح برائحة الفحم والرطوبة، كان العم مرزوق جالساً كتمثال من أبنوس، يراقب الفتى وهو يدخل لاهثاً.

فتح بلال الكتاب. كان قانون العقوبات والمرافعات. كلمات ثقيلة، جافة، لكنها بالنسبة لبلال كانت طلاسم سحرية.

بدأ بلال يتهجى بصوت خفيض: ال.. الـ.. المـ.. مقـ.. مقتـ.. ضى؟

انفجر العم مرزوق بضحكة مكتومة هزت كتفيه الهزيلين:

- مقتضى يا بلال؟
- والله يا ابني لو قرأتها ألف مرة لن تدفئك في هذا البرد، هذا كتاب ينشف الريق!

التفت بلال إليه بعينين متقدتين:

- يا عم مرزوق، الحروف هنا ليست كالحروف التي رسمتها بالفحم على الحائط. انظر إلى هذه، لماذا تمد ذيلها هكذا كأنها أفعى؟

ضحك مرزوق ومال برأسه نحو الكتاب:

- هذه الياء يا غبي، تمد ذيلها لتصطاد أمثالك من المتحمسين.
- اقترب.. اقترب... أربي ماذا سرقت أيضاً؟
- قانون؟ أتريد أن تصبح قاضياً وتُحاكم الأسياد فوق؟

بلال بجدية مضحكة:

- لا ، لا يا عم مرزوق أريد فقط أن أعرف كيف يكتبون هذه الكلمات الطويلة.
- أنظر هنا، ما هذا الحرف الذي يشبه المغرفة؟

مرزوق يضرب جبهته:

- مغرفة؟ ويحك! ، أين وجدت عقلك .
- هذه العين في وسط الكلمة. انظر، افتح عقلك لترى جهلك بوضوح.

كرر وراي: مُعَاقبَة.

بلال:

- مُعَا.. مُعَا.. معالجة؟

مرزوق:

- معالجة في عينك!

معاقبة! يبدو أنك تأثرت بضربات السياط اليوم حتى نسيت الفرق بين الدواء والعقاب.

استمرت الجلسة لساعات. كان بلال يسأل أسئلة تثير جنون مرزوق وضحكه في آن واحد.

بلال:

- يا عمي، لماذا وضعوا هذه النقطة فوق الحرف؟ ألا يكفي الحرف نفسه؟
- هل هم مبذرون في الحبر؟

مرزوق:

- يا ولدي، النقطة هي التي تجعل الحمار يصبح خماراً.
- هل تريد أن نركب الخمار أم نشرب الحمار؟ انتبه للنقاط فهي ميزان العقل!

بدأ بلال يلاحظ الفروقات. الكتاب الذي سرقه، رغم جفافه، كان المعلم الحقيقي.

كانت الحروف مطبوعة بدقة، لا تشبه خط الفحم المتعرج. بمرور الليالي، لم يعد يتهجى، بل بدأ يلتهم الجمل.

بلال: عم مرزوق، اسمع هذه:

- يُعتبر المتهم بريئاً حتى تثبت إدانته. هل هذا يعني أننا لسنا مذنبين لأننا ولدنا فقراء؟
- سكت مرزوق قليلاً، تلاشت ضحكته وحلّ مكانها بريق من الحزن والفخر: في هذا الكتاب يا بلال، أنت بريء. لكن فوق في غرفة العرش، أنت مذنب بمجرد أنك تتنفس. لهذا السبب يا بني، تعلم.. تعلم لتكتب قانونك الخاص يوماً ما.

مع كل صفحة يقلبها، كان خط بلال على أرضية القبو يتحسن. لم يعد يستخدم الفحم فقط، بل أصبح يبري أعواد الخشب الصغيرة ويغمسها في بقايا القهوة أو الطين ليحاكي ريشة الكتابة التي رآها في المكتبة.

ذات ليلة، نظر مرزوق إلى ما كتبه بلال على الحائط، كانت جملة طويلة بخط منسق: الحرية تبدأ بكلمة.

قال مرزوق وهو يمسح على رأس بلال:

- "أتعرف؟ لقد تفوقت على أستاذك يا سارق الكتب. غداً، قد تسرق القصر كله بعقلك هذا.

رد بلال بابتسامة عريضة وهو يغلق الكتاب القانوني الثقيل:

- لن أسرق القصر يا عمي، سأكتب كتاباً يخبر العالم أن أداة التدفئة البشرية لديها عقل يحرق الجهل أسرع من حطبهم.

نام بلال والكتاب بين أحضانه، لم يعد يشعر بالبرد. كانت الكلمات التي تعلمها تدور في رأسه مثل نجوم صغيرة، تنير عتمة القبو وتعده بفجرٍ لا يُهان فيه إنسان.

☆_____الراوية _____☆

في احدى ليالي سبتمبر، لم يكن البرد مجرد طقس، بل كان وحشاً ضارياً ينهش العظام. اشتدَّ الصقيع حتى سمعتُ طقطقة الخشب في جدران القصر، وتجمد الماء في الأواني الفخارية ليصبح كالحجر . كنا نلتصق ببعضنا البعض، أنا وسليم، نبحث عن رمق دفء في أجسادنا التي لم يبقَ فيها سوى الجلد الملتصق بالعظم.

كان سليم بجانبي، وظيفتنا الليلة كما هي العادة الملعونة أن نكون مدافئ بشري تحت أقدام السادة. شعرتُ بحركته تخمد تدريجياً، ظننتُه استسلم للنوم

بعد نهارٍ من الشقاء. لم تكن المسافة بيني وبينه كبيرة، لكن شعوراً غريباً بالوحدة بدأ يتسلل إليّ.

مددتُ يدي أتحسس البلاط البارد، وفي تلك العتمة، غاصت أصابعي في فجوة صغيرة.. جزء من البلاط كان مفقوداً أو متحركاً، كأنه جرح في جسد الغرفة. حاولتُ رفعه بأطراف أصابعي فتحرك قليلاً، انتابني فضولٌ شاحب لمعرفة ما تحت هذا الحجر، لكن نبض سليم كان هو شاغلي الأكبر.

ناديته بصوتٍ خافت:

سليم.. هل أنت مستيقظ؟.

لم يأتِ رد، سوى صفير الريح من شقوق النافذة. قلتُ في نفسي:

دعه ينام، لعله في حلمه الآن يركض في حقول قريته البعيدة.

مع خيوط الفجر الأولى التي تسللت باهتة كوجه ميت، حاولتُ تحريكه. لمستُ كتفه، فارتدت يدي مذعورة. لم يكن ملمسه ملمس بشر، كان ملمسه يشبه ملمس الرخام في ساحة القصر. سليم لم يعد نائماً، لقد استحال إلى تمثالٍ من جليد.

صرختُ، لكن صوتي خرج حشرجةً محطمة:

- سليم! أجبني يا أخي.. سليم!.

هززته بملء روعي، فكان جسده يتحرك ككتلة واحدة صلبة، بلا ليونة، بلا حياة. نظرتُ إلى عينيه، كانت مدهوشتين نحو سقف الغرفة، كأنه في لحظته الأخيرة رأى شيئاً أرعبه أو أذهله. لقد مات سليم.. مات وهو يؤدي وظيفته الأخيرة، مات وهو يحاول أن يمنح الدفء لمن لا يستحقون الهواء.

لم يطل حزني وحيداً، فقد انفتح الباب بعنف ودخل الحراس يتقدمهم حسام. نظروا إلى الجثة ببرود مرعب، كأنهم يعاينون قطعة أثاث تالفة. سحبه الحراس من قدميه، وكانت رأس سليم ترتطم بالبلاط بصوتٍ مكتوم يمزق نياط قلبي.

وقف حسام فوقي، رمقني بنظرة ملؤها الاحتقار وقال بنبرة جافة:

يبدو أن صديقك كان رديئاً يا بلال، مادة صنعه هشة لم تحتمل قرصة شتاء واحدة. انظر إليه.. إنه تمثال جيد الآن، صامت ومطيع. لا تكن مثله، فالسيد جيوفاني يكره الأدوات التي تنكسر بسرعة.

في تلك اللحظة، انكسر شيءٌ ما داخل جمجمتي. لم أبكِ، بل بدأتُ أضحك. ضحكةٌ هستيرية، عالية، ومزمجره ، بدأت تخرج من أعماقي وتتردد في أرجاء الغرفة الموحشة. استلقيتُ على الأرض، وفي غمرة ضحكي المسموم، غامت الرؤية أمامي.

فقدتُ صوابي. بدأتُ أضحك ضحكاً هستيرياً وأنا مستلقٍ على الأرض. يتراءى لي والدي وهو يدخل الغرفة، يرتدي معطفاً من الفرو، ويضع قدمه فوق صدري ليصعد إلى سريره. صرختُ فيه بكلماتٍ لم أفهمها:

والدي! .....

هل معطفك دافئ؟

هل اشتريته بثمني؟

أنظر.. أنا هنا، أنا السجاد الذي تمشي عليه!

أنا النار التي تدفئ نعل حذائك!

هل تشم رائحة احتراق روحي؟

ركلني أحد الحراس على فمي ليسكتني. سقطت سنّان من فمي على الرخام، وتدحرجتا لتستقرا تحت سرير السيد. نظرتُ إليهما وقلتُ في سري:

حتى أسناني تريد الهروب من هذا الجسد.

يا والدي.. هل يمكن لقلبٍ بَشري أن يتخيل هذا؟

أن يتحول ابنه إلى جماد أن يُسلب منه حق الشعور بالدفء؟ ها أنا أبلغ الخامس والعشرين من عمري ، لقد صار جلدي خشناً كجلد الزواحف، وصار قلبي كتلة من الثلج لا تذوب. لم أعد أبحث عنكما لأحتضنكما، بل

أبحث عنكما لأغرس أصابعي المتجمدة في رقابكما، لكي تشعرا بالبرودة التي سكنت حياتي بسببكما.

لقد فقدتُ القدرة على البكاء؛ فالدموع تتجمد في عيني قبل أن تسقط. أنا الآن آلة تدفئة معطلة، تنظر إلى الموت كمدفأة أخيرة، كحضن دافئ وحيد ينتظرني في نهاية هذا الطريق المظلم.

في تلك الليلة، كان الهواء يعوي كذئبٍ جريح، برودةٌ مريبة تسللت عبر شقوق القبو، تلسع جلدي الهزيل كأنها تنذر بشؤمٍ قادم.

كان الأسياد غارقين في نومهم المخملي، والكون من حولي صامتٌ إلا من صوتٍ واحد؛ عويلٌ بعيد، شهقاتٌ مخنوقة تقطع نياط القلب، تأتي من أعماق القصر كأنها استغاثة غريق في بحر من دماء.

كان حسام قد غفل عن إيصاد باب القبو، فدفعتني روحي المكسورة نحو مصدر الصوت.

لم يكن فضولاً، بل كان نداء الوجع للوجع.

تسللتُ بخطواتٍ وئيدة، واهنة، كانت قدماي الحافيتان تلامسان الرخام البارد وكأنهما تلامسان حد السكين. كنتُ ألفُّ رأسي في العتمة يمنةً ويسرة، كطائرٍ ذبيح يبحث عن مأواه الأخير وسط غابة من الوحوش.

تذكرتُ الغرفة التي شهدت رحيل سليم، الغرفة التي سكنتها الأشباح من بعده. توجهتُ نحو ذلك الشق الذي لاحظته يوماً؛ بلاطة متمردة عن رصيف الأرضية. رفعتُ السجادة ،وبدأتُ أتحسس البلاط بأصابع مرتجفة، أبحث عن ملمس الفراغ تحت الحجر، أخيراً وجدته.

وضعتُ أظافري في الحواف ونزعتها بملء قوتي التي استمددتها من يأسي. انبعث غبارٌ كثيف كأنه دخان حريقٍ قديم، وكشف عن فجوةٍ مظلمة يبرز منها سلمٌ خشبي طويل، يغوص في بطن الأرض لثلاثة أمتار أو يزيد. أشعلتُ شمعةً صغيرة كانت مخبأة في طيات ثيابي؛ اشتعل اللهب ضئيلاً، يرقص بضعفٍ أمام تيارات الهواء الباردة الصاعدة من الأسفل. بدأتُ النزول.. درجة.. درجة، وكل درجة كانت تصرخ تحت ثقلي المنهك صرخةً توقظ الأرواح النائمة.

ما إن لامست قدماي الأرض، حتى صفعتني رائحة الرطوبة والعفن؛ لم تكن مجرد رائحة خشبٍ متآكل، بل كانت رائحة الزمن حين يفسد.

كانت جدران القبو عبارة عن رفوفٍ خشبية ضخمة تلتف من ثلاثة اتجاهات، تكتظ بملفاتٍ ووثائق ولفافات ورقٍ اصفرّت حتى صارت بلون الخريف. وضعتُ الشمعة على الأرض، فانعكس ظلي على الجدار عملاقاً مشوهاً يشبه الوحوش التي تسكن هذا القصر.

مددتُ يدي المرتعشة نحو أحد الرفوف. كانت الأوراق ملمسها كجلدٍ ميت. حاولتُ أن أستحضر كل حرفٍ علمني إياه العم مرزوق. قرأتُ بصعوبةٍ بالغة، والحروف تتراقص أمام عيني تحت ضوء الشمعة الراقص: س... ل... ي... م. سليم! سقطت دمعة من عيني فوق الورقة لتترك أثراً دائرياً. كان هذا ملفه؛ تاريخ عبوديته، ثمن شراؤه، وجدول سياطه. ارتجفت يداي وأغلقت الملف وكأنني أغلق جرحاً ينزف.

انتقلتُ إلى الجهة المقابلة، وجذبتُ ملفاً آخر. ما إن فتحته حتى تجمدت الدماء في عروقي؛ صورة فتاة تدعى أمل. كانت عيناها في الصورة تبحثان عن مخرج، تماماً كما أفعل الآن. لم أستطع إكمال القراءة، ليس لعدم قدرتي، بل لأن الرائحة بدأت تزداد حدة.. رائحة كريهة جداً، رائحة لحمٍ قتله الإهمال.

أشعلتُ بعض الشموع المثبتة في حوامل نحاسية على الحائط لأبصر طريقي في ذلك الممر الضيق. أكملتُ مسيري وأنا أرتجف، ليس من البرد، بل من شعورٍ بأنني أمشي في أحشاء وحش. فجأة، تعثرتُ بشيءٍ صلب، وسقطتُ على وجهي ليرتطم رأسي بالأرض بقوةٍ جعلتني أرى ألواناً غريبة تتقاطع في سواد عيني.

بقيتُ ممدداً لثوانٍ، أنفاسي تتلاحق. بدأتُ أتحسس الأرض حولي، فقبضت يدي على شيءٍ أملس وبارد. قربتُ الشمعة منه، وما إن أضاءت ذلك الجسم حتى انتفض جسدي كله في رعدةٍ لم أعرفها من قبل:

إنها عظام إنسان! كانت جمجمةً تتوسطها فجوات العينين الواسعة، تبدو عليها علامات الدهشة وكأن صاحبها لم يستوعب بعد أنه فارق الحياة. تركتها من يدي بذعر، وبدأتُ أزحف مبتعداً، لكن الرائحة العفنة كانت تزداد قوة مع كل شبرٍ أتقدمه نحو نهاية القبو.

وصلتُ إلى زاويةٍ مظلمة، وهناك... توقف الزمن. ما هذا؟!.

صرختُ، لكن الصرخة ماتت في حنجرتي وتحولت إلى شهقةٍ مخنوقة. كانت هناك جثة محنطة بفعل الرطوبة، مثبتة من معصميها وقدميها بسلاسل غليظة إلى الجدار الحجري.

الوجه كان شاحباً كالرماد، والجلد قد جفّ فوق العظام حتى برزت الأسنان في ابتسامةٍ جنائزية مرعبة. كان الهيكل يبدو هزيلاً، منحنياً تحت ثقل سياطٍ قديمة تركت أخاديدها في ما تبقى من ظهره..

جثوتُ على ركبتي وأنا أبكي بمرارة. بجانب هذه الجثة المنسية، كان هناك طبقٌ زجاجي يحمي حزمة من الأوراق. رفعتُ الزجاج ببطء، وكأنني أرفع الغطاء عن قبر. بدأتُ أقرأ بقلبٍ يقطر دماً.

لم تكن الجثة لعبدٍ عابر، بل كانت لوالد جيوفاني أتاكشي.

قرأتُ في تلك الصفحات اعترافاتٍ كتبها جيوفاني بخطٍ يفيض بالجنون والحقد. وصف فيها كيف كان هذا الرجل أتاكشي يحبسه في هذا القبو نفسه وهو طفلٌ صغير. قرأتُ عن الليالي التي قضاها جيوفاني الصغير تحت وطأة سياط والده الذي كان يرى في القسوة سبيلاً لصناعة رجل. كان الوالد يجبره على أكل الخبز العفن، ويحرمه من رؤية النور لشهور، ويضربه حتى يغيب عن الوعي وهو يضحك.

لقد صنع مني وحشاً، فكان جزاؤه أن يموت في عرين الوحش الذي صنعه.

هكذا كتب جيوفاني. لقد كبر الطفل المعذب ليصبح معذِّباً، وحين تمكن من القوة، سحل والده إلى هذا القبو، قيده بالسلاسل ذاتها، وتركه يتضور جوعاً ويشم رائحة موته يوماً بعد يوم، حتى تحول إلى هذه المومياء الواقفة أمامي.

أدركتُ في تلك اللحظة أن جيوفاني ليس شريراً بالفطرة، بل هو ضحيةٌ قررت أن تنتقم من العالم أجمع بسبب جرحٍ لم يندمل.

لكن هذا الإدراك لم يقلل من رعبي، بل زاده؛ فمن يصنع من والده جثةً معلقة في القبو، لن يرف له جفنٌ وهو يمحو وجودي.

تملكني رعبٌ لم أعهد له مثيلاً. شعرتُ بأن الجثث والملفات والرفوف كلها بدأت تضيق عليّ، وكأن القبو يحاول ابتلاعي لأصبح مجرد عظامٍ أخرى

تضاف إلى الرفوف. نهضتُ والدموع تعمي بصري، تعثرتُ بجسدي المنهك وأنا أركض نحو السلم الخشبي. كانت الشمعة قد أوشكت على الانطفاء، مما جعل الظلال تبدو وكأنها أيادٍ تحاول الإمساك بقميصي.

صعدتُ السلم بجنون، كانت أصابع قدماي تنزف من حدة الخشب، لكنني لم أشعر بالألم. ما إن خرجتُ من الفتحة حتى أعدتُ البلاط مكانه بسرعةٍ هستيرية، وسحبتُ السجادة فوقه لأطمس معالم السر الذي لا ينبغي لأحدٍ أن يعرفه.

أغلقتُ باب القبو خلفي وأسندتُ على شمعة قريبة ، وأنا أرتجف كخيطٍ في مهب الريح. كنتُ ألهث بعنف، ورائحة العفن لا تزال عالقة في ثيابي وفي رئتيّ. همستُ لنفسي وصوتي يتقطع:

قد دخلتُ القبو وأنا أبحث عن جواب لآلامي، وخرجتُ منه وأنا أحمل آلام العالم كله فوق كتفي.

جبت أبحث في غرفة غرفة عن صوت ذلك الإنسان الحزين الذي مازال يبكي ،وبعد جهد مرير في البحث، وجدت ما لم يكن في الحسبان، لقد ظننت أنني سأجد بشراً يعاني مثلي، جسداً يرتجف خلف الأبواب، لكن الغرف كانت خالية إلا من أصداء ذاك البكاء المرير.

وصلتُ إلى ردهةٍ مخفية، حجبتها ستائر مخملية سوداء، ثقيلة كأنها كفنٌ يغطي سرّاً كونياً. استجمعتُ بقايا شجاعتي ودخلت. فاحت في وجهي رائحةٌ معدنية حادة، مزيجٌ من الفور مالين والمواد الحافظة التي تخنق الأنفاس.

لم تكن القاعة مضاءة بنور النهار، بل بشموعٍ خافتة تترنح ظلالها على الجدران كأنها أرواحٌ ترقص رقصة الموت.

رفعتُ نظري، فصُعقتُ بصدمةٍ أوقفت خفقات قلبي العرجاء. لم تكن الجدران تزين بلوحات لفنانين، بل كانت مساحات من الجلد البشري مشدودة بعنايةٍ وحشية فوق براويز ذهبية براقة.

جلودٌ جُففت بدقةٍ هندسية، تحمل ندوباً، ووشوماً، وعلامات حروقٍ قديمة.. كانت جلود الرفاق، جلود العبيد الذين سقطوا في غيابات هذا القصر.

تسمرت قدماي أمام لوحةٍ معينة. شهقتُ حتى كادت رئتي تنفجر؛ كانت قطعة جلدٍ تحمل ندبةً دائرية عميقة في منطقة الكتف، تشبه تماماً تلك العلامة التي كانت تميز الرجل العجوز عقرب الساعة الذي اختفى قبل أسبوع.

أدركتُ الحقيقة المرّة، السيد جيوفاني لا يستبيح أجسادنا أحياءً فقط، بل يسرق جلودنا ليخلد انتصاره، ليجعل من عذاباتنا تحفاً فنية يتباهى بها أمام ضيوفه وهم يحتسون نبيذهم الفاخر.

لم يكن الصوت الذي سمعته بكاء لأناس أحياء، بل كان عويل الأرواح المحبوسة في تلك المسام المجففة، صراخ الذكريات المصلوبة على المسامير. سقطتُ على ركبتي، أنتحبُ بصمتٍ يمزق أحشائي، اعتذرتُ للعجوز، اعتذرتُ لكل سمٍّ من الجلد سُلخ ليصبح زينةً في قاعة اللذة.

لم أستطع أن أتمالك نفسي أكثر من هذا، وبدئت بالبكاء الشديد وشهقات المتتالية سد مجرى تنفس عندي.

فجأة، شعرتُ بظلٍ خلفي يلامس كتفي اليمنى ، تجمد الدم في عروقي، وتسارعت نبضات قلبي، توقف الزمن لوهله، استدرت بخوف لأرى من هذا.

كان ذاك حسام. لم يضربني هذه المرة، بل نظر إليّ بنظرةٍ باردة كالموت، وقال بصوتٍ خافت يملأه تهديد :

- أعجبك المتحف يا بلال؟.

لقد اكتشفت أعظم أسرارنا لذلك سوف يكون دورك غدا، كما أنك تحملت كثيراً من اختباراتنا في هذا القصر، في بداية ظننا أنك لن تنجوا لكننا كنا مخطئين، أحسنت في بقاءك على قيد الحياة ،ولهذا سبب فإن السيد يرى في جلدك إمكانيات رائعة.

تلك الندوب التي صنعناها في صيد الأشباح، وحروق ساعة الصمت، ستجعل من ظهرك لوحةً لا تقدر بثمن بعد رحيلك. أنت لا تسكن القصر يا بلال..

أنت التمثال القادم الذي سوف يخلد بقاءك هنا الى الأبد ، أم الان فعد إلى زنزانتك ، لكن لا تقلق سوف أخبر سيد القصر جيوفاني بأن دور سلخك قد اقترب.....

عدتُ إلى القبو أجرُّ أذيال خيبتي ورعبي مما سمعته ورايته. بدأتُ أتحسس جلدي بذعرٍ هيستيري، أشعر أنني ألمس ورقاً ينتظر ريشة السلخ، لا لحماً ينبض بالحياة. انهرتُ على الأرض، أضحكُ تارةً بمرارة وأبكي تارةً بجنون.

صرختُ في صمت القبو: يا والدي! هل تسمع؟

أنا لستُ ابناً ضائعاً ينتظر العودة، أنا لوحة زيتية قيد الإنشاء! لقد باعني جورج لا لأخدم فحسب ، بل لكي أُسلخ!

هل كنت تعلم أن نهايتي ستكون مسماراً في حائط، يشربون نبيذهم تحت ظلي ويضحكون على تاريخ أوجاعي؟.

لو رأيتني الآن، هل ستعرفينني من عينيّ المطفأتين، أم من شكل الجروح التي رسمها الأسياد على ظهري كأطلالٍ محطمة، ملأ جسدي بندوب، عيني اليسرى ويدي اليسرى كذلك فيهما ندبتان كبيرتان ، لن تلأم مهما مرت السنوات، وقدمي وظهري ، لا بل كل جسدي ملأ بكل أنواع الندوب والأوجاع.

أدركتُ أن ساعتي قد اقتربت، فصدري ضاق بسعال الدم، وقلبي صار يخفق خفقاتٍ متعثرة كأنه يودع الحياة. لكنني قررتُ ألا أتركهم يملكون حكايتي...

بأظافري المتكسرة التي نخرها التعب، وبأسنانٍ تهاوت من سوء التغذية، بدأتُ أحفر على جدران الزنزانة الصخرية. كنتُ أغرس أصابعي في جروحي المفتوحة، أتزود بمداد الدم الحار لأخطَّ وصيتي الأخيرة على الحجر الأصم:

أنا بلال.. ابن الشخص الذي تخلّى عني للرياح. أنا لستُ رقماً في سجلاتهم، ولستُ لوحة في قاعاتهم. إذا وقعت عينك على هذا الحجر، فاعلم أن هذا الجدار قد شرب من دموعي ما يكفي لإغراق هذا القصر ومن فيه.

يا والدي.. أتمنى أن تمر يوماً من هنا، فتسمع صرختي المحبوسة في مسام الصخر، وتعلم أن ابنك مات.. وهو يملك روحه، وإن سلبوه جلده.

انكمشتُ على نفسي في زاوية القبو، جسدي يرتعش بقوة، وعينيّ معلقتان بالباب، أنتظر الصباح الذي قد يحمل معه السلّاخ، أو يحمل معه رحمة الموت التي ستحرر روحي من هذا السجن الأبدي.

الفصل الثامن :

الألم ليس مجرد شعور، إنه اللغة الوحيدة التي لا تحتاج إلى ترجمة، والوشم الذي لا يُمحى عن جلد الذاكرة.

في صباح الباكر استيقظت مع بقية الرفاق العبيد على صرخة حسام الذي يتبعه جورج ، وبدأوا بأخذ كل عبد إلى عمل معين ،حينما جاء دوري التفت لي حسام وقال:

- تعال معي السيد ينتظرك .

كانت الغرفة تفوح برائحة الثراء الفاحش؛ مزيجٌ خانق من بخور العود المعتق ورائحة الجلود الفاخرة التي تكسو الأثاث.

سحبني حسام من طوق حديدي يحيط بمعصمي، وجرّني فوق سجادة يدوية الصنع بدت ناعمة كالحرير تحت قدمي الحافيتين والمتسختين، حتى رماني في وسط القاعة.

تربّع جيوفاني على عرشه المخملي ببرودٍ أرستقراطي، واضعاً قدماً فوق قدم، يحرك كأس مملوء بالنبيذ بشكل دائري ، كأنه لا يبالي بقدومي حتى .

وبجانبه وقف جورج بظهره المحني كأنه ظلٌّ باهت لسيّده، بينما كان ماجد يتكئ على جدارٍ مرصع مضيء بطريقة تعمي الأبصار ، يقلّب في يده سوطاً جلدياً صغيراً بابتسامةٍ خبيثة.

سأل جيوفاني بنبرة تفيض بالتعالي، وهو يرمقني بنظرةٍ تشبه نظرة إنسانٍ إلى حشرة مقززة:

- أهذا هو الذي حدثتني عنه يا حسام؟؟.

أجاب حسام وهو يدفعني في ظهري:

- نعم يا سيدي، هو الذي تجرأ ودنس تماثيلك بنظراته.

ضحك جيوفاني ضحكةً باردة هزت أركان الغرفة:

- إنه يبدو غبياً.. وجهه لا يوحي بأنه يدرك قيمة الفن الذي رآه.

انحنى جورج بمكر، وهمس:

- ما رأيك يا سيدي؟ هل نسلخ جسده اليوم ليكون عبرة؟

لا.. رد جيوفاني وهو يتناول كأساً من الكريستال، اليوم دور شخص آخر..

ما اسمه يا جورج؟ أنا لا أحفظ أسماء العبيد، فهم عندي مجرد أرقام.

تردد جورج لحظة ثم قال:

- ربما اسمه ، لا أعلم ربما مرزوق يا سيدي.

هتف جيوفاني فجأة: أجل، أجل أنه هو،

مرزوق! تذكرته الآن. سيكون ضحيةً مثالية لمأدبة الليلة، أما هذا الغبي.. فدوره غداً. لكن، لا بأس ببعض التسلية الآن لتمضية الوقت.

حين نطق باسم مرزوق، شعرت بصاعقة تضرب قلبي. مرزوق! الرفيق الذي قاسمته الجوع والبرد والخوف ، الذي أنقذني من الموت أكثر من مرة ، الذي علمني قراءة بشكل بسيط، انتفضتُ من فوق الأرض، وتجاهلتُ ألم رأسي وصراخ حسام، وارتميتُ عند قدمي جيوفاني ممسكاً بطرف ثوبه:

- أرجوك يا سيدي!

مرزوق لا.. خذني مكانه! اقطع لساني، اسلخ جلدي، لكن اترك مرزوق، إنه لا يتحمل.. أرجوك!

بصق جيوفاني على وجهي، وقبل أن أنطق بكلمة أخرى، اندفع ماجد من الظل ،ركلني في صدري ركلةً أطارت أنفاسي، ثم غرس ركبته في معدتي وهو يشد شعري للخلف بقوة كادت تقتلع فروة رأسي.

صرخ ماجد وصوته يقطر حقداً،

- تتكلم أيها الحثالة؟ تتوسل من أجل فاشل آخر مثلك؟
- أنت وهو مجرد نفايات لا تصلح حتى لإطعام الكلاب!

بدأ يلطمني على وجهي بضربات متلاحقة، وبين كل ضربة وأخرى كان يكيل لي الشتائم:

يا ابن الذليل.. هل تظن نفسك بطلاً؟

أنت فاشل، وأبوك كان فاشلاً، وعائلتك كلها لم تنجب إلا العبيد والقمامة.

سأجعلك تشاهد تمثال مرزوق عند انتهاءنا منه، لتعرف أنك عاجز عن فعل أي شيء .. وأنك مجرد نكرة!

أشار جيوفاني لماجد بيده ليتوقف، ليس شفقةً، بل ليتسنى له مشاهدة نوع آخر من التعذيب.

اقترب جيوفاني مني، وبكل هدوء، غرس نصل خاتمه المدبب في كتفي وبدأ يديره ببطء تحت الجلد.

صرختُ صرخةً مكتومة، فضحك جورج بانتشاء، بينما كان ماجد يبصق عليّ ويشتمني بأقذع الألفاظ، متهكماً على أصلي ومنبتي، في مشهدٍ امتزج فيه الوجع الجسدي بذلّ الكرامة المهدورة تحت أقدام الطغاة.

عدت إلى القبو وأنا أجر نفسي ببطء جنائزي ،لا أدري ما أفعل هنالك كان مرزوق يجلس في زاويتي ينتظرني توجهت نحوه غير مبالي بجروحي، وبدئت أقبل جسده ، حتى أخشى على من تعب ، استيقظت بعد وقت لا أذكر كم كان ، وجدت جروحي قد التأمت ، كان مرزوق قد عالجها لي أثناء نومي ، نهضت فجأة أبحث عنه في كل مكان ، لكن الاوان كان قد فات.

في زاويتي القذرة بدئت أبكي عليه بجنون ، حتى أنني أذكر أن بعض العبيد ومن ضمنهم تلك الفتاة التي تدعى أمل والأطفال شعروا بالخوف مني ، بدئت أتحسس جروحي، أسترجع ذكرياتي معه ، وكيف كان لي خير صديق ورفيق، سوف أهرب ، أجل سوف أهرب لن أصبر أكثر من ذلك .....

لا أدري يا والدي إلى كم من الوقت سوف ابقى هنا ، هل سوف أسلخ حد الموت؟، أم أن حرب الأعصاب سوف تمارس قبل ذلك ؟....

لم تكن ليلة عادية، بل كانت ليلتي المقدسة، الليلة التي قررت فيها أن أسترد جسدي من قبضة الظالمين.

الجدران الصخرية التي امتصت صرخاتي لشهور لا بل لسبعة عشر عام كامل.

بدت الليلة وكأنها تنكمش لتعطيني مساحة للنهوض. لم أكن أهرب من أجل الحياة فحسب، بل كنت أهرب من فكرة أن أتحول إلى قطعة جلد مجففة، مصلوبة على حائط في متحف جيوفاني البشع.

كنت أقبع في زاويتي المعتادة، جسدي كأنه قطعة قماش بالية رُميت في ركن مهمل. راقبت من شق الباب الصغير حركة المدعو جيوفاني، سيد هذا الجحيم. رأيته يمر متكئاً على عصاه، يوزع أوامره على جورج وحسام، أولئك الذين نزعوا جلود الإنسانية ليرتدوا قناع الجلاد.

عندما ضرب جيوفاني الباب بيده وهو يضحك قائلاً:

نم جيداً يا بلال، فجلدك يجب أن يرتاح ليكون ناعماً تحت مبضع السلّاخ، شعرت بمرارة الغثيان، لكنها كانت المرارة التي أيقظت فيّ الوحش الكامن.

بعد رحيله، رأيت المعجزة حسام، الخادم الأخرق، أغلق الباب بإهمال. رأيت المزلاج الحديدي يئنّ، معلقاً على حافة الفتح، لم يدخل في قفله تماماً.

بدأت أطرافي ترتعش بشكل لا إرادي، وكأن الدماء التي تجمدت في عروقي بدأت تغلي فجأة.

وتحولت أنفاسي إلى شهيق قصير ومكتوم، خفت أن يسمع صدري الذي يقرع كطبلة حرب ، لم أنهض واقفاً، بل زحفت على بطني كأفعى جريحة، أتجنب أي احتكاك قد يصدر صوتاً فوق الأرضية الرطبة.

وقفت أمام الباب، تحسست وجهي بأصابع مرتجفة. لمست تلك الندوب الطولية والعرضية التي رسمها العابثون في كل مكان . همست لنفسي بصوتٍ مخنوق:

يا بلال.. أنت الآن في الخامسة والعشرين، لكن وجهك يحكي قرناً من العذاب وكأنك في الخمسين من العمر إذا خرجت، فهل سيعرفك والدك؟ هل سيعرف الأب ملامح ابنه من خلال ثقوب الجروح؟ أم سيتبرأ من بقايا الإنسان التي فيك؟

استجمعت كل قوتي في كتفي المخلوع، وضغطت على الباب.

الألم كان يمزقني، لكنه كان ألم ولادة بلال جديد، انزلق المزلاج بصريرٍ خافت كاد يوقف قلبي.

خرجت إلى الممر المظلم، كانت الرائحة هناك مزيجاً من العفن والموت القديم. كان عليّ تجاوز غرفة الحراسة للوصول إلى المطبخ ومن ثم المخرج الخلفي.

كان جورج يجلس في نهاية الممر، يغط في نوم عميق، وإلى جانبه زجاجة خمر نصف فارغة. حبست أنفاسي، وخلعت بقايا قميصي الممزق لألفّ بها قدمي الحافيتين لكي لا يصدر وقع خطاي أي صوت على الرخام البارد.

تسللت إلى المطبخ، يدي تمتد بتردد نحو سكين صدئة. لم أكن أريد القتل، كنت أريد فقط شيئاً يربطني بالحياة، شيئاً يخبرني أنني لست فريسة سهلة بعد الآن.

سمعت سعالاً مفاجئاً من غرفة الخدم القريبة. تجمدت في مكاني كتمثال صخري، ألصقت ظهري بالجدار البارد، وأغمضت عينيّ وأنا أتمتم:

يا رب، لا تتركني لهؤلاء الوحوش الآن، دعني أخرج لأرى الشمس مرة واحدة قبل أن أموت...

ثم بدأت أسمع.. وقع خطوات. لم تكن الخطوات الثقيلة المعتادة للحراس الذين يضربون الأرض بأحذيتهم العسكرية لإثارة الرعب، بل كانت خطوات هادئة، متزنة، تنسل عبر الممر الرخامي كأنها خيال يخشى إيقاظ الموتى. ومع كل اقتراب، كان قلبي يزداد خفقاناً حتى ظننت أن الشخص القادم سيسمع قرع طبوله في صدري.

في تلك البرهة، استيقظت في داخلي غريزة البقاء المتوحشة. لن أعود إلى القبو حياً، هكذا صرخت روحي. قررت أن أقتله، أياً كان هذا القادم، سأكتم أنفاسه قبل أن ينطق بكلمة واحدة تكشف مكاني. تهيأت للانقضاض، جمعت كل ذرات القوة المتبقية في جسدي النحيل، وضغطت على أسناني حتى شعرت بمرارة التعب.

وما إن ظهر خيال الشخص عند زاوية الممر، حتى انقضضت كالصاعقة.

كانت حركة خاطفة نابعة من يأس مطلق. ارتميت بكل ثقلي، وضغطت بيدي الخشنة على فمه بقوة، محاصراً جسداً ضئيلاً بيني وبين الجدار البارد.

شعرت بارتجاف العظام تحت قبضي، وكنت مستعداً لتوجيه ضربة قاضية، لكن بريقاً مفاجئاً في العينين اللتين اتسعتا أمامي أوقف زمني تماماً.

لحظة.....هذا ليس حارساً ضخم الجثة..؟!!.

ولا أحد من رجال جيوفاني القساة الذين لا يعرفون الرحمة؟!!.

كانت تلك الفتاة الجميلة أمل!

شعرت بجسدها الضئيل يرتجف بين يدي كعصفور بلله المطر في ليلة شاتية.

تلاقت أعيننا في ذلك الظلام الدامس، كانت عيناها تحكي ذعراً لا يوصف، لكنه ذعر ممزوج بدهشة عارمة. دقات قلبها لم تكن تنبض فحسب، بل كانت تطرق في أذني بوضوح مرعب.

خففت من قبضة يدي تدريجياً، وهمست في أذنها بصوت محشرج من الخوف والاعتذار:

أعتذر لكِ حقاً.. لا تصرخي، أرجوكِ، سأخبركِ بكل شيء.

تركتها، فتراجعت هي خطوتين للخلف، تسند ظهرها إلى الخزانة الخشبية القديمة، ويدها تمسح أثر أصابعي الخشنة عن فمها الرقيق. نزلت دمعة حارة من عينها، دمعة لم تكن من ألم الجسد بل من روعة الموقف وجلال اللقاء في هذا التوقيت القاتل.

وبحركة عفوية تنم عن عتاب رقيق، رفعت كفها الصغير وصفعتني بضربة خفيفة على كتفي، وهمست بصوت متهدج:

- اذا تفعل هنا يا بلال؟

لقد ظننتك نمت في القبو منذ ساعات؟.

كيف تجرأت على الخروج في هذا الوقت؟.

نظرت إليها بذهول، وحاولت استجماع شتاتي وأنا أراقب الممر خشية ظهور أي حارس فيقضي علينا نحن الإثنين:

- أنا من يحق له السؤال..

ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة المتأخرة؟

تجاهلت سؤالي لثوانٍ، وتوجهت بخطوات رشيقة نحو دولاب خشبي قديم كان يُستخدم لتخزين بعض المؤن، فتحته بحذر شديد وأخرجت منه قطعاً من الطعام كانت قد خبأتها بعناية فائقة.

اقتربت مني من جديد، وفي عينيها نظرة غريبة، نظرة بدأت تتغير من الذعر إلى شيء يشبه الانبهار.

مدت يدها برغيف خبز طازج لم يُفتح بعد، وقالت بهمس يملؤه الحنان:

- خذ هذا.. أنت تحتاج إليه ، وجهك شاحب كالموت.

أخذت الخبز منها بلهفة، وبدأت آكل بنهم لم أعهده في نفسي، كان طعم الخبز الممزوج برائحة يدها ألذ من كل موائد القصر الفاخرة الملوثة بالظلم.

سألتها وأنا أمضغ بصعوبة:

- هل تأتين كل ليلة لتسرقي الطعام؟

تغيرت ملامحها لغضب لطيف وقالت:

أنا لست بسارقة يا بلال.

ثم هزت رأسها بإيماءة خفيفة، وارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة لكنها دافئة:

- نعم أسرق ، لكنه من أجل الفتيات الصغيرات الجائعات في الداخل..

لكن أرجوك، لا تخبر أحداً، سميرة لن ترحمني إذا علمت !

نظرت إليّ بعمق، وكأنها تحاول قراءة صدقي، ثم أضافت بنبرة تتأرجح بين المزاح والجد:

- ما هو ضماني بأنك لن تخبر أحداً؟

هذا يُعد معصية في قوانين هذا القصر..

ثم أخبرني، ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟.

أخذت نفساً عميقاً، وقلت بصوت حازم:

- سأهرب الليلة يا أمل.. لن أبقى هنا دقيقة أخرى.

شهقت بصوت مسموع:

ماذا؟!

سارعت بوضع يدي على فمها مرة أخرى، لكن هذه المرة برفق شديد، تلامست أطراف أصابعي مع بشرتها الناعمة، فشعرت بكهرباء تسري في جسدي، لكنني قمعتها فوراً:

- أرجوكِ، اخفضي صوتكِ.. لقد خططت لكل شيء، وأطلب منكِ أن تأتي معي.. لنخرج من هذا السجن معاً.

تراجعت أمل، واضطربت دقات قلبها من جديد، لكن هذه المرة لم يكن اضطراب الخوف، بل كان شيئاً آخر، على الأقل شعرت أن دقات قلبها هذه هادئة رغم سرعتها .

نظرت إلى عينيّ، ورأيت في عينيها بريقاً من الرجاء، لكنها سرعان ما خفضت رأسها وقالت بمرارة:

- لا يا بلال.. سأكون عبئاً عليك، سأعطلك عن الهرب.

قلتها بإصرار:

- لن تعطليني!

أنتِ لا تستحقين البقاء في هذا المكان القذر.

وضعت يدها الرقيقة على يدي، كانت يدها باردة لكن لمستها بثت فيّ دفئاً عجيباً. قالت بنبرة ملؤها اليقين:

- اذهب أنت يا بلال.. اذهب وأحضر المساعدة. إذا هربنا معاً، قد نموت معاً، لكن إذا نجوت أنت، ستكون أملنا الوحيد.

الأطفال ينتظرون طعامي، لا يمكنني تركهم. اذهب، وتحرر، ثم عد من أجلنا جميعاً.

في تلك اللحظة، لم أرَ فيها مجرد خادمة، بل رأيت فيها بطلة ضحت بحريتها من أجل الآخرين. شعرت بقلبها يخفق بقوة تحت نظراتي، كانت عيناها تلمعان بإعجاب مكتوم لم تستطع إخفاءه، أما أنا، فقد امتلأ قلبي بتقدير لا يقل عن الحب طهراً.

أمسكت يدها، ونظرت في عينيها طويلاً، وقلت بصوت هز جدران قلبي قبل أن يخرج من فمي:

- أعدكِ يا أمل.. أقسم بخالقي، لن أتركِ هنا. سأعود، وسأحطم هذه الأبواب فوق رؤوسهم، ولن تشرق شمس الحرية عليّ وحدي، بل علينا جميعاً.

هزت رأسها وهي تمسح دمعة أخيرة، ثم بدأت تنسحب بخطوات هادئة، خطوات كانت تعزف لحن الوداع الممزوج بالأمل.

رأيتها تتجه نحو الممر المؤدي الى القبو المظلم تلتفت إليّ بين الحين والآخر حتى اختفت في العتمة.

توجهت نحو الباب الخلفي مسرعاً ،وقفتُ أمام البوابة الخلفية؛ المخرج الضيق الذي خُصص لكل ما هو فائضٌ ومنبوذ في هذا القصر.

كانت رائحة الصدأ العالقة على يديّ تمتزج برائحة الحرية البعيدة خلف الخشب المتآكل.

دفعتُ البوابة بكل ما تبقى لي من رمق، لا لأخرج جسدي النحيل فحسب، بل لألفظ من ذاكرتي كل سوطٍ وكل إهانةٍ نُقشت على جدران هذا السجن.

حين صرخت مفاصل البوابة الحديدية معلنةً عن حريتي، استنشقتُ هواء الشارع المرّ، فكان لصدري طعمُ الثورة. لم يكن السجن خلفي، بل كان قد استوطن في ذاكرتي ليكون وقوداً لما هو قادم.

دفنتُ بلال الضعيف في زاوية الزنزانة المظلمة، ومشيتُ نحو المدينة بخطواتٍ لا تسمع، لكنها ستزلزلُ قصور العابثين قريباً.

شعرت وكأن صدري يتسع ليحتوي السماء كلها، رئتاي اللتان اعتادتا غبار القبو بدأت تشتعلان ببرودة الليل، سقطت دمعة حارقة على جرحٍ مفتوح في وجنتي، لم أكن أبكي ألماً، بل كنت أبكي لأنني عدت للوجود ، لم أنظر خلفي.

بدأت أركض، والدم يقطر من جروحي ليرسم طريقاً من الياقوت على التراب. كانت الجرذان تفر من أمامي، وكأنها تعترف بسيادتي على هذا الليل.

نظرت إلى القصر نظرة وداع مسمومة؛ هناك تركت طفولتي وهناك تركت جلود أصدقائي. والآن، أنا بلال، أواجه العالم عارياً، مجروحاً، لكنني أخيراً.. حر.

كانت أنفاسي تخرج من صدري كحشرجةِ ذبيحة، وكل شهيق كان يغرس نِصال البرد في رئتيّ المنهكتين.

كانت يداي تلطمان الأغصان بعشوائية لتفسحا لي طريقاً، فترد عليّ الأشجار بخدوشٍ طويلة على ساعديّ. ،قدماي الحافيتان لم تعودا تشعران بالأرض؛ كنت أشعر فقط بوخزاتٍ حادة تخترق جلدي، وعندما غصت في

الوحل البارد، شعرت ببرودته تتسلل إلى نخاعي، مذكرةً إياي ببرودة طاولات السلخ التي نجوت منها للتو.

قلبي.. آه من قلبي، كان يضرب ضلوعي بقوة لدرجة أنني كنت أسمع صوته في أذنيّ، دُم.. دُم.. دُم، كأنه طبول جنازة تقترب.

☆ أمل ☆

كل ليلة، كنت أخرج من ذلك القبو اللعين ،كنت أعلم، بطريقتي الخاصة، أن القفل الصدئ لا يغلق تماماً، وأن هناك ثغرة تسمح لروح حرة بأن تتنفس وراء القضبان، منذ أن علمت بمثل هذا الأمر أصبحت أذهب كل يوم لأحصل على بعض طعام اللذيذ للأطفال الذين يتضورون جوعاً ، كنت أدعي النوم في ذلك القبو، أراقب ظل بلال وهو يتحرك بتململ، وأسمع أنات وجعه وألمه من تلك الضربات التي انهالت عليه، صوته كان يمزق نياط قلبي.

كم تمنيت في تلك الليالي أن أركض نحوه، أن أضع يدي على كتفه وأقول له: لست وحدك، في هذا العذاب ، كنت أسمعه وهو يحاول تعلم القراءة والكتابة بصوت خفيض مع العم مرزوق يتهجى الحروف بلكنة متعبة وصعبة. كنت أبتسم ؛ فقد كان يلفظ الكلمات بشكل خاطئ تماماً، وتختلط عليه الحروف. كنت أود أن أعلمه، فقد ورثت سر الحروف عن والدي الغالي فك الله أسره الذي علمني القراءة قبل أن تختطفه يد الظلم بتهمة لم يقترفها.

والدي.. يا الله، هل لا يزال على قيد الحياة؟

هل يرى الشمس التي أحلم بها؟ كنت أدعو له في سري، وأعود بنظري إلى بلال.

لقد رأيت فيه شيئاً لا يملكه أحد هنا؛ رأيت فيه رجلاً لا تكسره القيود، شجاعاً كبركان خامد ينتظر لحظة الانفجار. كنت أنتظره حتى ينام من فرط التعب، ثم أتسلل كقطة جائعة لأحضر الطعام للصغار، أخبئه بعناية ليتناولوه في الصباح الباكر، بدلاً من انتظار فتات رجال جيوفاني الذين لا يعرفون الرحمة.

بينما كنت أخبئ أرغفة الخبز خلف بعض الصناديق القديمة، سمعت وقع أقدام ثقيلة، غاشمة، لا تشبه خطوات الخدم ولا خطوات بلال. تجمد الدم في عروقي. انبطحت أرضاً، وأغمضت عينيّ مدعية النوم العميق، وقلبي يقرع في صدري كطبل محموم.

دخل جيوفاني، كان يمر بيننا كأنه يستعرض مقتنيات في متحف، وليس بشراً من لحم ودم. كان يعدنا واحداً تلو الآخر بنظراته المقززة.

وفجأة، انشق سكون المكان بصرخة مدوية.. لم تكن صرخة ألم، بل صرخة أيقظت كل ذرة نائمة في القصر.

نهضت فزعاً مع الباقين، وكان وجه جيوفاني في تلك اللحظة تجسيداً للشيطان؛ كانت ملامحه ترتجف من الغضب اللقيط، وعيناه تشتعلان بحقد أسود.

خرج جيوفاني من القبو كالإعصار، وضغط على جهاز الإنذار. دوى الصوت في أرجاء القصر كأنه نذير القيامة. هرع حسام وجورج، يرتجفان أمام سيدهما. رأيت جيوفاني يقبض على ياقة قميص حسام، وجحظت عيناه كأنهما ستخرجان من محجريهما. وبدأ ينهال عليه بعصاه الآبنوسية الثقيلة، محطماً عظام كتفه بصوت مقزز، وهو يزأر:

- أيها الأخرق! ضاعت أغلى قطعة في مجموعتي!
- بلال ليس مجرد عبد، إنه تحفة هندسية صممتها بيدي.. ندوبه هي توقيعي الشخصي! إذا لم تأتِ به حياً وسليماً، سأنتزع جلدك أنت وأعلقه مكان لوحة العجوز الباكي في ردهتي!

انطلق حسام خارج القصر، يتبعه جورج وزمرة من الحراس المسلحين. رأيت الشرر يتطاير من عيني حسام؛ لم يكن خائفاً على خسارة جيوفاني، بل كان يتلظى بنيران كرامته التي سحقها جيوفاني بسبب هرب بلال.

رأيته وهو يمتطي حصانه بحقد، يهمس بكلمات مسمومة:

سأجعلك تتمنى لو أنك متّ في رحم أمك يا بلال.. سأريك ما معنى أن تهينني.

خيم الصمت على القبو بعد خروجهم، لكنه كان صمتاً مختلفاً هذه المرة. بدأ العبيد يتبادلون النظرات المذهولة. همست امرأة عجوز بصوت مرتعش:

- هل هرب حقاً؟ أين بلال؟.

رد شاب آخر وعيناه تلمعان ببريق لم أره من قبل:

- لقد فعلها.. بلال ليس هنا. لقد هرب!.

تصاعدت الهمسات كالنار في الهشيم:

- يا له من شجاع! فعل ما لم يجرؤ أحد منا على التفكير فيه.
- هل سيصل؟ هل سينجو من حسام؟.

في تلك اللحظة، ارتمى بين أحضاني طفلان صغيران، يرتجفان من صوت الإنذار ومنظر الدماء التي سقطت من كتف حسام. ضممتهما إلى صدري بقوة، ودموعي تنهمر بصمت. كنت أقبل رؤوسهما وأهمس لهما: لا تخافوا.. بلال ذهب ليحضر لنا المساعدة. بلال سيأتي بالخلاص.

كان قلبي يخفق بعنف، ليس خوفاً هذه المرة، بل فخراً بذاك الرجل الذي أودعت فيه سري ووعدي. كنت أنظر إلى الباب المفتوح، وأتخيله يركض تحت ضوء القمر، حراً كما ولدته أمه. شعرت بنبضات قلبي تهمس باسمه:

انجُ يا بلال.. من أجلنا، من أجل والديك، ومن أجل تلك الروح التي بدأت تحيا فقط لأنك مررت من هنا.

لقد كان بلال بالنسبة لي أكثر من مجرد سجين هارب؛ كان الأمل الذي ظننت أنه مات مع والدي، كان الشعلة التي ستأكل هذا القصر ومن فيه. كنت أعلم أن الطريق أمامه مرصوف بالموت، لكنني أثق أن رجلاً بقلب بلال لا يمكن أن يوقفه غبار الأرض.

☆_____ بلال _____☆

مزّق نباح الكلاب سكون الليل. كانت تقترب بسرعة، تقفو رائحة خوفي. خلفي رقصت أنوار المشاعل بين الأشجار كعيونٍ تترصدني.

خذلتني قدماي المرتجفتان فسقطتُ. اصطدم وجهي بجذع شجرةٍ صلب، واختلط طعم التراب في فمي بطعم الدم المالح. لم يعد هناك مجالٌ للهرب.

أحاطت بي الكلاب. ثلاثة وحوش بمئات الأنياب، يسيل لعابها على ثيابي الممزقة. وضعت يدي على السكين الصدئة، لكن أصابعي كانت مخدرة،

عاجزة حتى عن القبض على المقبض. وصلت المشاعل، وظهر وجه جورج وحسام من خلف الدخان.

ضحك حسام ضحكةً جافة، وبصق على الأرض .

- انظروا إلى ملمس جلده الآن.. لقد تفتحت مسامه من الرعب، هذا اللون الشاحب هو ما كان يريده السيد تماماً.. الألم يغير صبغة الجلد، يجعلها أعمق، أليس كذلك يا فناننا الصغير؟

توقفت عن ادراك ما يحدث حولي ، فأنا الان أستطيع أن أقول أنه لا فرصة اخرى لي للبقاء على قيد الحياة ،قيدوني بسلاسل باردة نهشت معصميّ، وسحبوني على الأرض الوعرة كأنني جيفة حيوان.

عندما دخلنا القاعة الكبرى، كانت سميرة تتجلى في ردهات القصر كطاووسٍ يقتاتُ على خيباتنا. عطرها الباريسي الثقيل كان يحاول خنق رائحة الخوف التي تفوح من ثيابنا المهترئة.

أمر جيوفاني بنقلي إلى قسم المتمردين، قسم لا يدخله الكثيرين،

قال جيوفاني وهو يدوس على رأسي:

- أتعلم يا بلال أنك ثاني شخص تدخل هذا القسم، ولأنني أعتقد أنك ورثت هذه شجاعة من سياطِ، فدعني أناديك ببني لثلاثة

مرات، ثم بعد ذلك سوف تعود إلى مكانتك الحقيقة، مجرد عبد قذر يجب أن يقتل.

ثم عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم وأكمل أذكر ذلك العجوز الذي يبلغ الأربعين حاول الهرب مثلك وتوجه نحو مدينة برلين وقدم مجموعة من الصور والأدلة ضدنا إلى قسم الشرطة ، لعله يستطيع أن يتحرر للأبد لكنني أمسكته وسجنته ، لكنه لم يستسلم.

رفع قدمه عن رأسي ، واتكأ على عرشه ونظر إلى وأنا أمسح الدماء عن وجهي بصمت ،وساد سكون ثقيل قبل أن يقطعه صوت جيوفاني المبحوح:

- هل تذكر ذلك الرجل الأربعيني يا حسام؟

ذاك الذي حاول تسلق السور في ليلة مطيرة، وظن أن الحرية تبعد عنه أمتاراً فقط، أذكر أن اسمه كان جاسر؟

نظر إليه حسام بعينين تلمعان، فتابع جيوفاني:

- بينما كنت أنت تراقب سقوطه من قبوك، وبينما كان الحراس يسلخونه ليعيدوه إلى وليمة التعذيب، كان هناك رجل آخر خلف حدود هذا القصر ، يغرق في هزيمته أخرى، المحقق هاتس .. الرجل الذي وهب وقته الثمين لفك شفرة هذه الغابة البشرية.

في اللحظة التي كان فيها ذلك الرجل الأربعيني يصرخ تحت سياط جورج، كان هاتس يضرب بقبضته على طاولة مكتبه في مديرية الأمن في برلين.

لقد كان يملك طرف الخيط، كان يعلم بوجود مزرعة البشر في قصري هذا، لكن القانون الذي يحميه كان هو نفسه القيد الذي يكبله.

في تلك الليلة تحديداً، فشل المحقق هاتس في استصدار أمر المداهمة؛ لأن جورج كان قد مد خيوطه العنكبوتية إلى رؤساء هاتس، أنفسهم في مركز الشرطة، فماذا فعل رؤساء هاتس يا حسام أتذكر.

قال حسام وهو يضحك:

ومن لا يعرف يا سيدي لقد أمروه بتعليق التحقيق وأغلق هذا الملف مرة وإلى الأبد .

أضاف جيوفاني بمرارة وهو ينفث دخان سيجارته:

- يا لسخرية القدر.. كان هاتس يكتب تقريره الأخير معلناً فشل التحقيق وإغلاق الملف لعدم كفاية الأدلة، وفي نفس الثانية، كان جورج يغرز نصله في صدر الرجل الأربعيني ليُنهي حياته.

أتعلم يا بني لو أن هاتس صمد دقيقة واحدة أخرى، أو لو أن ذلك الرجل تأخر في هربه قليلاً، لربما تغير التاريخ.

وعذبته يا بلال حتى سئمنا من تعذيبه، ثم سحبته ورميته في نفايات مدينه بعيدة من هنا تدعى برلين وأنت اذهب أيها العبد القذر لتذوق ما كتب لك هناك حيث لا يُسمع صوتك ، لا يسمع إلا صرير الحديد وصرخات مكتومة.

☆_____ بلال _____☆

بدأوا تعذيباً لم تشهده البشرية ،نزعوا ما تبقى من قميصي، لم يكن جورج يفرك ظهري بالملح والحديد، كان يعيد رسم خريطتي الشخصية بنارٍ لا تنطفئ.

كل حبة ملح كانت صرخة مؤجلة، وكل برادة حديد كانت مسماراً يدق في تابوت طفولتي.

أما سميرة.. فكانت تقترب بمبضعها كأنها تبحث عن الروح لتقتلها لا اللحم.

همست لي:

أريد أن أرى نبضك.

ولم تكن تعلم أن قلبي قد توقف عن النبض منذ زمن، وما تراه ليس إلا انتفاضة الذبيحة التي قررت أن تعود من الموت لتصبح هي الجزار.

كنت أصرخ حتى انقطع صوتي، صار عويلي مجرد حشرجةٍ تخرج من حنجرةٍ محترقة. نظرت إلى جلود رفاقي المعلقة حولنا، خُيل إليّ أن عيونهم الميتة تبكي معي، يهمسون لي:

اصمد يا بلال.. الموت قريب، والحرية في القبر.

عندما توقف جسدي عن الاستجابة، وسال دمي ليغطي أرضية القاعة، ظنوا أنني فارقت الحياة. انحنى حسام، وبصق في عيني المفتوحة بنظرة خاوية، وبدئت سميرة تجهز الأدوات لبدأ سلخي .

خطا جيوفاني نحو بركة الدماء التي كانت تغمرني، نظر إليّ لا باحتقار الضعيف، بل بقرفِ من يرى تحفةً فنية قد شوهها الهواة.

كانت عيناه تقرآن ندوبي كأنها شيفرة سرية. قال بنبرة جليدية هزت أركان القاعة:

- يا أغبياء، لقد أفسدتم اللعبة.. وضعتم من الألم ما لا يطيقه اللحم، فحولتم هذه الضحية إلى أسطورة ، خذوه.. ارموه في مكب نفايات برلين البعيدة، دعوا القاذورات تحتضن بقاياه..

حملوني كأنني كيس نفايات، وشعرت بجسدي يرتطم بقاع الشاحنة بين القاذورات والروائح العفنة. بينما كانت الشاحنة تبتعد عن القصر، فتحت عينيّ بصعوبة.. رأيت النجوم لأول مرة بعيداً عن قضبان القبو.

بكيت بصمت، بكيت لأنني رغم كل هذا الوجع، كنت الوحيد الذي خرج بجلده من ذلك الجحيم، ثم اخشى على من تعب ولا أذكر ما حدث بعد ذلك.

الفصل التاسع:

بنيتُ من شظايا قلبي المحطم درعاً، ومن صرخاتي المكتومة سيفاً؛ فمن قال إنّيَ الوحيدَ أعزل؟؟

كانت برلين في تلك الليلة تشبه مريضاً في غيبوبة؛ الأضواء باهتة، والشوارع مبللة برذاذ لم يكن مطراً بقدر ما كان دمعاً بارداً للسماء. في شارع "كورتفورستيندام"، حيث تتلاصق البنايات التاريخية التي شهدت حروباً وانكسارات، كانت البناية رقم اثنا عشر تقف بشموخ كئيب.

خلف نوافذ الغرفة رقم ٢٣٧، كانت رائحة الموت تفرض سطوتها، والدم يصبغ السجاد الفارسي العتيق بلون قرمزي داكن، يتمدد ببطء ليلتحم مع سواد الليل.

اقتحمت قوات الشرطة المكان، وبدأوا عملهم بوضع الشريط الأصفر الذي عزل الجريمة عن العالم، محولين الغرفة إلى مسرح لمأساة صامتة. اقترب المحقق هاتس من الجثة بخطوات وئيدة، كان رجلاً يقرأ الجرائم كما يقرأ الفلاسفة الكتب؛ لا تهمه الطعنات بقدر ما تهمه النوايا. كانت الفتاة، التي لم تتجاوز العشرين، ممددة كتمثال من الرخام، عيناها المفتوحتان تعكسان دهشة أخيرة، وكأنها لم تصدق أن يد الموت قد تمسك بها في ذروة شبابها.

جسدها كان بارداً كقطعة ثلج، بينما الهواء في الغرفة كان ساكناً لدرجة مرعبة، حتى أن دخان سجائر رجال الشرطة المتعبين كان يتراكم فوق رؤوسهم كغيوم رمادية ثقيلة، تأبى التبدد.

انحنى هاتس، وضيق عينيه خلف نظارته الطبية. حول عنق الفتاة، كان هناك شريط حريري قرمزي، عُقد بمهارة هندسية لا تترك مجالاً للصدفة. لم يكن الخنق عشوائياً، بل كان بمثابة توقيع تركه القاتل ليثبت شيئا لم يعرف بعد ، تأمل هاتس العقدة، وتذكر جريمة مولر قبل أسبوعين...

أغمض هاتس عينيه للحظة، محاولاً عزل ضجيج المحققين في الغرفة 237، لينتقل بذاكرته إلى الخلف، إلى تلك الليلة المظلمة قبل أسبوعين. كانت الذاكرة حادة كسكين، والمنظر لا يزال عالقاً في شبكيته.

في إحدى الزوايا المعتمة لمصنع منسوجات مهجور، عُثر على أوتوا مولر مقتولاً.

كان مولر رجلاً في الخمسين من عمره، يعمل مراقباً في محطة القطارات المركزية؛ رجلٌ كان رويتنه اليومي منضبطاً كالساعات السويسرية التي يراقبها. كان يخرج من نوبته في منتصف الليل، يسلك المسار ذاته، يشتري جريدة الصباح من الكشك نفسه، ثم يختفي في دهاليز الشوارع الجانبية المؤدية لبيته. لكن في تلك الليلة، لم يعد مولر إلى بيته أبداً.

حين وجده هاتس، كان مولر جالساً على كرسي خشبي قديم وسط قاعة المصنع الفارغة، وكأنه ينتظر قطاراً لن يأتي. لم يكن هناك دماء، ولا صراع، ولا فوضى. كان المشهد يفيض برهبة الصمت.

يدا مولر موضوعتين على فخذيه بوقار مريب، وحول معصمه الأيمن، كان هناك شريط حريري أصفر فاقع، مربوط بعقدة متقنة تشبه تلك التي تُربط بها الهدايا الفاخرة.

تذكر هاتس كيف انحنى حينها ليفحص المعصم، ليجد أن القاتل لم يخنق مولر بالشريط، بل استخدمه كعلامة. كان مولر قد مات بجرعة دقيقة من مادة مخدرة شلت عضلة قلبه، لكن الشريط الأصفر كان هو الرسالة.

الأصفر في لغة السير يعني الاستعداد أو التمهل والحذر قبل الوقوف ، وبعد عديد من التحقيقات في مكان الجريمة، وجد محقق هاتس شئ أثار تفكيره وحيرته، وهو أن القاتل قد ترك ساعة جيب مولر مفتوحة بجانبه، وكانت تشير إلى توقيت غير دقيق، وفي جيب معطف مولر، عُثر على تذكرة قطار لم تكن وجهتها بيته، بل كانت وجهتها محطة كورتفورستيندام.. المحطة التي تسكن بجانبها إلسا، وهي الضحية الممددة الآن أمامه بالشريط الأحمر.

لقد كان القاتل يمهد الطريق؛ بقتله مولر ويضع شرط الأصفر ليعلن عن الاستعداد للجريمة الكبرى، ثم قتل إلسا ووضع شريط الأحمر ليعلن عن التوقف المؤقت لتفكير بجريمة متقنة أكتر من هذه.

فتح هاتس عينيه فجأة، وعاد إلى واقع الغرفة 237. نظر إلى جسد إلسا البارد وأدرك أن القاتل لا يتحرك بشكل عشوائي، بل يتبع تسلسلاً زمنياً دقيقاً.

مولر كان مجرد إنذار، وإلسا كانت النهاية لهذا الفصل فقط وربما سوف يكون هنالك ضحية .

همس هاتس بصوت أجش، مخترقاً صمت الضباط الذين كانوا يفتشون الأدراج بآلية رتيبة:

- الأحمر هنا ليس مجرد دم، إنه علامة لإحدى إشارات المرور..

بدأ التحقيق ينسج خيوطه الدقيقة. لم تكن هناك آثار لكسر القفل، مما يعني أن القاتل يمتلك مهارة الشبح، أو أنه ضيف رحبت به الضحية، قبل موتها ، أي أنها كانت بصلة ومعرفة منه ، على المنضدة، كانت هناك ساعة يد صغيرة محطمة، توقفت عقاربها عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، لكن هاتس لاحظ شيئاً لم يلاحظه غيره؛ الغبار الذي غطى وجه الساعة كان أقل كثافة من الغبار المحيط بها، مما يوحي بأن القاتل هو من ضبط العقارب ثم حطم الزجاج ببرود، ليضلل توقيت الجريمة.

كان رجال الشرطة يتنقلون بحذر، يشعرون بوطأة الفشل؛ فالقاتل يتسلل إلى أكثر البيوت تحصيناً، يدرس روتين ضحاياه بدقة الجراح. كان يعلم أن إلسا الضحية تخرج كل ليلة في تمام العاشرة لتنزه كلبها، ويعلم أنها تترك نافذة المطبخ مواربة للتهوية.

فتح هاتس حقيبة الضحية، ووجد فيها تذكرة مترو مستخدمة قبل ساعتين من وقوع الجريمة. دقق في تفاصيل التذكرة، ثم نظر إلى الشريط الأحمر حول عنقها. فجأة، بدت الصورة تتضح في ذهنه كقطع بازل بدأت تترتب؛ القاتل لا يختار ضحاياه عشوائياً، بل يختارهم بناءً على رحلاتهم اليومية، وكأنه يراقب تدفق البشر في شوارع برلين كمن يراقب حركة السير من برج مراقبة، يوزع ألوانه الأخضر لأصفر، الأحمر ليتحكم في مصائرهم.

ساد التوتر بين أفراد الفريق؛ فالبرودة التي اتسم بها مسرح الجريمة لم تكن برودة جو، بل برودة عقل إجرامي يتلذذ بالتحدي. وفي زاوية الغرفة، بعيداً عن أعين المصورين الجنائيين، لمح هاتس خيطاً صوفياً صغيراً عالقاً بحافة السجادة، لم يكن لونه أحمر، بل كان أخضر فاقعاً.. وكأنه نذير بالجريمة القادمة، أو دعوة للمطاردة.

- رفع هاتس رأسه نحو الدخان المتراكم، وقال بنبرة هادئة أخافت الحاضرين: إنه لا يقتل ليهرب.. إنه يقتل ليحكم السيطرة على المدينة. لقد أعطانا الأحمر الليلة، والأصفر قبل أسبوعين وسيبدأ غداً بالبحث عن اللون الأخضر.

أشعل هاتس سيجارة جولواز رابعة، متجاهلاً لافتة ممنوع التدخين التي كانت معلقة بخجل على جدار الممر الضيق.

وسط الزحام الروتيني لرجال المختبر، برزت قامة طويلة لشاب يرتدي معطفاً مطرياً باهت اللون، كان يقف عند مدخل البناية، وعيناه لا تزيغان عن باب الشقة ٢٣٧.

كان هذا يوهان ، جار الضحية في الشقة المقابلة، وعازف تشيلوا في أوركسترا برلين المتعثرة. لم يكن يوهان يبكي، بل كان يرتجف ارتعاشاً خفياً، كتلك الأوتار التي يعزف عليها.

لم يندفع هاتس نحوه، بل سار ببطء مريب، متبعاً أسلوبه المعتاد في استدراج الفرائس بالهدوء. وقف بجانبه، ونفث الدخان في الهواء الساكن، ثم قال بنبرة بدت وكأنها دردشة عابرة عن الطقس:

– "موسيقاك لا تليق بهذا الرذاذ، أليس كذلك يا سيد ؟"

ارتبك الشاب، وتلعثم صوته:

– أنا.. أنا لم أكن أعزف. لقد سمعت الجلبة، وأتيت لأرى ما الأمر .

ثبت هاتس نظراته على يدي يوهان. كانت أصابعه طويلة، دقيقة، وقوية؛ أصابع قادرة على عقد شريط حريري بتلك المثالية الهندسية، أو خنق حياة

دون إحداث جلبة. لاحظ هاتس شيئاً آخر؛ تحت أظافر يوهان كانت هناك آثار مادة بيضاء باهتة، بدت كأنها بقايا صمغ أو شمع.

تابع هاتس وهو يقترب منه لدرجة أصبح فيها يوهان يشتم رائحة التبغ والقهوة المرة المنبعثة من معطف المحقق:

- أخبرني يا يوهان إلسا كانت تحب الموسيقى، أليس كذلك؟

لدرجة أنها كانت تترك بابها مواربا لتسمع معزوفاتك في المساء.. تماماً في الساعة الثامنة والربع؟

شحب وجه يوهان، وتراجعت خطوة للخلف. كيف عرفت التوقيت؟

الساعة في الداخل توقفت عند هذا الوقت، قال هاتس ببرود جليدي:

- لكن الغريب أنها لم تتوقف بسبب الكسر، بل صمتت كما يصمت الوتر حين يُقطع. والآن، لماذا أرى في جيب معطفك شريطاً مطاطياً أصفر اللون، يشبه تماماً الشريط الذي وجدتها في مسرح الجريمة مولر.

لم ينتظر هاتس رداً، بل مد يده وبحركة سريعة ومفاجئة، سحب طرف خيط صوفي كان عالقاً بياقة معطف يوهان. كان خيطاً أصفر فاقعاً، الشريط الذي لُف حول معصم مولر.

ساد صمت ثقيل في الممر، لدرجة أن صوت قطرات المطر على النافذة أصبح كدقات طبول الحرب. شعر رجال الشرطة بالتوتر، واقترب كورت هو ضابط عالي المستوى، ليضع يده على غمد مسدسه. لكن هاتس ظل هادئاً، يفرك الخيط الأصفر بين سبابته وإبهامه.

همس هاتس:

- يوهان أنت لا ترتجف لأنك خائف من الشرطة، بل لأنك تشعر بالنشوة كونك جزءاً من هذا العرض ،أخبرني، هل أعطاك هو هذا الخيط كعربون صداقة؟ أم أنك كنت تراقبه وهو يغادر شقة إلسا ولم تنطق بكلمة، أم أنك من قتلت إلسا.

انهار يوهان فجأة، ليس بالاعتراف، بل بالبكاء الهستيري، وسقط على ركبتيه متمتماً بكلمات غير مفهومة عن الرجل الذي يرتدي ملابس المطر والإشارات التي لا تخطئ.

أدرك هاتس في تلك اللحظة أن يوهان ليس القاتل المتسلل، بل هو الشاهد الأسير الذي وقع تحت سطوة القاتل الحقيقي، أو ربما هو الإشارة الصفراء الجديدة التي وضعها القاتل في طريقه ليختبر ذكاءه.

سحب هاتس يوهان من ذراعه بحدة غير معهودة، وجره بعيداً عن صخب الفنيين إلى زاوية مظلمة في نهاية الرواق، حيث كانت رائحة العطن المنبعثة من

الجدران القديمة تملأ المكان. لم يكن هاتس يريد اعترافاً رسمياً بقدر ما كان يريد الرؤية التي سكنت عيني هذا الموسيقي المذعور.

قال هاتس بصوت منخفض وحاد كالنصل توقف عن النحيب مثل نساء، أنت تعزف التشيللو، وتعلم أن النغمة إذا فاتت لا تعود.

أخبرني عن رجل المطر متى رأيته؟ وكيف منحك هذا الخيط؟

رفع يوهان رأسه، وكانت عيناه محتقنتين بالدم، وصوته يخرج كحشرجة احتضار:

- لم يمنحني إياه يا محقق.. لقد تركه لي كرسالة. في الليلة التي قُتل فيها مولر في تيرغارتن، كنت عائداً من الأوبرا. رأيته واقفاً تحت عمود النور، لم يكن يرتدي معطفاً عادياً، بل كان يرتدي رداءً طويلاً واقياً من المطر، يلمع تحت الضوء كجلد الأفعى.
- لم أرَ وجهه، كان يضع قبعة فيدورا حافتها تغطي عينيه، لكنه كان يمسك بكرة من الصوف الأصفر.. يلفها ببطء، ببرود لا يتخيله عقل.

صمت يوهان ليلتقط أنفاسه، ثم تابع:

"الليلة.. قبل أن تقتحموا المكان بنصف ساعة، سمعت باب شقة إلسا يُغلق بهدوء. لم يكن إغلاقاً عنيفاً، بل كان لمسة رقيقة. نظرت من العين السحرية

لبابي. رأيت الظهر ذاته، الرداء اللامع ذاته. توقف أمام بابي للحظة، شعرت بأنفاسه تخترق الخشب. لم يطرق الباب، بل وضع هذا الخيط الأصفر في مقبض بابي ومضى.. كان يمشي بإيقاع منتظم، كأنه يتبع بندول ساعة خفي.

ترك هاتس ذراع يوهان، وشعر ببرودة تسري في عموده الفقري. لم يكن القاتل يهرب، بل كان يرسم مساراً. التفت هاتس إلى مساعده كورت، الذي كان يراقب الموقف من بعيد.

كورت! اترك الجثة الآن، واتصل بمركزي التحكم في حركة السير والمترو. أريد سجلات الموظفين الذين عملوا مع مولر والذين لديهم اشتراكات في أندية الموسيقى الكلاسيكية. القاتل يربط بين ضحاياه برباط خفي؛ مهنة الضحية الأولى الحركة، وهواية الضحية الثانية السكون.

بينما كان كورت يهرع لتنفيذ الأوامر، عاد هاتس إلى غرفة إلسا. انحنى فوق منضدة الزينة الخاصة بها، وبدأ يقلب في أوراقها الشخصية بدقة متناهية. وفجأة، وقعت عيناه على شيء جعل قلبه يخفق بشدة:

خريطة لخطوط مترو برلين، مرسوم عليها بدائرة صغيرة حول محطة حديقة الحيوان

تمتم هاتس وهو يمسح العرق عن جبينه :

الأصفر كان مولر التحذير، والأحمر كانت إلسا التوقف. الأخضر يعني الانطلاق للجريمة القادمة لن تكون في شقة مغلقة، ستكون في مكان مفتوح، وسط الزحام، حيث تنطلق الأرواح دون رادع.

نظر هاتس إلى ساعته، كانت تشير إلى الثانية صباحاً. أدرك أن القاتل المتسلل ليس مجرد مجرم، بل هو مهندس سير الموت في المدينة، وأنه الآن، في هذه اللحظة، ربما يقف في محطة ما، ممسكاً بشريط أخضر، ينتظر الضوء الذي سيسمح له بالعبور نحو ضحيته الثالثة.

خرج هاتس من البناية رقم اثنا عشر، وواجه رذاذ برلين البارد مرة أخرى. كان عليه أن يسبق رجل المطر إلى المحطة التالية، قبل أن تتحول الإشارة الخضراء إلى لون الدم.

الفصل العاشر :

أنا سندُ نفسي حين يميلُ العالم، وأنا النورُ الذي أتبعه حين تنطفئُ الثريات؛ أنا البداية، وأنا حتماً سأكون النهاية.

في تلك الليلة، لم تكن برلين ترزح تحت وطأة غيبوبة فحسب، بل كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة في صمت يسبق عاصفة هوجاء. وبينما كان المحقق هاتس يتأهب لسباق محموم مع الزمن، باحثًا عن قاتل متسلل يتربص بحديقة الحيوانات، كان القاتل، يرتدي معطف مطر بني يلف وجهه بالغموض، يقتنص فريسته التالية. وسط دوامة المرح في بيت الوحوش في حديقة الملاهي المجاورة لحديقة الحيوان، لمح فتاة في ربيعها الرابع والعشرين، تتراقص ضحكاتها مع صديقاتها. انتظرها، كصياد يترصد ظباءه.

وبينما كانت تحاول التمسك بظل رفيقاتها لتفادي الضياع في الزحام، انقض عليها القاتل كصاعقة، غرز إبرة الخدر في عنقها النحيل، لتختفي صرختها المكتومة تحت ضجيج الألعاب.

بالخارج، كانت سيارته تنتظره، وحينها، بخفة ريشة تداعب النسيم، وضع الضحية في صندوق سيارته وغادر مسرح الجريمة، كشبح لا يرى.

في قلب مكب النفايات المترامي الأطراف، حيث تتراكم فضلات الحضارة لتشكل جبالًا من الصدأ والنسيان، استيقظ بلال بعد خمسة أيام، وكأن الحياة تنتزع روحه من قاع بئر سحيقة.

انفتحت عيناه الغائرتان لتصطدما بسقف من الصفيح المهترئ، يتسرب منه ضوء القمر الشاحب كأنه سائل فضي ملوث، يروي حكايات الأشباح.

كان مستلقيًا على فراش قذر، تفوح منه رائحة الرطوبة والعفن، وبجانبه رجل عجوز، وجهه خريطة لتضاريس الهموم، تفوح منه رائحة التبغ الرخيص وقذارة السنين، وجسده يئن من آثار ضرب مبرح. قضى العجوز الأيام الخمسة الماضية في تضميد جروح بلال بخرق بالية وأعشاب برية، وكأنه يرمم تمثالًا حطمته العواصف.

تحرك بلال، فشعر بألم يمزق أحشاءه، ذكرى حية للتعذيب الذي ناله على يد رجال جيوفاني.حاول النطق، لكن العجوز أسكته بإشارة حازمة من يده المرتجفة.

همس العجوز بصوت يشبه حفيف الورق اليابس، والخوف يلمع في عينيه كبريق سكين:

- "استيقظت أخيرًا أيها الشقي، اسمعني جيدًا.. جروحك التأمت، وقوتك عادت، لكن وجودك هنا هو موتي المحقق. غادر هذا المكان الآن. لا أريد رؤيتك، ولا تخبر أحدًا أنني أتنفس. إذا علم جيوفاني ورجاله أنني ما زلت على قيد الحياة، فسيجعلون من هذا المكب مقبرة جماعية لنا جميعًا.
- ارحل.. ارحل الآن، وأنت مدين لي بأنك ما زلت على قيد الحياة. وهذه الأوراق تحتوي على هوية مزيفة لشخص مات منذ زمن،

خذها وعش ما تبقى لك من حياتك ، لكن صورة الهوية مفقودة فلتضع صورة لك مكانها ، والآن فقط أطلب منك فقط ألا تخبر أحدًا أنني هنا. ابتلع هذا السر هنا قبل أن تغادر."

شعر بلال بغصة في حلقه؛ كان يرى في عيني العجوز مزيجًا مرعبًا من الطيبة المتآكلة والذعر الذي لا يرحم، لربما هذا الرجل الذي تكلم عنه جيوفاني ، المتمرد الأول، لم ينطق بكلمة، هز رأسه بخضوع شاكرًا له على ما فعله، وسحب جسده النحيل، وخرج من الكوخ المتهالك يجر أذيال انكساره.

لكن مع كل خطوة يخطوها بعيدًا عن الفراش القذر، كان يشعر ببرودة الهواء تملأ رئتيه بحرية مرة المذاق، حرية ولدت من رحم الموت.

وأخيرًا حصل على الحرية التي تمناها، رائحة الهواء، على الرغم من قذارتها، كانت جميلة جدًا بالنسبة لبلال، كأنها أنشودة الخلاص من ذاك .

بينما كان بلال يتجول بين تلال النفايات، باحثًا عن مخرج من هذه المتاهة المعدنية، كانت هناك سيارة سوداء تقف ببرود جثامي عند حافة المنحدر. انفتح الصندوق الخلفي، وخرج منه رجل المطر، القاتل المتسلل الذي كان المحقق هاتس يبحث عنه في الجانب الآخر من المدينة.

كان يجر خلفه فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، التي اختطفها من حديقة الملاهي كأنها فريسة شاردة. كانت الفتاة، تدعى سارة، منهكة، صراخها جف في حنجرتها ولم يبقَ منه إلا أنين مكتوم خلف الشريط اللاصق.

توقف القاتل في بقعة مكشوفة تحت ضوء عمود إنارة وحيد يتأرجح. أخرج من جيبه شريطًا حريريًا أخضر اللون، زاهيًا ومنطلقًا كالحياة التي يوشك على إنهائها. بدأ يلف الشريط حول يده ببطء طقسي، وعيناه تلمعان ببرود ذهاني، مستعدًا لإعطاء الإشارة الخضراء لروح سارة كي تغادر جسدها.

من خلف كومة من الإطارات القديمة، كان بلال يراقب. رأى المشهد بوضوح؛ القاتل يضع يده على عنق الفتاة، والشريط الأخضر يلمع كأفعى سامة. في تلك اللحظة، لم يشعر بلال بالخوف؛ فمن عاش أكثر عشرين عامًا من اليتم والتعذيب والقهر، كان قد نزع منه شعور الخوف إلى الأبد.

بيدين اعتادتا على نبش الركام، التقط بلال قضيبًا حديديًا مدببًا، نتاج حطام آلة قديمة. تحرك كقارض ماكر، خفيفًا، صامتًا، منغرسًا في الظلال، وكأن الأرض نفسها تبتلعه ثم تلفظه في وجه الظلم. حين رفع القاتل يده ليشد العقدة الخضراء، انقض بلال كأنه وحش خرج من قاع الأرض، لم يكن هجومًا طفوليًا، بل كانت ضربة مشحونة بكل سنوات اليتم والتعذيب والقهر، ضربة تحمل في طياتها صرخات العدل المكبوتة.

استقر القضيب الحديدي في ظهر القاتل، مخترقًا معطفه اللامع والقلب البارد القابع تحته. سقط القاتل دون صرخة، كأنه كيس من الرمل المثقوب، وتناثر الشريط الأخضر في الطين ليصبح بلون القذارة المحيطة، كأن الحياة نفسها قد لفظت أنفاسها الأخيرة هناك.

التفت بلال نحو الفتاة. كانت تنظر إليه بذعر يفوق ذعرها من القاتل؛ رأت فيه شابًا بهيئة شيطان، يقطر منه الدم والصدأ، وكأنه خرج للتو من جحيم الصراع. مزق الشريط عن فمها بيديه المرتجفتين، وبمجرد أن شعرت بالحرية، صرخت صرخة مدوية وهربت في اتجاه أضواء المدينة البعيدة، دون أن تلتفت خلفها لتشكره، كأنها تهرب من كابوس لا يود أحد تذكره.

وقف بلال وحيدًا بجانب الجثة. نظر إلى القاتل الذي أرعب برلين، وجده مجرد جسد تافه أمام عظمة الموت.

سحب بلال الجثة وألقى بها في حفرة عميقة من النفايات ، ثم ألقى خلفها القضيب الحديدي بعد أن سحبه من جسده، وتذكرة حياته القديمة، وكل ذكرى لاسم بلال، رماها في تلك الحفرة العفنة.

همس لنفسه وهو يمسح وجهه بالماء المطر المنهمر من السماء، من الآن أنا لست بلال، يكفني ما ذقته من عذاب بسبب هذا الاسم، سوف أترك كل

شيء عرفته طوال حياتي من نعومة أظافري ،إلى مقتل هذا المجرم، هنا ولن أعود للبحث عنه أو أن أذكره مرة أخرى.

غير مشيته، ودفن معطفه القديم، ومشى باتجاه الأفق حيث بدأت خيوط الفجر الأولى تشق سواد برلين. لقد ترك وراءه جريمة لم يرتكبها، وبطلًا لن يعرفه أحد، وقاتلًا سيظل المحقق هاتس يبحث عنه في سجلات الأشباح إلى الأبد. كانت الإشارة الآن خضراء حقًا، لكنها لم تكن للموت، بل لرحلة بلال الجديدة نحو المجهول، رحلة لا يعلم أحد إلى أين ستأخذه، ولكنها رحلة بدأت بدم، وانتهت بحرية مولودة من رماد الماضي، كأن القدر نفسه قد قرر أن يفتح له صفحة جديدة، صفحة لم تكتب بعد.

في حديقة الحيوانات، كان المحقق هاتس يبحث عن أي خيط يوصله لذلك القاتل، مرت ساعات طويلة كأنها شهور، لكن لم يحدث شيء. لم يبلغ أحد عن فقدان أي شخص، ولم يحدث ما يعكر صفو المكان. لذلك سحب هاتس رجاله وغادر المكان متوجهًا نحو مركز الشرطة، لإكمال التحقيق في هذه القضية التي بدت وكأنها سراب، تاركًا خلفه لغزًا لا يملك مفتاحه، في مدينة تنتظر بفارغ الصبر أن تكشف أسرارها المظلمة.

تلك الليلة، برلين نفسها كانت تتنفس، ولكن برئة أخرى، رئة بلال، الذي وُلد من جديد بين أنقاضها، وموت قاتل كان يهدد أمنها.....

☆_____بلال_____☆

أخيراً يا والدي، تكسرت الأصفاد التي أدمت معصمي سنين عدداً.

لن أستيقظ بعد اليوم على صرخة سميرة التي تشق سكون الفجر، ولا على سياط جورج التي ترسم خرائط الوجع فوق ظهري، ولا ركلات ماجد التي استباحت وهني، أو تعذيب رجال جيوفاني وجنونه، سأحيا كما اشتهيتُ دوماً، وكما يليق بإنسانٍ خلق حراً.

لكن عليَّ أولاً أن أغسل عني قذارة السنين، أن أنبش عن شخص الذي ضاع مني في دهاليز الطفولة الموءودة.

سأركض في الميادين حتى تنقطع أنفاسي، سأبكي وأضحك بهستيريا لا تعرف القوانين، سأجوب شوارع المدينة طولاً وعرضاً، أمتص ضجيجها كأنه معزوفة سماوية. سأعمل في مهنةٍ إنسانية تشبه نقاء روحي، سأتذوق أشهى الموائد، وأحتسي خمرة الحرية حتى الثمالة.

سأتعلم.. أجل سأتعلم، سأفك طلاسم الحروف التي حُرمت منها، وسأسهر كما يسهر الشباب، وألهو في المدن الترفيهية حتى يخور جسدي من التعب اللذيذ. وحين أستعيد ذاتي الضائعة، حينها فقط ربما سأفكر في البحث عنكما، لا حنيناً، بل لأرى الندم في أعينكما.. أو ربما لا! لن أعود أبداً لسجنكما الذي بعتماني فيه كسلعة بخسة.

أنا حر الآن، لستُ قنّاً ولا متاعاً لأحد. أنا ملك نفسي، ويا له من شعورٍ باذخ لا يدرك إلا من ذاق مرارة القيد.

لم أكن أعرف عن نفسي سوى اسمي بلال، لذا اعتمدتُ تلك الهوية المزيفة التي منحني إياها العجوز المتمرد، والتي انتحلت بها شخصية شخص مات منذ زمن يدعى علي، أجل هذا إسمي الجديد يا والدي، وحملتُ في جيبي ما غنمته من أموال من القاتل قبل أن أُسلمه لمصيره المحتوم في أحواض الكيماويات.

دخلتُ صالون الحلاقة، فرأيتُ في مرآته وجهاً بدائياً يشبه وحوش الغابة؛ شعراً أشعث يغطي الملامح، وجسداً تملؤه الندوب والضمادات، ورائحةً تفوح منها مرارة التشرد.

استقبلني الحلاق بجفوةٍ واشمئزاز، لكنه استسلم لمهنته. ساعة كاملة والمقص يحفر في غابتي، والموس يزيل تراكمات البؤس. ثم دعاني للاستحمام وقدم لي ثياباً تليق بآدميتي.

حين نظرتُ إلى صورتي التي التقطها الحلاق لي قبل وبعد، لم أصدق أن هذا الفتى الوسيم الذي تلمع عيناه ببريق التحدي هو ذاته ذاك المتشرد، لربما مازال هنالك ندوب في وجهي لكنني سوف اخفيها ببعض المساحيق فيما بعد.

أخذتُ الصورة لأضعها على هويتي الجديدة، وحين مددتُ يدي بالمال، رفض الحلاق أخذه، كأنه يبارك ولادتي الجديدة. خرجتُ إلى الشارع، رأسي مرفوع كمنارة، وخطواتي ثابتة كأنني أمتلك الأرض ومن عليها.

بدأت رحلتي في البحث عن مأوى وعمل، لم يكن الأمر سهلاً، لكن إرادة الحياة كانت أقوى من كل العقبات.

استأجرتُ غرفةً صغيرة في علية بناءٍ قديم، كانت ضيقة لكنها بالنسبة لي أوسع من القصور لأن مفتاحها بجيبي. طرقتُ أبواب المكتبات والمطابع، حتى قبلني صاحب مطبعة عجوز لترتيب الكتب وتنظيف المكان. كانت رائحة الحبر والورق أول عطرٍ أضعه على جسدي.

كنت أستقبل خيوط الفجر الأولى بقلبٍ يخفقُ بلهفة، وأمضي نحو المطبعة حيث يعانق عبقُ الحبر رائحة الورق الصقيل، تلك الرائحة التي كانت بالنسبة لي عطرَ المعرفة الأشهى.

في فترات الهدوء التي يتخللها توقف الماكينات، لم أكن أركن للراحة، بل كنت أنزوي بين أكوام الأوراق، أستجدي كتب الأطفال لعلها تمنحني مفاتيح عالمٍ حُرمت منه طويلًا. كنت أرسم الحرف الواحد مئات المرات، أحفر شكله في ذاكرتي كما يُحفر النقش على الحجر، أراقب انحناءاته وأتأمل استقامته حتى يطاوعني القلم.

صحيح أن عم مرزوق علمي الحروف والطريقة نطقها إلى أنني كنت الفظها بشكل خاطئ وأخطأ في كتابة في كثير من الأحيان، لذلك عمد صديقي يوسف على تعليمي إياها من نقطة صفر.

كان زميلي يوسف هو المنارة التي تضيء لي عتمة الأمية. كان يجمعنا صمتُ المطبعة وضجيج الطموح، فيقول لي بابتسامته الواثقة:

"يا علي، انظر إلى هذا الحرف (ب)، إنه كالقارب الذي يحمل نقطة الأمل، تمامًا كما سنحمل نحن أحلامنا إلى الشاطئ الآخر."

كنت أردد خلفه بلسانٍ يرتجف تارةً ويستقيم تارة أخرى، أتعثر في مخارج الحروف فيضحك يوسف قائلًا:

لا بأس، فالحروف تُنطق بصعوبة في البداية، لكن النتيجة في النهاية لا يُنسى.

في تلك اللحظات، كنت أشعر ببركانٍ من الفرح ينفجر في صدري؛ فكل كلمة أتقنها كانت بمثابة قيدٍ ينكسر من أغلال عقلي. لم أكن أرى نفسي مجرد عامل في مطبعة، بل كنت أرى علي الطالب الجامعي المستقبلي، الذي سيحجز مقعده بجدارة بين النخبة والمثقفين.

لقد وهبني العمل في المطبعة أصدقاءً من نوعٍ خاص؛ فكل كتاب يمر تحت يدي كنت أصادقه، أتلمس غلافه وأعده بأنني سأقرأ ما في جوفه يومًا ما. كنت أتعلم بسرعة مذهلة، وكأن عقلي كان أرضًا عطشى تنتظر أول قطرة مطر.

ومع حلول المساء، كنت أهرع إلى صفوف محو الأمية، أسابق الزمن لأتخلص من ثوب الجهل. وبعد انتهاء الدروس، كنت أعتكف في مقهى شعبي بسيط، لا لأشرب الشاي فحسب، بل لأراقب حركة الشفاه وفنون الحديث لدى الناس، أمتص منهم بلاغة القول وعمق التعبير.

وعندما أوي إلى فراشي في نهاية اليوم، لم يكن النوم يزور جفني قبل أن أعانق كتابًا يناسب مستواي الجديد. أقرأ وأقرأ حتى يغلبني النعاس.

ثم أقبض على قلمي لأدون في مذكراتي كلماتٍ بسيطة لكنها عميقة المعنى حول جمال طعم الحرية.

كنت أكتب وأنا أبتسم، فالحرية لم تكن بالنسبة لي خروجًا من سجن، بل كانت خروجًا من صمت الكلمات إلى صخب المعرفة، ومن هامش الحياة إلى قلب المتن.

الفصل الحادي عشر:

يتحول العمر إلى عبء حين تكتشف أنك لا تعيش أيامك، بل تقضيها في انتظار لحظةٍ قد لا تأتي، لتثبت لنفسك أنك ما زلت بشراً.

في الجهة المقابلة من الحقيقة المرة، كان المحقق هاتس غارقاً في بحرٍ لجيّ من التساؤلات المريرة التي تلطم جدران عقله المنهك. كانت حديقة الحيوانات في برلين التي تظهر على شاشة المراقبة امامه في المخفر تقف كشاهد أخرس على ليلة لم ينم فيها القمر، مسيجةً بقضبان من الفولاذ والذكريات المؤلمة.

كان صمت الحديقة يضج بهزيمة منكرة لم يعتدها هاتس في مسيرته الطويلة؛ هل كانت استنتاجاته المنطقية محض أوهام نسجها خياله المتعب؟

أم أن القاتل ذو الشريطين الأحمر والأصفر، لم يكن مجرد مجرم تقليدي يترك خلفه أدلة ساذجة، بل كان شبحاً ساديّاً يتقن فن التلاعب بالعقول قبل أن يفتك بالأجساد؟ ، لربما هي مجرد تمويه فعله القاتل لتشويه الشرطة.

كان يشعر وكأن القاتل يراقبه من خلف الضباب، يبتسم بسخرية وهو يرى المحقق الأشهر في المدينة يتعثر في خيوط العنكبوت التي نصبها له بعناية.

بينما كان أعضاء الفريق الجنائي ينقبون بين الأقفاص الرطبة والممرات الضيقة، وعيونهم لا تفارق شاشات المراقبة التي تعكس صوراً مهتزة ومشوّشة بحثاً عن أي أثر لدمٍ جاف أو بقايا شريطٍ ملون يمنحهم طرف الخيط لحل القضية، اخترق سكون الرتابة القاتل رنينُ هاتف القسم. لم يكن رنيناً عادياً يشي ببلاغ روتيني عن سرقة أو مشاجرة، بل كان رنيناً يحمل في نبراته بحة الفقد ولوعة الانكسار التي تخترق الصدور.

جاء صوت المرأة من الطرف الهاتف مهتزاً، امرأة في أواخر الخمسين، لكن صوتها كان يوحي بأنها حملت هموم قرنٍ كامل على عاتقها في بضع ليالٍ. كان يرتجف كقنديل ضئيل يصارع ريحاً عاتية في زقاق مظلم:

ابنتي.. سارة.. غابت عن عيني منذ ثلاث ليالٍ، ولم يطرق بابي منذ رحيلها إلا الصدى الجاف.. أرجوكم، أتوسل إليكم، أعيدوا لي نبض حياتي قبل أن يتوقف قلبي.

في تلك اللحظة، انقبض قلب هاتس انقباضه آلمته؛ فصرخة الأم في أدبيات التحقيق ليست مجرد اهتزازات صوتية، إنها زلزال يضرب الجذور، يهدم جدران الصمت المهني البارد ويُعري عجزنا الإنساني أمام المجهول المخيف. في مدن عملاقة مثل برلين، حيث يبتلع الضجيج الأنين، لا يختفي الناس فجأة إلا إذا سقطوا في هوة مظلمة لا قرار لها. وبلا تردد، انطلق الفريق يصارع المسافات، مخترقين قلب المدينة نحو أطرافها النائية، حيث تسكن البيوت المتطرفة التي تحيط بها العزلة كوشاح ثقيل.

كان الطريق يمتد أمام سيارات الشرطة كأفعى سوداء ناعمة تحت سماء رمادية كئيبة، وكأن الطبيعة نفسها قررت أن تلبس ثوب الحداد تضامناً مع المأساة الوشيكة.

ساعتان من الصمت الثقيل داخل السيارة، لم يقطعهما سوى صوت المحرك ورائحة القهوة الباردة، قبل أن يلوح العنوان المنشود في أفق الضواحي الشاحبة. كان هاتس يراقب الأشجار العارية على جانبي الطريق، وهي تبدو في نظره كأصابع استغاثة تخرج من باطن الأرض، وكان يفكر في سارة؛ تلك الشابة التي كانت قبل أيام تحلم بالمستقبل، والآن ربما هي محتجزة في مكان ما، تعد الثواني المتبقية من عمرها.

هناك، في ذلك المنزل الذي تفوح منه رائحة الحزن، كانت الأم تجلس كتمثال من الملح فوق أريكة متهالكة، تعصر كفيها بيأسٍ كأنها تحاول استخراج الصبر من بين أصابعها. وفي زاوية الغرفة، كان طفلها الصغير يلهو بقطار خشبي في عالم براءته المطلقة، غير مدرك أن غيمة سوداء سامة قد جثمت فوق سقف منزلهم، وأن أخته التي كانت تغني له قبل النوم قد باتت رقماً في ملفٍ مفقود.

ما إن لمحت السيدة الشرطة تقترب من عتبة دارها، حتى اندفعت نحو هاتس بجنون الغريق الذي يرى في القشة جبلاً.

تشبثت بياقة قميصه بقبضة فولاذية، وكأنها تمسك بالعدالة نفسها، وصرخاتُها تمزق هدوء الضواحي الرصين. كانت نوبة هلعٍ تكتسح كيانها، صدمة نفسية جعلتها ترفض فكرة أن ابنتها قد اختفت فعلياً، أو أنها أصبحت مجرد بلاغ

جاف يحمل رقماً متسلسلاً في ملفات الشرطة. كانت عيناها الجاحظتان تصرخان بالأسئلة التي لا يملك هاتس إجابة عليها:

- "أين هي؟ هل هي دافئة؟ هل أكلت شيئاً؟".

حاول هاتس تهدئتها، وضع يديه على كتفيها المرتجفين، وتحدث بصوتٍ منخفض يحاول من خلاله استعادة وقاره المهني المفقود:

- "سيدتي، أرجوكِ.. أنفاسكِ المتقطعة ودموعكِ لن تعيد سارة الآن. نحن بحاجة للقوة. أخبريني بالقصة، كلمة بكلمة، ثانية بثانية.. لعلنا نجد في طيات كلامك الخيط الرفيع الذي سيوصلنا إليها.

داخل الصالة المتواضعة التي كانت جدرانها تروي قصص الكفاح من أجل لقمة العيش، وبجانب ضابطين شابين يدونان كل حركة وسكنة، بدأت الأم تسرد حكايتها بمرارة تذبح المستمع:

- "سارة.. ابنتي الكبرى، هي زهرة الرابعة والعشرين التي تفتحت قبل أوانها، وريحانة هذا البيت الموحش. كانت تدرس بجد في جامعة برلين في قلب المدينة.

وقبل أربعة أيام، طلبت مني إذناً لتنفض غبار الكتب والجامعة، أرادت أن تستعيد روحها المرهقة مع صديقات عمرها. سمحتُ لها، والقلب يرتجف خوفاً عليها من غدر الشوارع، بأن تقضي ليلتها عند صديقتها المقربة أحلام. لكن الفجر أشرق مراراً، وغابت شمسه مراراً، وسارة لم تطرق الباب، ولم ترن أجراس هاتفها.. اختفت وكأن الأرض انشقت وبلعتها."

صمتت الأم برهة، ثم أضافت بغصة خانقة:

- "اتصلتُ بأحلام.. كان ردها جافاً، بارداً كخريفٍ ميت لا حياة فيه. قالت باقتضاب إن سارة ليست عندها، ثم ودعتني ببرود وأغلقت الخط في وجهي، تاركة إياي مع صمت القبور."

تناول هاتس صورة سارة بعناية؛ كانت فتاة تشع بالحياة، عيناها مليئتان بالأحلام التي لم تتحقق بعد. أخذ رقم أحلام، وغادر المنزل وهو يحاول بث طمأنينة كاذبة في قلب تلك الأم المحطمة، واعداً إياها بأنه سيعيد نبض حياتها إليها مهما كلف الأمر. في طريق العودة، لم ينتظر هاتس الوصول للمكتب؛ اتصل بأحلام مراراً وتكراراً، وبعد محاولات مضنية ومستفزة، استجابت للهاتف بصوت يرتجف خلف ستار من التردد الواضح. وافقت على مقابلته في منزلها بعد أن شعرت بلهجة التهديد القانوني في نبرة صوته.

كان هاتس يحدث نفسه طوال الطريق:

"ليت هذا القاتل بعيد عن هذا الاختفاء.. ليت سارة مجرد فتاة هاربة أو متمردة.. فبرلين لا تحتمل رعباً آخر ينهش سكينتها، والوحش الذي نبحث عنه لا يترك ضحاياه أحياء ليقصوا القصص.

عند وصولهم إلى شقة أحلام، أمر هاتس فريقه بالبقاء في الظل، مراقبين المداخل والمخارج. طرق الباب بقوة، ليفتحه شاب في مقتبل العمر، يبدو عليه القلق، قادهم إلى صالة باردة الأجواء حيث ظهرت أحلام بوجه شاحب وعينين زائغتين. كانت الصالة تفوح منها رائحة السجائر والقلق، وأحلام تبدو كمن لم تذق طعم النوم منذ دهر.

"ماذا تريدون مني؟" قالتها وهي تشيح بوجهها، متهربة من نظرات هاتس الصقرية التي تخترق الأكاذيب.

سألها هاتس بحدّة هادئة، تلك الحدة التي تسبق العاصفة:

- "أين رأيتِ سارة آخر مرة؟ لا تكذبي يا أحلام، فحياة صديقتكِ معلقة بخيط رفيع."

أجابت بجملة وقعت كالصاعقة على مسامع المحقق، جملة جعلت الزمن يتوقف للحظة:

- "كنا في مدينة الملاهي الملاصقة لحديقة الحيوانات.. دخلنا بيت الوحوش معاً لنلهو.. دخلنا كشخصين، ولم تخرج سارة معي. انتظرتُها طويلاً عند المخرج، ثم ظننتها سئمت من المكان وعادت للبيت وحدها دون أن تخبرني.
- متى حدث هذا بالضبط؟ سأل هاتس وصوته يكاد يتلاشى من هول المفاجأة.
- قبل أربعة أيام، تقريبًا في الليل..

خرج هاتس من المنزل والعواصف تجتاح رأسه، والشعور بالذنب ينهش أحشاءه. لقد كان القاتل هناك! كان في ذات المكان الذي كانوا يراقبونه! صرخ في فريقه بمرارة الفشل التي طعنت كبرياءه:

- "انقسموا فوراً! فريق يمسح حديقة الحيوانات زاوية بزاوية، وفريق يستجوب كل بائع متجول في الشوارع المحيطة، أما أنا.. فسأعود إلى ذلك اللعين.. بيت الوحوش،

اعترض أحد الضباط بحذر:

- "لكننا راقبنا المكان طويلاً يا سيدي! لم نلحظ أي تحرك مشبوه!"

فانفجر هاتس في وجهه كبركان ثائر:

- "لقد فشلنا في المراقبة! أتفهم معنى الفشل؟ الفشل في عملنا لا يعني خسارة قضية، بل يعني إنهاء حياة! الفشل في إنقاذ روح بريئة هو بصمة عار لا تمحوها الأوسمة المعلقة على صدورنا، بل يغسلها الندم الحارق في جوف الليالي الطويلة! لقد كان الذئب يرتع في وسط حظيرتنا، يفترس ضحاياه تحت أنوفنا، ونحن نحرس الأبواب الخالية ببلادة! نفذ الأوامر فوراً! ولا تطرح أسئلة غبية أخرى!، فلست مستعداً لخسارة أنسان آخر في مدينة انا فيها.

وصل هاتس إلى مدينة الملاهي، كانت الأضواء الملونة تتراقص بشكل هستيري، وموسيقى الألعاب المختلطة بصراخ الأطفال تخلق جواً سريالياً يتناقض مع الموت الذي يطارد أثره. اتجه مباشرة نحو بيت الوحوش، ذلك المعلم القديم ذو الواجهة الخشبية المتآكلة التي تصور وجوهاً مرعبة بفكوك مفتوحة. كان المكان يبعث على القشعريرة؛ ممرات ضيقة، إضاءة خافتة جداً، وصوت ميكانيكي لآلات قديمة تصدر صريراً يشبه أنين البشر.

دخل هاتس الغرفة المخصصة للمراقبة، كانت الغرفة ضيقة وتفوح منها رائحة الأجهزة الإلكترونية القديمة والغبار. جلس خلف الشاشات الباهتة التي تعود لسنوات مضت، وبدأ يراجع تسجيلات الأيام الأربعة الماضية بصبر أيوب.

كانت الساعات تمر ببطء قاتل، وعيناه المحمرتان تلاحقان كل حركة. وفجأة، تجلى الكابوس بكل تفاصيله المرعبة.

ظهر القاتل في الساعة العاشرة واثنتين وأربعين دقيقة ليلاً. لم تكن ملامحه واضحة تماماً بفعل الضباب وكثافة الظلال وتدني جودة الكاميرات، لكن حضوره كان طاغياً، ثقيلاً كالموت نفسه. كان يرتدي معطفاً طويلاً داكن اللون، ويتحرك ببطء وثقة مرعبة. في زاوية مظلمة، قبالة مخرج بيت الوحوش المهجور تقريباً، شوهد وهو يجر جسداً هزيلاً مغشى عليه، لم يكن سوى سارة. كان يضعها ببرود أعصاب غريب داخل صندوق سيارته السوداء، ثم وقف لثانية واحدة، نظر نحو الكاميرا وكأنه يعلم بوجودها، وأطلق ابتسامة خفية لا يراها إلا من يبحث عن الشيطان.

- تجمدت الدماء في عروق هاتس وهو يشاهد تلك اللقطات. صرخ في نفسه: "أين كنا نحن من هذا؟ كيف عبر من تحت أعيننا؟" أسرع يبحث عن تلك السيارة في كل كاميرات الشوارع المحيطة.

رصدها وهي تخرج من البوابة الجانبية للملاهي، ثم تندمج في الزحام. كانت السيارة من طراز قديم، لوحاتها طُمست ببراعة باستخدام طين أو طلاء داكن. اختفت العربة في زحام الشوارع الكبرى، وكأنها تبخرت في هواء برلين المسموم، أو ابتلعتها الأرض .

استنفر الطاقم بالكامل، استدعوا قوات إضافية، فتشوا الكاميرات في كل تقاطع، المحلات التجارية، الأزقة المنسية، والمستودعات المهجورة في ضواحي برلين الصناعية. لكن القاتل كان قد خطط لكل خطوة ببراعة شيطانية تسبقهم بمراحل؛ كان يعلم مناطق الظل في تغطية الكاميرات، ويعرف كيف يتوارى في الزحام دون أن يثير انتباه أحد.

شعر هاتس بنار تحرق صدره؛ فالضحية الآن، في هذه اللحظة، بين مخالب الوحش الذي لا يرحم. ربما تكون صرخات سارة الآن هي الموسيقى الجنائزية التي يطرب لها ذلك المسخ في قبوٍ ما تحت الأرض، بينما هو، المحقق الذي يملأ صيته الآفاق، لا يملك إلا بقايا شريط ملون وصورة لفتاة ضاعت في زحام الغفلة المهنية.

أحياناً تكون الحقيقة ساطعة تحت أقدامنا، لكننا من فرط كبريائنا وغرورنا، نغرق في النظر نحو الأفق البعيد بحثاً عن تعقيدات لا وجود لها، فيسرقنا الواقع القاسي ونحن ننتظر معجزات لن تأتي.

عاد هاتس إلى مكتبه، ألقى بجسده المنهك على الكرسي، ونظر إلى الخريطة المعلقة على الجدار. كانت برلين تبدو له الآن كوحش عملاق من الإسمنت والحديد، يخبئ في أحشائه آلاف الضحايا، وهو مجرد إنسان يحاول أن يضيء شمعة في وسط إعصار.

وضع يده على جبهته، وأغمض عينيه، محاولاً تقمص شخصية القاتل: "أين ستذهب يا ذو الشريطين؟ أين ستخفي زهرتك الجديدة؟".

الفصل الثاني عشر:

في نهاية المطاف، لا يهم من الذي كان يمسك السوط ومن الذي تلقى الضربة؛ فالتاريخ لا يذكر إلا من حافظ على طهر قلبه وسط وحل الخطايا.

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، حين كانت المطبعة تبصق أولى أوراقها في وجه الفجر الشاحب. كان يوسف، بوقاره المعهود الذي يطغى على ثياب العمل الزرقاء، يمسك بلفافة ورقٍ تالفة، يضعها أمامي كأنها خارطة كنز ويقول بنبرة تملؤها النبوءة:

- "يا بلال، اليوم لن نطبع كتب الناس، سنطبع مستقبلك. اكتب هذه الجملة: الحق يعلو ولا يُعلى عليه".

كنت أنا، الذي صار يُدعى علي في رحلة التحول هذه، أمسك القلم بيدٍ خشنة أضناها العمل، تركت فيها الماكينات ندوباً تشبه تضاريس الشقاء. كنت أرسم الحروف ببطء شديد، كأنني أنحت صخراً، وأردد الكلمات بصوت متهدج، بينما يميل يوسف برأسه، يصحح لي انحناءة العين وشكل الراء، ويقول بابتسامة أبوية:

- "اجعلها واسعة يا علي، فالعين التي لا ترى الحرف بوضوح، لا يمكنها أن تدافع عن مظلوم؛ فالعدالة يا بني تبدأ من دقة النظر".

كان هذا طقسنا المقدس؛ وسط ضجيج المحركات الهادرة التي تزلزل الأرض، ورائحة الحبر النفاذة التي تغلغلت في مسام جلدي حتى صرت أشعر أن دمي صار أسود اللون، بقي يوسف يختبرني في قواعد النحو والصرف، وكأننا في

محكمة أدبية. وعند الاستراحة، وسط فتات الخبز وكؤوس الشاي المعتق، يخرج كتاب لي القانون المدني من جيبه كأنه أيقونة، ويقول:

"أريدك أن تقرأ هذا الفصل، تخيل نفسك تقف أمام القاضي، بظهر مستقيم وصوت لا يرتجف، وتلقي هذه الكلمات.. هذا هو عملي يا علي، وهذا هو حلمك الذي قلته لي".

مرت أسابيع طويلة جدا وأنا أصارع الوقت كغريق يتشبث بلوح خشب؛ أدرس بين أكوام الورق في المطبعة، وفي زوايا المقهى المكتظة بالدخان، وتحت ضوء الشارع الخافت الذي كان يترنح مع الريح. وحين اشتد عودي المعرفي، قررت خوض غمار الثانوية العامة.

لا أنكر أن الاختبارات كانت جبالاً من الأسئلة الصعبة، لكن يوسف كان ظلي الذي لا يغيب، يسندني بكل ما أوتيت يداه من قوة. كنت أطمح أن أكون نسخة منه؛ ذلك المحامي الذكي الذي يمتشق القانون سيفاً لينتزع حقوق المظلومين، وفي ذلك اليوم المشهود، يوم النتائج، ساد صمتٌ رهيب في أرجاء المطبعة، صمتٌ لم تكسره سوى خطوات يوسف وهو يدخل حاملاً ورقة مطبوعة، وكانت يداه ترتجفان فرحاً كغصن في عاصفة. صرخ بأعلى صوته حتى بحّ: "يا محامي المستقبل! لقد فعلتها!". ارتجف جسدي، وتوقفت الماكينات في أذني، قلت بذهول:

- "ماذا قلت؟ أعدها يا يوسف!"، فاحتضنني وهو يكرر:

- "لقد نجحت يا علي، لقد نلت الشهادة، سوف تصبح محامياً مثلي".

ارتميت في أحضانه، كانت الدموع تبلل قميصه الملطخ بالحبر، مزيج غريب من ملوحة الدمع وسواد المطبعة. قلت بصوت مخنوق بالامتنان:

- "لولاك يا يوسف، لبقيتُ مجرد آلة تطبع كلمات لا تفهمها، لخجلت من نفسي ومن قدري حقاً". مسح دموعه وقال:

- "الآن ستبدأ المهمة الأصعب، الجامعة تنتظرك يا بطل".

لم يكن الالتحاق بالجامعة سهلاً، فالتكاليف كانت جبالاً من الأعباء. لكن في صباح يوم التسجيل، وضع يوسف ظرفاً صغيراً في جيبي قائلاً:

- "هذه من شباب المطبعة، ومني شخصياً.. هذا ثمن أول قضية ستربحها لنا". يومها اشترى لي قميصاً أبيض ناصعاً بياض يسع بالحياة، وربطة عنق سوداء، وقال وهو يشد على كتفي:

- "أريدك أن تدخل الجامعة بهيبة المحامي، لا بهيئة العامل الذي أهلكه التعب". نظرت له بخجل، حبست دموعي عملاً بمقولة الرجال لا يبكون، وعانقته بقوة كدت أكسر بها أضلعه، ثم شكرت العمال الذين ربتوا على كتفي بأيديهم المتسخة بالحبر وقلوبهم الصافية.

اتجهت نحو الجامعة، أمشي بمشية تائهٍ وجد طريقه أخيراً؛ ظهري مفرود كمسطرة قانونية، وعينيّ تجوب الوجوه. كانت أسوار الجامعة العظيمة تشعرني بالرهبة، والطلاب يمرون من حولي بملابسهم الأنيقة وضحكاتهم المجلجلة، يتناقشون في الممرات العريضة تحت ظلال الأشجار الوارفة.

قارنت رائحة الكتب الجديدة في يدي برائحة الحبر القديم، فكان لكل منهما قدسية خاصة، دخلت أول محاضرة، جلست في المقعد الأمامي كجندي في الخندق الأول. دخل الدكتور، وبدأ يسأل الطلاب عن أسمائهم وطموحاتهم، وحين جاء دوري، وقفت بثبات الجبال وقلت:

- اسمي علي.

سألني الدكتور:

- "إذن يا علي، لماذا اخترت تخصص القانون؟".

تذكرت في تلك اللحظة وجه يوسف، وتذكرت الحروف التي رسمتها فوق الورق التالف، وقلت بصوت هزّ أركان القاعة:

- "لأنني تعلمتُ أن الكلمة التي تُكتب هي القوة التي تكسر الأغلال، وبأنه لا بد من إظهار الحق ومعاقبة الظالم. جئت إلى هنا لأتعلم أن الحرية ليست مجرد نص، بل هي انتزاعٌ للحق من بين براثن القوة،

ولأنني أريد أن أكون صوتاً لمن خنقهم الصمت خلف جدران المظالم".

صفق الطلاب بحرارة، وشعرت لأول مرة أنني لست ذاك العبد بلال العبد للآلات، بل أنا علي الحر الذي اختار مصيره.

أصبحت أوزع يومي بذكاء حاد؛ فجري في المطبعة، أشم رائحة الرزق وأساعد يوسف، وظهيرتي في قاعات العلم، أركض بين المحاضرات، أتعرف على زملائي، نضحك ونناقش القضايا، وفي المساء عدت للمطبعة لأحكي ليوسف عن عظمة اليوم ،كان جالسا على الأرض يقوم بحركات غريبة لم أعدها، وعندما أنه ما يفعله ، سألته ما هذا الذي تفعله يا يوسف، توجه نحوي مسرعاً ووضع يده على فمي وقال لي :

- بلال لا تخبر أحد بما رأيته ، أن علم صاحب المطبعة أنني مسلم سوف يطردني من هنا، لذلك أرجوك لا تفتح ولا تفكر بهذا مرة اخرى ، أما الان تعال لأريك كتاب قانون معقد جداً.

هززت رأسي بوعده أنني سوف ألتزم صمت، وقلت له محاول تخفيف حدته وإنفاله :

"اسمع يا يوسف، اليوم تعلمتُ مادة العقود، سأشرح لك كيف سنحمي حقوق العمال هنا مستقبلاً. يضحك يوسف ويهز رأسه فخراً بي يرى فيّ تلميذه الذي كان يتلعثم، وقد صار يناقش أمهات القضايا.

بعدها أعود لبيتي، أنظر إلى مرآتي، أرى رجلاً خلقه التعب وصقله العلم، وأنام بسعادة لا يضاهيها أي نعيم.

وهكذا تمضي الأيام، يغسل فيها ضياء العلم سواد القلب، ويبقى الحق شمساً لا تغيب مهما طال ليل المظالم، فالمسافة بين عاملٍ يطبع الكلمات ومحامٍ ينطق بها لم تكن إلا صرخة إرادة.

في صباح اليوم الثاني كان على أن أقوم بمرافعة أمام الجميع توجهت مسرعات نحو يوسف أخبره بأن يحضر لي هذا اليوم، لا أريد أن أكون وحدي في أول مرافعة، توجهنا نحو الجامعة مسرعين ، شعرت بتوتر مزق أطرافي ، وقلت :

- يا معلمي يوسف هل سوف أكون إنسان ناجح مثلك أنا متوتر، ماذا لو لم ينجح الأمر ، صفعني يوسف على كتفي وقال :
- أيها الأحمق لقد قدمت ثانوي وحصلت على شهادة وتعلمت القراءة والكتابة بفترة قصيرة جدا ، تقول لي الان بأنك لا تقدر يالك من أحمق، امشي أمامي امشي ، دعك من كلام الهراء الذي

لا فائدة منه، ولندخل قبل أن أضربك ضربة أقوى من ذلك ، وظل يردد أيها الأحمق أيها الأحمق .

كانت القاعة الكبرى في كلية الحقوق تضج بالحضور؛ أساتذة بوجوه صارمة، وطلاب يترقبون، وهيبة تملأ الأرجاء، يجلسون بشكل منظم مخيف جدا ، أقسم لك يا والدي أنني أشعر بضربات قلبي تخترق صدري.

وفي الصف الأخير، بعيداً عن الأضواء، كان يجلس يوسف. كان يرتدي بدلة قديمة بعض الشيء، لكنه كان يبدو كملكٍ يجلس على عرشه. كان ينظر إليّ بعينين تلمعان بفخر لم أره من قبل، وكأنه يرى ثمرة تعبه تنضج أمام عينيه، حضوره بنسبة لي كان يساوي الدنيا وما عليها ، لذلك يجب على أن أتشجع وأن أرفع رأس يوسف إلى سماء ....

حين نادى الحاجب:

- محكمة!، وقفتُ بكل ثبات. كنت أرتدي القميص الأبيض وربطة العنق التي اشتراها لي يوسف، وشعرت حينها أن القماش يشدّ أزري. نظرتُ إلى منصة القضاة، ثم نظرتُ إلى يوسف، لأعيد تركيزي وأشد عزمي، فأومأ لي برأسه إيماءة خفيفة، كانت تلك إشارة الانطلاق، المملوءة بثقة التي لم تمنحني إياها يا والدي .

بدأتُ مرافعتي بصوتٍ عميق، لم يعد ذلك الصوت المتلعثم الذي كان يقرأ الحروف ببطء في المطبعة. قلتُ والجميع ينصت:

- سيدي الرئيس، عدالة المحكمة الموقرة.. إن القضية اليوم ليست مجرد نزاع على ورق، بل هي قضية إنسان. لقد تعلمتُ في أروقة العمل قبل أروقة العلم، أن القانون ليس حبراً أسود على ورقٍ أبيض، بل هو الروح التي تعيد النبض للمظلومين.

استرسلتُ في شرح المواد القانونية، كنت أسرد النصوص وكأنني أقرأ من كتابٍ مفتوح أمام عيني.

استحضرتُ كل تلك الليالي التي سهرتها تحت ضوء الشارع، وكل نصائح و همسات التي همس بها يوسف في أذني بين ضجيج الماكينات. شعرتُ بحرارة الكلمات تخرج من قلبي، فالحق الذي كنت أكتبه على الورق التالف صار الآن حقيقة أدافع عنها بلساني.

حين وصلتُ إلى الخاتمة، قلتُ بنبرة هزت أركان القاعة:

- إن العدالة يا سيدي القاضي لا تكتمل إلا حين يشعر العامل في مصنعه، والفقير في كوخه، أن هناك قانوناً يحميه لا يفرق بين صاحب مالٍ وأجير. جئتُ اليوم لأقول:
- إن الحق لا يحتاج إلى صراخ، بل يحتاج إلى ضميرٍ يقظ وعلمٍ راسخ.

ساد صمتٌ رهيب للحظات بعد أن انتهيت، ثم انفجرت القاعة بالتصفيق. لم أهتم لدرجات الأستاذ ولا لثناء الزملاء، بل اتجهت عيناي فوراً إلى ذلك الرجل في الصف الأخير.

كان يوسف يمسح دموعه بطرف سترته، يبتسم بوجعٍ جميل، كأنه استعاد في تلك اللحظة كل سنوات شقائه، علمت حينها أنني نجحت في عينين استاذي يوسف ، شكرني القاضي وأمرني بالانصراف ،خرجتُ من القاعة، فوجدته ينتظرني عند الباب. حضنني بقوة حتى شعرتُ أن أنفاسنا امتزجت برائحة الحبر والنجاح. قال لي وصوته يرتجف:

- اليوم يا علي، نطق الحبر الذي علمته لك.. اليوم فقط، أستطيع أن أقول إنني طبعتُ أعظم كتاب في حياتي.. وهو أنت، أنا فخور بك لدرجة التي لا أستطيع شرحها.

بعد أيام جاء لي خبر أنني نجحت، أجل نجحت ، توجهت إلى يوسف وأخبرته بالخبر العظيم ، لو ترى يا والدي فرحته ، كاد أن يخشى عليه من شد الفرحة، كم تمنيت أن يكون لي عائلة تعاملني كما يعاملني يوسف الآن.

لم تكن لحظة تسلم رخصة مزاولة المهنة مجرد ورقة تُضاف إلى ملفاتي، بل كانت شهادة ميلاد ثانية لمحو سنوات التعب. وقفتُ أمام المرآة في ذلك الصباح، أعدل ربطة عنقي السوداء، لكن هذه المرة لم أكن في ممر الجامعة، بل كنت

أقف في وسط مكتبٍ تفوح منه رائحة الخشب الجديد الممزوجة برائحة الورق الفاخر.

على الباب الخارجي، كانت هناك لوحة نحاسية براقة تعكس ضوء الشمس، كُتب عليها بخطٍ عريض وواضح:

(المحامي علي... للاستشارات القانونية والمحاماة)

دخل يوسف المكتب، لم يكن يرتدي بدلة العمل الزرقاء، بل كان يرتدي بدلة رسمية تليق بوقاره. مشى ببطء، يلمس أرفف الكتب القانونية بيده الخشنة التي بدأت جروحها تلتئم، ثم توقف أمام اللوحة النحاسية ومسحها بطرف كمه بعناية فائقة، وكأنه يمسح الغبار عن حلمٍ قديم.

قلتُ له بصوتٍ يملؤه الوفاء:

- يا معلمي يوسف، هذا الكرسي الكبير الذي خلف المكتب ليس لي وحدي.. لولا تلك الجهود المضنية التي بذلتها من أجلي ، لما كنتُ اليوم هنا..

ابتسم يوسف، وجلس على مقعد الضيوف، وقال بنبرة مليئة بالهيبة:

- يا علي، لقد انتهى زمن الآلات التي تطبع ما لا تفهم والعلم الذي تحصل على قليل من الاجر منه ، اليوم أنت المحرك الذي يدير

موازين العدل. تذكر دائماً، هذا المكتب لم يُبْنَ من الطوب، بل بُني من عرق الجبين وصبر السنين ، ولا تناسني عندما تصبح شخصية كبرة غداً...

في تلك اللحظة، دخل أول زبون للمكتب، كان عاملاً بسيطاً يبدو عليه الانكسار، يمسك بيده أوراقاً مهترئة. نظرتُ إليه، فرأيتُ في عينيه صورتي القديمة، ورأيتُ في أوراقه تلك اللفافة التي وضعها يوسف أمامي لأول مرة. قمتُ من خلف مكتبي، ولم أنتظره حتى يقترب، بل ذهبتُ إليه وشددتُ على يده بحرارة.

نظرتُ إلى يوسف الذي كان يراقب المشهد وعيناه تفيضان بالرضا، وشعرتُ بأنني أخيراً أصبحتُ الحر الذي طالما حلمتُ به. لم أعد أخجل من ماضيّ، بل صرتُ أفتخر بأنني المحامي الذي يعرف قيمة الحرف لأنه تعلمه بمرارة، ويعرف قيمة الحق لأنه انتزعه من بين أنياب اليأس.

انتهت حكاية علي، لكن رحلة المحامي بدأت للتو.. ففي كل قضية يربحها، يثبت للعالم أن الحبر قد يلطخ الثياب، لكنه حين يمتزج بالإرادة، يغسل أوجاع المظلومين.

الفصل الثالث عشر:

نصبر لا لأننا أقوياء، بل لأننا لا نملك خياراً آخر سوى التلاشي أو الوقوف بانتظار معجزة.

كانت الردهات الطويلة في قسم الشرطة تشبه أوردة عملاقة لجسد يحتضر؛ صمتٌ جنائزي ثقيل يغلف الأجواء، وهواءٌ محمل برائحة الأوراق العتيقة وغبار السنين التي لم تنصف المظلومين يوماً. مرت أيام عديدة على اختفاء سارة، وأصبح اسمها في سجلات المفقودين غصة في حلق المدينة، وجرحاً غائراً في كبرياء القانون الذي يقف مكتوف الأيدي أمام لغز غيابها المحير.

كان المحقق هاتس يقبع خلف مكتبه الخشبي المتهالك، يحدق في الفراغ بعينين ذابلتين كأوراق الخريف التي عصفت بها الرياح، وقد خطت التجاعيد على جبهته خارطة من الحيرة والقنوط واليأس. كان يشعر، ولأول مرة في مسيرته المثقلة بالأوسمة، أن بصيرته قد أصابها الرمد، وأن خيوط الحقيقة قد انفرطت من بين أصابعه كحبات رمل في إعصار عاتٍ.

إن أشد السجون قسوة ليست تلك التي تُبنى من قضبان الحديد الباردة، بل هي التي نشيدها من أسئلتنا التي لا تجد إجابة، حيث يصبح الوقت سوطاً يجلد الروح كلما غربت شمس يوم جديد دون بصيص أمل يُذكر يلوح في الأفق.

بينما كان هاتس يغرق في لجة أفكاره السوداوية، تحطم سكون الردهة فجأة بصراخ هستيري مدوٍ، ووقع خطوات غير متزنة ارتطمت ببلاط الممر البارد كأنها قرع طبول الحرب.

دخل رجل يجر خلفه هالة خانقة من رائحة الثمالة الكريهة، كان يترنح كمركب مكسور الشراع في عاصفة هوجاء، يجر قدماً ويقف على أخرى في رقصة بائسة مع الجاذبية، ووجهه محتقن بحمرة قانية تمزج بين الغضب المكبوت وأثر الشراب الرخيص الذي يغسل به همومه.

صرخ بصوت أجش مزق هدوء المكان:

—أين حقي؟ أريد حقي الآن! هل أنتم هنا لحماية القانون أم لممارسة النوم فوق كراسيكم العاجية؟ أعيدوا لي شقائي، أعيدوا لي ما سُلب من بين يدي في وضح النهار!

خرج هاتس من مكتبه مسرعاً، بوجهٍ نحتته الصرامة والوقار، ليقف وجهاً لوجه أمام ذلك الحطام البشري الذي فقد بوصلة الرشاد.

كان الرجل يشير بإصبع مرتجفة كغصن يابس في ريح تشرين نحو صدر المحقق، متمتماً بكلمات غير مفهومة قبل أن يستجمع بقايا وعيه ويقول بنبرة يملأها القهر العميق:

- لقد سُرقت.. نعم، لقد نهبوا حانوتي الصغير الذي أقتات منه وأعيل به أسرتي! كنت ذاهباً إلى منزلي لأحضر غرضاً يسيراً لم يتطلب مني سوى دقائق، تركت حانوتي مفتوحاً لوهلة، ووضعت ابني الصغير فيه ليكون حارساً على أحلامي البسيطة، لكنه طفل غر، أغواه نداء الأقران فترك المكان مكشوفاً للريح وللغرباء.
- دخل لص، بدا لي من وصف الصغير المذعور كأنه فتى مراهق، نحيل القامة، طويل القوام كظلٍ غريب يتسلل في عتمة النهار، غطى وجهه بوشاح وأخذ كل ما جنيته بجهدي.. الأموال، والبطاقة البنكية التي تحتوي على مبلغ هو كل ما ادخرته لغدر الزمان وتقلبات الأيام.

أرجوكم، أنا رجل سُلب منه مستقبله، أريد حقي الذي كفله لي القانون!

أدخله هاتس إلى مكتبه بوقار، وقدم له كأساً من الماء لعل برودتها تطفئ لهيب الغضب المستعر في جوفه المشتعل. كان هاتس في تلك اللحظة يبحث عن أي مخرج، ولو كان زقاقاً ضيقاً، ليعيد لنفسه الثقة بمهنته التي بدت وكأنها تنهار أمام لغز سارة المستعصي.

بدأ المحقق يستجوب الرجل عن تفاصيل المسروقات، عن ملامح الفتى، عن الساعة التي وقعت فيها الحادثة، محاولاً ترتيب شتات القصة في ذهنه.

انطلق المحقق نحو حانوت الرجل الواقع في زاوية منسية من المدينة، وبدأ يفتش في الزوايا المظلمة بعين صقر لا تغفل عن شاردة، يستنطق الغبار الساكن على الرفوف ويحلل بعثرة البضائع التي تركت كشاهد صامت على السرقة.

استخرج تسجيلات الكاميرات المتربة، فظهر له ذلك الشبح النحيل الذي يرتدي ثياباً فضفاضة تخفي معالم جسده.

راح هاتس يجوب الشوارع الملتوية كأمعاء المدينة، يسأل المارة والوجوه الشاحبة التي تحمل هموم الأرض، حتى استوقفته امرأة عجوز تجلس على ناصية الطريق تبيع الورد اليابس، نظرت إليه بعينين فيهما حكمة السنين وقالت:

- لقد رأيت هذا الطيف العابر يا بني، لكنها لم تكن فتى كما ظن صاحب الحانوت المكلوم. كانت فتاة أتقنت التنكر بزي الرجال، دخلت دكاناً قريباً ثم خرجت كريح عاصفة نحو ذلك الزقاق المهجور الذي لا يرتاده إلا المنسيون والهاربون من واقعهم المرير.

تتبع هاتس ورجاله خيوط الضوء في كاميرات المراقبة على طول الطريق، شارعاً تلو الآخر، ومن زاوية إلى أخرى، حتى وقعت عيونهم على المشهد الحاسم الذي غير مسار التحقيق: الفتاة تتوقف خلف حاوية كبيرة للنفايات، تلتفت يمنة ويسرة، ثم تخلع ثياب التنكر وتلقيها بازدراء، ثم تتوجه بخطى ثابتة لا

تعرف التردد نحو منزل قديم متهالك، تتسلق جدرانه طحالب النسيان وتفوح منه رائحة الرطوبة والذكريات الميتة التي تأبى أن تُدفن.

طرق رجال الشرطة الباب بضربات مدروسة كان لها صدى مخيف في الحي الساكن الذي لا توقظه إلا المصائب. فتحت لهم فتاة شابة، ملامحها عادية لدرجة تثير الريبة، لم يرتجف لها جفن، ولم يبدُ عليها أي أثر للتوتر، كأنها اعتادت أن تقف في وجه الأقدار بقلب صلد لا يعرف الخوف.

قال هاتس بنبرة حادة لا تقبل التأويل أو المماطلة:

- نحن رجال الشرطة، ستأتين معنا الآن للاستجواب، فالأدلة تحاصركِ كما يحاصر القيد المعصم، والشهود رأوكِ تدخلين هذا المكان.

ترددت الفتاة لثوانٍ معدودة، واهتزت نظراتها كشمعة في مهب ريح عاتية، وحاولت إغلاق الباب وهي تتمتم بصوت يحاول استجداء البراءة الضائعة:

- – لقد أخطأتم العنوان، أنتم تبحثون عن الشخص الخطأ، أنا مجرد عابرة سبيل وحيدة في هذه الحياة القاسية.

لكن يد المحقق القوية كانت أسرع من كذبها، فأجبرها على المضي معه إلى زنازين التحقيق حيث تُعرى الحقائق من أقنعتها الزائفة وتنكشف الوجوه على حقيقتها.

في قبو الشرطة، حيث يمتزج ضوء المصابيح الشاحب بظلال المتهمين المرتجفة على الجدران، بدأ هاتس يضغط عليها بأسئلته، وبعد دقائق طويلة من الممانعة والصمت العنيد والتظاهر بالجهل، انهمرت دموعها فجأة وقالت بصوت متهدج يملأه الندم:

- لم أسرق لنفسي يا سيدي المحقق! كنت عائدة من عملي ذات ليلة ممطرة موحشة، وجدت فتاة ملقاة على الرصيف البارد، شاحبة كالقمر في ليلة خسوفه، ظننتها فارقت الحياة من شدة ضعفها.

اسطحبتها لمنزلي لأرى ما بها، لكنها منذ ذلك الحين تلتزم صمتاً مقدساً، لا تنطق بكلمة واحدة، وكأن صدمة كبرى بترت لسانها عن الحديث أو كأنها رأت في صمتها حصناً من العالم.

مرت الأيام وهي كخيال مآت في غرفتي، لا تأكل إلا قليلاً ولا تنام، تكتفي بالتحديق في سقف الغرفة. حين طلبت منها الرحيل، توسلت إليّ وهي ترتجف ذعراً أنها تريد مالاً لتهرب وتعود لبيتها البعيد، فضعفت أمام انكسارها وسرقتُ لأجلها ذلك الحانوت.

ها هي البطاقة البنكية، لم ألمس منها فلساً واحداً، خذوها وخذوا تلك الفتاة من منزلي، إنها تصرخ في جوف الليل صرخات تمزق نياط القلب وتخيف الشياطين، لم أعد أحتمل هذا الثقل الذي ينوء به كاهلي!»

شعر هاتس بوخز غريب في أعماق قلبه، حدسٌ قديم استيقظ فجأة كأنه صرخة تحذير من الهاوية. وافق على عودتها بشرط أن يصطحبا فوراً ليأخذ تلك الفتاة المجهولة التي تثير صرخاتها الرعب.

صعد درج منزلها الخشبي الذي كان يئن تحت قدميه مع كل خطوة، كأن الدرجات تعترض على دخوله وتنبئه بشر مستطير. فتحت الفتاة باب إحدى الغرف المظلمة التي لم يدخلها النور منذ أمد، كانت هناك فتاة في مقتبل العشرين، تجلس بوضعية القرفصاء في ركن قصي، تخبئ وجهها بين ركبتيها كأنها تحاول الانكماش لتختفي عن الأنظار.

- اقترب منها هاتس برفق شديد، وهتف بصوت خفيض يملأه الحنان والشفقة: يا ابنتي، لا تخافي، جئت لأعيدكِ إلى شاطئ الأمان حيث الدفء والعائلة.

رفعت الفتاة رأسها ببطء شديد، فانسدلت خصلات شعرها عن وجهها شاحب كالموت، وعينين غارقتين في بحر من الدموع التي حفرت مجاريها على وجنتيها الشاحبتين. تجمد هاتس في مكانه، وشحب وجهه حتى صار بلون

الرماد، وشعر أن الأرض تتهدم من تحت قدميه. صرخ بذهول زلزل أركان الغرفة:

- سارة؟! سارة، ماذا تفعلين هنا؟ لقد بحثنا عنكِ في كل زاوية، لقد كانت أمكِ تموت في كل لحظة تمر دون رؤيتكِ، كيف انتهى بكِ المطاف في هذا الغرفة الموحش؟

كانت سارة هناك، شاحبة كأنه نُحتت من ملح، عيناها غائرتان تعكسان رعباً لا تدركه اللغة. لم تجب، بل انكمشت على نفسها كعصفورٍ كُسرت أجنحته، تنظر إليه بنظراتٍ تائهة، وكأنها تنظر إلى جدارٍ من ضباب، لا إلى بشر.

تحت أضواء المشفى الباردة، التي كانت تئزُّ بصوتٍ معدنيٍّ حزين، جلس هاتس يراقب سارة. كانت الرائحة هناك مزيجاً خانقاً من المعقمات والموت المؤجل. استدعى فريقه على عجل، وطلب إحضار والدتها، لكنه علم في قرارة نفسه أن جسد سارة عاد، أما روحها فما زالت أسيرةً في ذلك الحدث الذي قتل روحها قبل شهر.

اتخذ هاتس مقعداً خشبياً قاصياً، وبدأ يحاول استنطاق الصمت. لم يكن تحقيقاً بالمعنى التقليدي، بل كان محاولة لترميم زجاجٍ مهشم.

سارة... همس بصوتٍ رقيق كأنه يخشى أن يخدش الهواء حولها، الأرض التي كنتِ فوقها انتهت، أنتِ الآن في مأمن.

لم ترمش. كانت أصابعها تعبث بطرف غطاء السرير بحركة تكرارية رتيبة، كأنها تحاول عدّ خيوط النسيج لتتأكد أنها ما زالت موجودة.

في بعض الأحيانً يكون الهروب من الموت مجرد بداية لرحلة أطول في دهاليزه، فالناجون لا يخرجون من المعركة كاملين، بل يتركون أجزاءً من أرواحهم عالقة تحت أظافر القتلة.

حاول هاتس الدخول إلى عالمها بروية:

- سارة، مَن كان هناك؟ أغمضي عينيكِ وتذكري الرائحة، لا الوجوه.

فجأة، انتفضت سارة. لم تكن صرخة، بل شهقة مكتومة مزقت سكون الغرفة. بدأت تهذي بكلمات غير مترابطة، وصوتها يخرج مبحوحاً كأنه آتٍ من بئرٍ عميق:

- كان يغني... كان يضع عطراً برائحة الياسمين المحترق... ويقول إن الأمهات لا يهتمن ويحبن الخائفات.

تسمّر قلم هاتس فجأة، وانحبست الأنفاس في صدره بينما تجمدت يده فوق بياض الورقة كأنها قيدت بأغلال من جليد. الياسمين المحترق؟ رددها في سره بوجل؛ فهذا الوصف الغريب، الذي يمزج بين الرقة والخراب، لم يطرق سمعه في أي من الإفادات السابقة. كان ثمة فجوة سوداء في الحكاية يحاول رتقها،

وبينما كان يلملم شتات كلماتها المبعثرة كخيوط عنكبوت واهية، سألها بصوت خفيض مشوب بالحذر:

- هل تذكرين.. أين كنتِ بالضبط؟.

هزت رأسها بعنف، وانفجرت من أعماقها شهقات مريرة امتزج فيها الخوف بالذهول، وقالت وهي تصارع غصة خانقة: "كنا معاً.. أنا وصديقاتي، ضحكاتنا كانت تملأ المدى.. ثم سقط الستار الأسود. ما إن فتحت عيني حتى وجدت نفسي في جوف مكان شاسع، يفوح منه نتن القاذورات وتزكم الأنوف، فيه روائح العفن التي تشبه رائحة الموت القديم.

انقضّ عليّ.. شعرت بأصابعه الغليظة تطبق على عنقي، تحاول انتزاع الروح مني بقوة وحشية، ولم أتبين من ملامحه سوى شبح مبهم، وجه بلا تفاصيل، كأنه نُحت من ظلام.

وفجأة، شق سكون الغرفة صرخة هستيرية مدوية، صرخة مزقت جدران الصمت، وتابعت بهذيان:

- لكن... لكن دماءه.. دماؤه غسلت وجهي! لقد قُتل.. مات أمام عيني!.

قاطعها هاتس بحدة محاولاً كبح جماح اضطرابها، وسألها بهدوء مصطنع يخفي وراءه عاصفة من الشك:

- من الذي قُتل يا سيدة؟ حددي لي.. مَن؟.

ردت بصوت يرتجف كقصبة في مهب الريح:

- ذلك الذي اختطفني.. ذلك الشيطان!

لقد سُحق على يد وحش.. لا، ليس وحشاً، بل ، بل ، لا أذكر انه بشع لا تصفه الكلمات!.

ثم تشنجت أطرافها وبدأت تشير بإصبع يرتجف نحو الحائط العاري، وصرخت بجنون زلزل كيان المحقق:

- ها هو! إنه هناك!

يراقبنا من خلف الجدار.. هذا هو القاتل!".

في تلك اللحظة، شعر هاتس ببرودة تسري في نخاعه الشوكي، وتجمدت الدماء في عروقه وهو ينظر إلى الفراغ الذي تشير إليه. لم يكن هناك شيء، لكن هول اليقين في عينيها جعل الهواء من حوله يثقل. انسحب هاتس بخطوات متعثرة، يطارده صدى صراخها، وتوجه مع فريقه على عجل نحو مركز الشرطة لتدوين هذه التطورات المرعبة التي تجاوزت حدود المنطق.

بينما كان هاتس يقطع الطريق نحو القسم، كانت كلمات الفتاة تنهش عقله كأنياب مفترس. كان يتساءل بمرارة غصت في حلقه:

إذا كان القاتل قد قُتل على يد ذلك شخص المجهول كما تدعي، فمن الذي كان يحدق بي من خلف الحائط في تلك اللحظة.. هل هي الحقيقة أم أنها فقدت عقلها، أم أنني بدأت أرى الوحوش التي لا تظهر إلا للموتى؟

الفصل الرابع عشر:

من قال إن الوقت يداوي الجروح؟

الوقت في حضرة الجلاد مجرد ملحٍ يُنثر فوق الندوب لتبقى الذاكرة مستيقظة على الألم.

كانت الساعة تشير إلى فجرٍ بارد، تلك اللحظات التي يختلط فيها سواد الليل بخيوط الرمادي الأولى، حين استيقظ علي على صرخة المنبه الرتيبة.

لم يكن المنبه مجرد أداة للتذكير بالوقت، بل كان نداء الواجب الذي يربطه بجذوره. قبل أن يتوجه إلى مكتبه الأنيق ببدلته الرسمية، كان لزاماً عليه أن يمر بالمطبعة؛ فهي الرابط القديم، والمكان الذي نبتت فيه أحلامه من بين أكوام الورق ورائحة الرصاص. لم يتخلَّ يوماً عن وردية الفجر، فالحبر الذي يلطخ يديه هناك هو التميمة التي تذكره بأنه ابن الأرض والمعاناة، لا مجرد محامٍ في برج عاجي.

في ذلك الصباح، بينما كان يساعد رفيقه يوسف في توضيب لفافات الورق الضخمة، والصوت الهادر للماكينات يملأ المكان، دخلت إلى الساحة امرأة خمسينية. كانت تبدو وكأنها شبح خرج من رحم مأساة؛ يلفها سوادٌ باهت، ثيابها توحي بفقرٍ عزيز، ووجهها يحمل تجاعيد حُفرت بدموع الصبر مئات المرات. كانت تمشي بخطوات متعثرة، تتجنب التروس المتحركة، وتبحث بعينين زائغتين عن المحامي الذي سمعت عنه في أزقة الحي الشعبي.

اقتربت من أحد العمال، وبصوت متهدج سألت:

- مرحباً يا ولدي.. أخبروني في الحي أنني سأجد هنا محامياً خرج من بينكم، محامياً لا يبيع ضميره للمال.. هل تعلم شيئاً عن هذا؟.

أشار العامل بيده الملطخة بالزيت نحو علي، وقال بفخر:

- ذلك هو من تبحثين عنه يا سيدة.. علي هو ابن هذه المطبعة وفارسها.

تقدمت نحوه، وبيدين ترتجفان سلمته ملفاً متهالكاً، وقالت بصوت خنقه الأنين:

- يا بني، يقولون إنك تأخذ الحق من فم السبع. زوجي مات منذ مدة، ولم يمت وحده، بل تبعه عشرة من جيرانه وزملائه في المصنع.

كلهم رحلوا في أوقات متقاربة، صدورهم كانت تضيق بالهواء حتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة. عندما ذهبتُ للشركة أبحث عن تفسير، سخروا مني وقالوا إنهم ماتوا لأنهم كانوا مدخنين شرهين للتبغ. لكنني لست حمقاء يا بني، أنا أعلم أن في تلك الجدران سراً قاتلاً، شيء ما ينهش صدور الرجال ولا نراه. أرجوك، أريد الحقيقة لترقد روح زوجي بسلام.

شعر علي بغصة في حلقه؛ نظر إلى الملف المتهالك ثم إلى عيني السيدة، وقال لها بصوت واثق:

- "سأحقق في الأمر يا أماه. إن كان هناك حق ضائع، فسأنتزعه. لا تقلقي، سأفعل كل ما بوسعي ليعود الحق لأصحابه".

غادرت السيدة المطبعة، وتركت خلفها ثقلاً كبيراً في قلب علي، الذي أدرك أن هذه القضية ليست مجرد ملف قانوني، بل هي معركة وجود.

بدأ علي رحلة البحث القانوني بذكاء الصقر وبصيرة الخبير. لم يذهب إلى مكاتب الشركة الفاخرة أولاً، فهو يعلم أن الحقيقة لا توجد في الأوراق الرسمية المزورة، بل توجد في القاع. توجه إلى الشوارع القريبة من المصنع، حيث تفوح رائحة الزيت المحروق والفقر. هناك، وجد مبنى صغيراً متهالكاً يقع في ظل الشركة العملاقة.

سأل أحد المارة:

- لو سمحت، ما هذا المكان؟".

تراجع الرجل بذعر وأجاب:

- هذا منزل العمال الذين يعملون في الشركة المجاورة. أنصحك ألا تدخله يا بني، إنه منزل ملعون. عشرة عمال ماتوا هناك واحداً تلو الآخر في أشهر قليلة، إذا دخلت، لربما تكون أنت الشخص الحادي عشر!. ثم غادر مسرعاً وكأنه يهرب من الطاعون.

لكن الخوف كان قد شُطب من قاموس علي منذ زمن بعيد. شمر عن ساعدي قميصه الأبيض، ودخل إلى ذلك المنزل الصغير. كانت الغرف ضيقة، تملؤها الرطوبة ورائحة الموت الصامت. بدأ يبحث بتركيز عالي، حتى لفت نظره وجود بودرة بيضاء ناعمة تكسو ملابس العمل القديمة التي تركها الراحلون في خزائنهم. وبحدسٍ صقله يوسف، جمع عينات من هذه الملابس ومن غبار النوافذ، وأخذها إلى مختبر كيميائي مستقل بعيداً عن نفوذ الشركة التي كانت تسيطر على معظم مختبرات المدينة.

لم يكتفِ بالعينات، بل غاص في القوانين الدولية للبيئة وقارنها باللوائح المحلية المهملة. اكتشف أن المادة (45) من قانون العمل تلزم الشركات بتوفير أقنعة بمرشحات ثلاثية للتعامل مع المواد الكيميائية، لكن الشركة كانت تكتفي بأقنعة قماشية رخيصة لا تحمي من جزيئات "الأسبستوس" القاتلة. كان الدليل الكيميائي قوياً، لكنه كان يحتاج إلى دليل "بشري" يكسر جدار الصمت.

تذكر علي كلمات يوسف:

العين التي لا ترى الحرف بوضوح لا تدافع عن مظلوم. قرر أن يخترق الجدران الداخلية للشركة.

بعد بحث مضنٍ، اكتشف أن أحد العمال السابقين في الشركة، ويدعى ليث، يعمل الآن كعامل نظافة في مكاتب الإدارة العليا. توجه علي إلى المطبعة حيث يعمل ليث الآن وصرخ باسمه: ليث! أريد التحدث معك.

كان ليث خائفاً، لكن علي وبصبر أيوب، استطاع أن يقنعه بأن صمته هو خيانة لأرواح رفاقه الذين قضوا نحبهم. وفي ليلة ممطرة، وبينما كان علي جالساً في بيته، طُرق الباب بعنف. وجد ظرفاً أسود بداخله قرص مدمج. كان يحتوي على مراسلات داخلية سرية تثبت أن إدارة الشركة كانت تعلم تماماً بفساد الفلاتر وخطورة الأسبستوس، لكن المدير كتب في إحدى المراسلات:

تكلفة التعويضات الجنائية في حال الموت أقل بكثير من تكلفة تغيير النظام البيئي والمصفيات في المصنع.. اتركوهم يسعلون، فالموتى لا يرفعون قضايا!.

جاء يوم الجلسة التاريخي. المحكمة كانت تعج بجيش من المحامين ببدلاتهم الفاخرة وساعاتهم الذهبية، يمثلون الشركة العملاقة. في المقابل، كان علي يقف وحيداً، وخلفه صفوف من الأرامل بملابسهن السوداء، كأنهن حرس الشرف للحق.

حين بدأ علي مرافعته، لم يقرأ من ورقة، بل كانت الكلمات تخرج من قلبه. وصف للقضاة كيف يتحول الحلم بلقمة العيش إلى كابوس ينتهي بقطعة قطن

في الأنف. عرض تقرير المختبر الذي يثبت وجود الأسبستوس، ثم فجر قنبلته الكبرى:

التسجيلات والمراسلات السرية. صمتت القاعة صمت القبور حين قرأ عبارة المدير:

- الموتى لا يرفعون قضايا.

صرخ علي في نهاية المرافعة:

- "سيدي الرئيس، إننا لا نحاكم شركة بتهمة الإهمال فحسب، بل نحاكم عقلية ترى الإنسان مجرد رقم في ميزانية الربح والخسارة. هؤلاء الرجال لم يموتوا، بل قُتلوا بدم بارد!".

نطق القاضي بالحكم التاريخي:

- إغلاق القسم الملوث فوراً، ودفع تعويضات هائلة للأسر، وتحويل الملف للنيابة العامة بتهمة القتل العمد مع القصد الاحتمالي. خرج علي من القاعة ليجد يوسف بانتظاره، بابتسامة غطت تجاعيد وجهه. غمر يوسف يد علي وقال:
- "اليوم يا علي، كسرنا الأغلال.. أنا فخور بك".

وقال في نفسه انظر لي يا والدي ها أنا شاب ناجح. لي اسم وشهادة ممن تخجل ، فلتخبرني ممن تخجل، لا عليك ، سوف أعذرك حتى أجدك لأرى بأي حجة رميتني في سلال العبودية تلك.

وانني ان كنت قادر على تبرأت الآخرين ومحاسبة الظالم فإنني ووعداً مني يا جيوفاني ورجاله سيأتي يوم ما وأجركم خلف القضبان ،ليس الان لكن صبركم عليّ سوف تندمون ، سوف أجعل القانون يعيد لي حقي، حينها سوف أضحك عليكم بجنون ، ثم نام بعمق، وهو يعلم أن غداً هناك قضية أخرى، وورقة أخرى، وحق جديد ينتظر أن يُطبع بماء الذهب، وأنه لابد من أن يكون له اسم لا ينساه الناس أبداً....

انطلق هاتس وفريقه إلى المكب النفايات ، ذلك المكان الذي يمتد على مساحات شاسعة من القذارة والأدخنة السامة. كان الليل حالكاً، وكشافات السيارات ترسم خطوطاً باهتة وسط ضباب كيميائي خانق.

"يجب أن نتفرق!" أمر هاتس فريقه بلهجة حادة. "وأضاف لضابط يدعى حسن وهو من أذكى ضباط وأكثرهم خبرة، وقال:

حسن ،اتبعني أنت، المنطقة هنا خطرة جداً".

بدء عملية البحث عن أي دليل يوصلهم إلى القاتل المتسلل، ساعات طويلة مرة من البحث المتواصل ولم يتوصلوا لأي دليل ، والإجابة عن السؤال الذي انتاب المحقق هل كلام سارة صحيح ، أم أنها لم تكن سوى هلوسة نابعة من خوفها، كان لايزال معلق يريد أي جواب...

مشى حسن خلف هاتس بين تلال من البراميل الصدئة والنفايات الطبية. كانت الأرض لزجة، والروائح الكريهة تجعل التنفس ضرباً من العذاب. فجأة، توقف هاتس أمام حفرة عميقة ينبعث منها بخار أخضر فسفوري نتيجة تفاعلات كيماوية حادة.

بجانب قدميه بقع دماء كثيرة، وجه هاتس كشافه نحو الأسفل، لتتجمد الدماء في عروق حسن وشعر بالغثيان . في قاع الحفرة، كانت هناك جثة مشوهة تماماً بفعل المواد الكاوية، لكن ملامح الملابس كانت واضحة.. إنه القاتل المتسلل ذات الاشرطة المرورية لذي كانت المدينة كلها تطارده! كان قضيب حديدي طويل الذي أخترق جسده ملقى بجانبه في الحفرة نفايات لا قيمة لها.

وقف المحقق هاتس وزميله حسن أمام كتلة بشرية مشوهة، بعد أن أخرجها بطريقة ما ، لم تعد تشبه البشر في شيء. تجمدت الدماء في عروقهما، فالمشهد كان مقرفاً إلى حد الغثيان؛ جثة تآكلت أطرافها بفعل القذارة والمواد

الكيماوية، ملقاة بإهمال كأنها نفاية لا قيمة لها، أخذا يتأملاها بدقة وخوف ، تراجع حسن خطوة إلى الوراء، واضعاً منديله على أنفه، بينما تقدم هاتس بخطوات حذرة، وصوت ارتطام حذائه بالأرض المتسخة يتردد كدقات ساعة جنائزية.

كان هاتس يحاول استجماع شجاعته المهنية، تلك التي صُقلت عبر سنوات من ملاحقة المجرمين، لكنه هذه المرة شعر بوخز غريب في قلبه، حدسٌ أسود يهمس في أذنه بأن ما يراه ليس مجرد جريمة عابرة.

أمر هاتس زميله حسن بصوت أجش:

- "اذهب فوراً، أبلغ المركز واستدعِ فريق الطب الشرعي بالكامل.. أريدهم هنا خلال دقائق".

انصاع حسن للأمر وغادر المكان مسرعاً، تاركاً هاتس وحيداً في مواجهة الجثة المقلوبة على بطنها.

انحنى هاتس، وبيد ترتجف رغم محاولته الثبات، قلب الجثة. في تلك اللحظة، توقف الزمن. سقط القناع، وانخلع القلب من مكانه. الملامح المشوهة، الندبة الصغيرة خلف الأذن، وشكل اليدين.. إنه أخوه الأكبر. ذاك الذي أخبر العائلة قبل أسابيع أنه مسافر في رحلة عمل قصيرة. لم يكن مسافراً، بل كان هنا، يمارس ساديته تحت جنح الظلام.

لم تكن صدمة هاتس حزناً على فقدان أخيه، بل كانت فجيعة في هويته هو. تذكر فجأة تلك الليالي التي كان يرى فيها أخاه يعود متأخراً، وتلك الصور الغريبة والأدوات الحادة التي كان يجدها في غرفته. كان هاتس يسأله بفضول المحقق، وكان الأخ يغير الموضوع ببراعة فائقة.

همس هاتس لنفسه بذهول:

اقد كان القاتل تحت سقفي.. ، كيف يمكن لأخي أن يكون القاتل الذي بحثت عنه لشهرين، لا بل أنا واثق حد الثقة بأنه قتل الكثيرين لكن في خطته الجديدة خطة الشريط قتل إثنين، اي أن أخي مجرم منذ زمن طويل وليس قبل شهرين فقط ، هو القاتل الذي كان يغير طريقة قتله بكل فترة وفترة ، كيف لي أن اغفل عن هذا .

سقط على ركبتيه فوق التراب الملوث، وانهمرت دموعه، كان يفكر في أمه العجوز التي تفتخر بابنها المحقق، وفي مسيرته المهنية التي بناها لبنة لبنة . لو عرفت الشرطة أن القاتل المتسلسل الذي أرعب المدينة هو شقيق المحقق اللامع، فستنتهي حياته، سيُطرد، سيُهان، وسيُلاحقه العار حتى القبر.

في تلك اللحظة المظلمة، مات المحقق النبيل داخل هاتس، وولد مكانه مسخ يقتات على الأنانية. بدأ ينظر حوله كالمجنون، يبحث عن مخرج، عن كذبة تحول المجرم إلى ضحية. بدأ يزحف على الأرض، يفتش بين الأنقاض، حتى

أبصر على مسافة بعيدة شريطاً أخضر ملطخاً بالدماء وهو العلامة المسجلة للقاتل المتسلسل.

بأصابع مرتعشة، التقط الشريط. كان يدرك أنه الآن يرتكب جريمة تزوير أدلة، لكن غريزة البقاء كانت أقوى. تقدم نحو جثة أخيه، وألصق الشريط بيده بإحكام، ثم بدأ يصرخ ويمزق ثيابه ويتظاهر بالانهيار التام.

حين وصل حسن مع فريق الضباط، وجدوا هاتس في حالة يرثى لها. اقترب حسن منه ووضع يده على كتفه مواسياً:

- هاتس، صديقي، تمسك.. لماذا كل هذا البكاء؟.

أجابه هاتس بصوت مخنوق بالخداع:

- "لقد فقدتُ أخي يا حسن.. انظر، إنه الضحية الثالثة لهذا السفاح اللعين! الشريط الأخضر على يده يخبرنا بكل شيء. يبدو أن شهادة الفتاة سارة كانت محض أوهام، القاتل لا يزال طليقاً، وقد اختطف أخي وقتله!"

انقضت مراسم الجنازة، ووارى الثرى جسد الأخ الراحل، لكن نيران الثأر في صدر هاتس لم تخمد، بل كانت تزداد استعاراً.

تحول المحقق إلى شبح يطارد الأشباح؛ جاب الشوارع، وعكف ليالي طوالاً يحلل تسجيلات الكاميرات المتربصة في زوايا الطرقات وأزقة المحلات. وبجانبه كان حسن، بحدسه اليقظ ودقته المتناهية، ينسج معه خيوط الحقيقة.

قادهما الأثر إلى محل حلاقة تفوح منه رائحة الصابون والماضي. هناك، رسم هاتس بكلماته ملامح القاتل، فارتسمت الدهشة على وجه الحلاق، واستحضر من ذاكرته صورة رجل دخل عليه بهيئة شحاذ رثّ الثياب، وخرج من تحت شفرته إنساناً وسيم المنظر، يفيض مكرة وجاذبية. لم يكن ذلك الرجل سوى المحامي علي، الذي تخفى وراء قناع الأناقة ليخفي ندوب ماضيه.

هرع هاتس نحو المشفى كمن يطارد السراب، يريد ملاقاة سارة، لكنها كانت قد غادرت لسكينة بيتها البعيد. وفي الطريق، لمح حسن زميله هاتس وهو يغادر المكان في عجلة مريبة. حاول حسن استيقافه، إلا أن هاتس زجره بكلمات مقتضبة:

- اهتم بعملك، لدي شأن أريد إتمامه وحدي، وانطلق كالسهم، تاركاً خلفه غبار الشك يملأ رئتي حسن.

وصل هاتس إلى منزل سارة، ذلك القابع في عزلة تامة. طلب من الأم الانفراد بابنتها لئلا يهتز كيانها الضعيف. وحين أخرج صورة لبلال القديم والذي يدعى اليوم بعلي شهقت الفتاة، واهتزت أطرافها وهي تشير بإصبع يرتجف:

- "هو.. هو بعينه! لكنه لم يخطفني، بل كان طوق نجاتي.. رغم ملامحه التي يسكنها الخوف".

انحنى هاتس نحوها، وبصوت خفيض يشبه فحيح الأفاعي قال:

- "أنصتي لي يا ابنتي.. خاطفك الحقيقي قد صار تحت التراب، أما هذا الذي تزعمين أنه أنقذك، فما هو إلا مجرم باطش، يقتفي أثرك الآن ليصمت صوتك للأبد. غداً سأحضره للسجن، وبعدها سوف اجره امام القاضي وعليكِ أن تشهدي أمام المحكمة أنه القاتل والخاطف.. هل اتفقنا؟".

أومأت سارة برأسها في ذهول وخوف، مستسلمة لسطوة المحقق.

فجأة، قطع صمت المكان رنين هاتف هاتس؛ كان حسن يسأل عن موقعه متذرعاً بقضية جديدة في المخفر. غادر هاتس المكان بدم بارد، وما إن توارى عن الأنظار حتى دوى صوت تكسر الأواني؛ كانت الأم قد تنصتت للحديث، فسقطت مغشياً عليها من هول ما سمعت. صرخت سارة:

-"أمي.. تمسكي بالحياة يا أمي!".

في تلك اللحظة، اقتحم رجل المنازل بلهفة؛ كان حسن الذي لم يطاوعه قلبه فلحق بزميله سراً. ساعد الأم حتى استعادت وعيها، وبصوت هادئ قال:

- "لا تقلقي، هو ارتفاع عارض في الضغط، لكن صراخ ابنتك جمد الدماء في عروقي".

نظرت إليه الأم بريبة:

- من أنت؟.

أجابها:

- أنا الضابط حسن، جئت للاطمئنان...

قاطعت سارة بحدة:

- لقد جاء محقق قبلك، فلا داعي لوجودك..

هنا، اصطدمت قطع الأحجية في رأس حسن. تذكر كيف كذب عليه هاتس، وكيف ادعى أنه في منزله بينما كان هنا ينسج مؤامرة ضد بريء. وعندما غادرت سارة لتحضير الشاي، انهمرت الأم بالحديث، وروت له كيف يحاول هاتس إلصاق التهمة بالرجل الذي أنقذ ابنتها.

اشتعلت عين حسن ببريق الغضب؛ فالمحقق الذي ظنه قدوة، بات يتاجر بالظلم. قالت له الأم بتوسل:

- "أنا مدينة لذلك الرجل بحياة ابنتي، أرجوك ساعده".

مسح حسن على وجهه وقال بصوت يملؤه اليقين:

- "أقسم بشرف مهنتي وبشجاعتي، لن أسمح بظلم بريء مهما كلف الثمن. سأفعل المستحيل لأكشف زيف هاتس وأبرئ من أنقذ سارة من أنياب المجرم الحقيقي".

حينها، اهتز هاتفه مجدداً.. كان هاتس يسأل بلهجة غريبة:

- "أين أنت يا حسن؟".

رد حسن بنبرة واثقة، تخفي خلفها عاصفة من التحدي:

- "أنا الآن أعالج قضية أخرى بيدي.. لا أستطيع المجيء، أكمل القضية وحدك يا هاتس.. فلكل منا طريقه.

ليست العتمة في الزنازين، بل في القلوب التي تخون الأمانة. فالمحقق الذي يبيع ضميره ليشتري سمعةً زائفة، لا يدفن الحقيقة فحسب، بل يدفن معها إنسانيته.. لكن العدالة كالفجر، مهما طال ليل الظلم، فلا بد أن تنبثق خيوطها لتمزق ستار الكذب وتكشف الوجوه على حقيقتها.

الفصل الخامس عشر:

في لحظة الحقيقة، يكتشف الإنسان أنه وحيدٌ تماماً، وأن كل الوعود لم تكن سوى سحبٍ عابرة في سماءٍ لا تمطر.

كانت خيوط المطر تضرب زجاج مكتب علي في ذلك المساء الكئيب، كان يجلس علي خلف مكتبه، حين دخل عليه رجلٌ تفوح منه رائحة الثراء الفاحش والسلطة المطلقة.

وضع أمامه حقيبة جلدية، دون أن يقول أي شئ ، فتحها علي بهدوء وعندما كشف عما بداخلها لمعت رزم النقود تحت ضوء المكتب الخافت.

ثم قال:

- أن مهمتك يا أيها المحامي بسيطة جدا ، أريدك أن تدافع عن رجل أعمال، متهم بالاستيلاء على أرض حكومية، كانت مخصصة لبناء مستشفى أو دار رعاية للأطفال، أدعى رجل أن الأوراق رسمية وأن هناك سوء تفاهم قانوني يحتاج إلى دهائه لتفكيكه، هز علي رأسه بالموافقة على طلب ذلك الرجل..

في بداية الأمر وبحكم التزامه المهني، بدأ علي بدراسة الملف، ظناً منه أن الرجل قد يكون مظلوماً بالفعل أو ضحية لصراعات كبار التجار.

انهمك علي في البحث، غاص في سجلات الأراضي القديمة، ونزل إلى المواقع الميدانية في أطراف المدينة، حيث كانت الجرافات تنتظر إشارة البدء لهدم أحلام الفقراء وبناء مجمعات تجارية بدلاً منها. وبينما كان يبحث في الأرشيف الوطني، وتحت ضوء مصباحه الذي لم ينطفئ، اكتشف أن الرجل لم يكن

مظلوماً، بل كان شيطاناً قانونياً استغل ثغرات في قانون الاستملاك، وقام بتزوير تواقيع موظفين راحلين ليحول ملكية الأرض لنفسه.

وجد علي وثيقة أصلية مخبأة في طيات ملف مهمل، تثبت أن الأرض ملكية عامة وقفية للمنفعة التعليمية، وأن موكله قد دفع رشاوي ضخمة لطمس هذه الحقيقة.

في تلك اللحظة، اعتصر قلب علي من الحزن والغضب. تذكر رائحة الحبر في المطبعة، وتذكر يوسف وهو يمسح على رأسه ويقول:

- "العين التي لا ترى الحرف بوضوح، لا تدافع عن مظلوم".

أحس بانفعالية شديدة كادت تفجر عروقه؛ كيف يمكنه أن يستخدم علمه الذي سهر الليالي لتحصيله في تبرئة مجرم يسرق مستقبل الأطفال؟

نظر إلى القميص الأبيض الذي يرتديه، وشعر وكأن المال الذي في الحقيبة هو حبرٌ أسود قذر سيلطخ بياض روحه للأبد. لم ينم تلك الليلة، كان يمشي في شوارع المدينة المبللة، يقارن بين "هيبة المحامي" التي أعطاه إياها يوسف، وبين "ذل الخيانة" التي يعرضها عليه هذا المجرم.

في الصباح الباكر، توجه علي إلى المطبعة قبل أن يفتح مكتبه. وجد يوسف يغلي الشاي، فنظر يوسف إلى وجهه الشاحب وقال:

- "ما بك يا علي؟ وجهك يحمل هموم مدينة كاملة".

روى له علي عن القضية وعن عرض المال المغري. صمت يوسف قليلاً، ثم أشار إلى ماكينة الطباعة وقال:

- "يا علي، نحن نطبع الكلمات لننشر النور، فإذا استخدمنا الورق لتغطية الظلام، نكون قد خنا المهنة، الرجل لم يشترِ دهاءك، بل أراد شراء ضميرك، والضمير يا بني ليس للبيع حتى لو جاع الجسد". كانت هذه الكلمات هي القوة التي احتاجها علي ليحسم أمره.

عاد علي إلى مكتبه، وجد الرجل ينتظره بابتسامة صفراء. رمى علي الملف فوق المكتب بكل ثبات وقوة، ونظر في عيني الرجل وقال بصوتٍ زلزل أركان الغرفة:

- "خذ مالك وارحل.. أنا لا أبيع صوتي للشيطان.

لقد اكتشفتُ زيفك، ولن أنسحب من القضية فحسب، بل سأضع كل ما وجدته من أدلة تحت تصرف المدعي العام، ارتجف الرجل غضباً وهدده بنفوذه، لكن علي وقف أمامه كالطود العظيم، بظهره المستقيم الذي صقله التعب، وقال:

هدد كما تشاء، فالحق يعلو ولا يُعلى عليه، ومن تعلم الحروف بين أنقاض المطبعة، لا يرهبه بريق الذهب الزائف".

انسحب علي من الدفاع، بل وتحول إلى خبير قانوني متطوع لمساعدة الدولة في استعادة الأرض. كانت مشاعره في تلك اللحظات مزيجاً من الفرح الغامر بنصرة المبادئ، والحزن على عالمٍ يظن فيه الأقوياء أن كل شيء يُشترى بالمال.

حين صدر قرار المحكمة باستعادة الأرض وبناء المدرسة، وقف علي في ساحة الأرض، ينظر إلى الأطفال الذين يلعبون في الجوار، وشعر بانتشاء لا توصف؛ فرحة لا يضاهيها أي نجاح مادي. كان يرى في عيونهم انعكاساً لنجاحه الحقيقي.

عاد إلى المطبعة مساءً، جلس مع زملائه القدامى، وحكى لهم كيف رفض الملايين ليحمي مدرسة. صفق له الجميع بحرارة، واحتضنه يوسف وهو يهمس في أذنه:

- "اليوم يا علي، أصبحت محامياً بحق.. اليوم تخرجت من مدرسة الحياة بمرتبة الشرف". نظر علي إلى يديه، كانت نظيفة من المال الحرام، لكنها كانت قوية بما يكفي لتحمل لواء العدالة. أحس أن أسمه الجديد علي صار مرادفاً للنزاهة، وأن طعم الحرية التي يعيشها الآن هو أذكى وأطيب من أي رغدٍ زائف.

بعد لحظات قليلة انشق صمت الزقاق عن هسيسٍ مرعب؛ كانت أضواء سيارات الشرطة الزرقاء والحمراء تنعكس على جدران الأبنية الباهتة قبل وصولها، كأنها نذر شؤم تلتهم العتمة. وفجأة، انهمرت السيارات من كل حدب وصوب، تصرخ إطاراتها فوق الحصى وهي تطوق المطبعة بإحكامٍ خانق.

ترجل رجال الشرطة ببدلاتهم القاتمة ودروعهم اللامعة، تحركاتهم كانت آلية، سريعة، ومنظمة بشكلٍ يثير الرعب في النفوس. صوّبوا أسلحتهم نحو المداخل والمخارج بوجوهٍ صخرية لا تقرأ فيها سوى الحزم. ثم شقّ الفضاء صوتٌ معدني جهور عبر مكبرات الصوت، زلزل أركان المكان:

"لا أحد يتحرك! ارفعوا أيديكم فوق رؤوسكم وسلموا أنفسكم فوراً.. المكان محاصر بالكامل!"

داخل المطبعة، ساد ذهولٌ يشبه الشلل. انتفض العمال، سقطت الأوراق من أيديهم، وتوقفت الآلات عن الدوران وكأنها خافت هي الأخرى. خرجوا بصفوفٍ مهزوزة، تعلو وجوههم حيرةٌ قاتلة، يجرون أقدامهم نحو المجهول بصدورٍ عارية إلا من الخوف، فلا ذنب لهم يعرفونه، ولا طاقة لهم بمواجهة هذا الطوفان من الحديد والنار.

تجمد الوقت لدقائق ثقيلة، واصطف الجميع خلف بعضهم البعض في طابور الانكسار. وسط هذا السكون المهيب، تقدم المحقق هاتس بخطواتٍ وئيدة، مدروسة، يقرع حذاؤه الأرض بإيقاعٍ جنائزي، بينما كان "حسن" يسير خلفه بخطوات مدروسة.

ما إن وصل هاتس أمام علي، حتى توقف فجأة. ساد صمتٌ طبق الأصل، ثم وبحركةٍ مسرحية باردة، فركش هاتس أصابعه. كانت تلك هي الإشارة؛ وفي لمح البصر، انقض أربعة من رجال الشرطة على علي كأنهم كواسر. أسقطوه أرضاً بعنف، ارتطم وجهه ببرودة التراب، وبينما كان يحاول استيعاب الصدمة، ضغط أحدهم بركبته فوق ظهره ليشل حركته، وسُحبت يداه للخلف بقسوة أطلقت صرخة مكتومة من صدره. كلبشات الحديد انغرزت في رسغيه بصوت تكة معدنية أعلنت نهاية حريته.

حاول علي المقاومة، هزّ كتفيه بجنون وهو يصرخ بصوتٍ مخنوق:

ماذا تفعلون؟! أي جريمة ارتكبت؟ أنا محامٍ وأعرف القانون! اتركوا يدي!، لكن قبضاتهم كانت أقوى من كلماته، وثباتهم كان يخبره أن القانون الذي يعرفه قد نام الليلة.

لم يحتمل يوسف المشهد، اندفع كالمجذوب نحو المحقق، وعروق رقبة بارزة تنبض بالهول، صرخ بملء فمه بصوتٍ مزق هدوء الحصار:

- "توقفوا! خذوني بدلاً عنه! ماذا فعل؟ علي هو أنزهنا جميعاً! أخبرونا بأي حقٍ تدنسون كرامته؟!"

لم يمنحه هاتس جواباً، بل دفعه بقوة في صدره أرجعته خطواتٍ للخلف، واقترب من أذنه هامساً بفحيحٍ أشد إيلاماً من الصراخ:

- "وفر أنفاسك يا هذا .. اذهب وافتح التلفاز، شاهد الأخبار.. وهناك ستعلم أن الصنم الذي تدافع عنه قد تحطم إلى الأبد."

انسحبت سيارات الشرطة مخلفةً وراءها غباراً كثيفاً ورائحة مطاطٍ محروق، غادرت تاركةً الحيّ غارقاً في ذهولٍ لا يرحم. وقف الجميع في أماكنهم كأشباحٍ في مقبرة، ينظرون إلى البقعة التي سُحل فيها علي.

ساد صمتٌ ثقيل لم يقطعه سوى أنين يوسف الذي جثا على ركبتيه فوق الأرض التي شهدت انكسار صديقه. تساءل الجميع بقلوبٍ واجفة:

"أي وجهٍ آخر كان يخفيه هذا الرجل؟ وهل يمكن للحق أن يرتدي ثوب الباطل، أم أن الباطل قد استعار وجه علي ليخدعنا جميعاً؟" لقد رحل علي

مكبلاً، لكنه ترك خلفه حقيقةً مشوهة، بدأت تتسرب عبر شاشات التلفاز تم العثور على القاتل الذي أرعب المدينة ، جاء هذا الخبر ليسمم كل ذكرى طيبة تركتها يداه في هذا الحيّ المنكوب.

ما إن اختفت أضواء الشرطة في عتمة الليل، حتى تحولت الصدمة الصامتة إلى ضجيجٍ محموم. لم تكن الصدمة في الاعتقال بحد ذاته، بل في ذلك الشق الذي أحدثه كلام المحقق هاتس في جدار الثقة. تجمهر أهل الحيّ أمام شاشة مقهى الشرق العتيق، تتسارع أنفاسهم، وعيونهم معلقة بالخبر العاجل الذي بدأ يزحف أسفل الشاشة.

كانت الوجوه شاحبة، كأن كل واحدٍ منهم قد تلقى صفعةً شخصية. "أبو محمود"، الذي طالما استند إلى كتف علي في قضاياه، وقف يرتجف وهو يتمتم:

"ليس هو.. مستحيل أن يكون هو. لقد أكل الخبز والملح معنا!"، لكن صوته كان يغرق في بحرٍ من الهمسات المشككة.

بدأت الهمسات تتعالى كأزيز النحل؛ البعض بدأ يستعيد مواقف قديمة ويفسرها بتفسيرات خبيثة:

"ألم تلاحظوا كيف كان يغيب لساعات؟"، "من أين له بكل تلك القوة في المحاكم؟". الحقيقة المرة بدأت تنهش في سمعته قبل أن تبدأ محاكمته حتى.

الناس لا يرحمون بطلاً سقط، وخاصة إذا كان هذا البطل هو علي الذي كان يمثل بوصلتهم الأخلاقية.

في زاوية مظلمة، وقف يوسف بعيداً عن الجموع، ينظر إلى شاشة التلفاز التي تعرض صورة علي وبجانبها اتهام بكونه قاتل. لم يبكِ، بل كان يشعر ببرودة غريبة تسري في جسده. كانت تلك اللحظة هي الجنازة الحقيقية؛ ليست جنازة شخص، بل جنازة التي سوف تدفعه ليكون المحامي لعلي في قضيته، ثم قال بغضب بعد أن ركل الطاولة بقدمه وعهدا لي سوف أخرجك من هذا برئ .

لقد انفض الجمع، وعاد كلٌ إلى بيته، لكنهم عادوا بقلوبٍ أضيق مما كانت عليه. أغلقوا أبوابهم بإحكام، ليس خوفاً من الشرطة، بل خوفاً من أن يكتشفوا أن الإنسان الذي وثقوا به طويلاً ليس سوى وهمٍ جميل تفتت تحت أقدام الحقيقة القاسية. سقط علي، وسقطت معه قطعة من طهر هذا الحي، ولن تعود الأمور كما كانت أبداً.

الفصل السادس عشر:

أصعب المعارك هي التي تخوضها وأنت الجيش والقائد والضحية في آنٍ واحد؛ حيث لا نصرَ يُهدي لغيرك، ولا هزيمةَ يتحمل مرارتها سواك.

كان الطريق إلى غرفة التحقيق يبدو لعلي وكأنه مسيرة نحو المقصلة. كان الرواق طويلاً، بارداً، تفوح منه رائحة الرطوبة الممتزجة بالمنظفات التي تحاول عبثاً إخفاء رائحة الخوف المنبعثة من المسجونين. قاده هاتس إلى غرفة تحقيق ، وهو يدفعه بقسوة من كتفيه، والأصفاد الحديدية تنهش معصميه مع كل حركة.

دلفا إلى غرفة التحقيق. لم تكن غرفة، بل كانت زنزانة للنفس قبل الجسد. الجدران رمادية شاحبة، قشرت الرطوبة طلاءها فبدت وكأنها جروح مفتوحة. في منتصف الغرفة، كان هناك مصباح وحيد، يتدلى من سلك عارٍ مهترئ، يترنح ببطء فيلقي بظلال مشوهة على وجه علي. كان ضوء المصباح خافتاً، يميل للصفرة الكئيبة، وكأنه يرفض كشف تفاصيل الجريمة التي ستُرتكب هنا باسم القانون.

أُجلس علي على مقعد حديدي بارد، وقف هاتس أمامه، لم ينبس ببنت شفة لثوانٍ، بل اكتفى بالنظر إليه بعينين محتقنتين بالكراهية، تنفسه كان عالياً ومضطرباً. وفجأة، انفجر البركان.

ضرب هاتس الطاولة الخشبية المتهالكة بكل قوته، حتى اهتز المصباح وتراقصت الظلال بجنون. صرخ هاتس في وجه علي، كانت الصرخة تحمل نبرة جنونية:

- لماذا قتلتهم؟!
- أجبني أيها الوحش المختبئ خلف بدلة المحاماة! ما ذنب أولئك الأبرياء؟
- هل كنت تظن أنك فوق القانون؟ هل كنت تستمتع برؤية دمائهم تسيل؟!.

حاول علي أن يستجمع ما تبقى من كرامته، رفع رأسه الجريح، ونظر في عيني هاتس وقال بصوت مرتعش لكنه مثقل بالحقيقة:

- أنا لم أقتل أحداً يا هذا....
- كل ما حدث كان محاولة بائسة للنجاة، وما فعلته كان دفاعاً عن النفس ضد القاتل حقيقي. أنت تعرف الحقيقة، لكنك تختار الطريق الأسهل لترضي أسيادك الفاسدين!

فقد هاتس أعصابه تماماً، جحظت عيناه وبرزت عروق رقبته كأنها أفاعٍ تلتف حول حنجرته لتخنقه. صرخ بشتائم بذيئة شتائم تطعن في شرفه وعائلته وتاريخه. وبحركة خاطفة، انقض هاتس بيده الضخمة ليلطم علياً على وجهه لطمة دوت في أرجاء الغرفة كالرعد.

لم يتوقف عند ذلك، بل انهمرت اللكمات على وجه علي كالمطر. كان هاتس يضرب بحقد دفين، يضرب وكأنه يحاول محو ملامح علي من الوجود.

تحطم أنف علي، وشعر بطعم الصدأ في فمه؛ إنه دمه الذي بدأ يسيل غزيراً ليغطي شفتيه ويتقطر على قميصه الأبيض الذي بات الآن لوحة سريالية للظلم، هنالك تذكر طعم الدماء التي تذوقها في قصر جيوفاني، إنه طعم العذاب نفسه.

كان هاتس يصرخ مع كل ضربة:

- دافع عن نفسك الآن! أرني كيف ستترافع أمام موتك!

توقف هاتس وهو يلهث، ومسح العرق عن جبينه بيده الملطخة بدم علي. اقترب منه وهمس بصوت تقطر منه النذالة:

- أتعتقد أنك ذكي؟ انظر إلى هذا..

أخرج هاتس مجموعة من الصور ورماها على الطاولة الملطخة بالدماء.

كانت صوراً واضحة، التقطها ذلك الحلاق الذي كان قد ساعد علي في المرة الآخيرة، تظهره في أوضاع تجعل من براءته مستحيلة أمام أي قاضٍ.

أضاف هاتس بابتسامة صفراء:

- وغداً.. ستكتمل المسرحية. تلك الفتاة التي ظننت أنك بطلها، الفتاة التي خطفتها بزعم حمايتها، ستقف أمام الجميع كشاهدة .

ستقول إنك السفاح، وإنك كنت تنوي قتلها. ستكون هي من يلف حبل المشنقة حول عنقك. الشعب يغلي في الخارج، والجميع يريد رأسك، وسأعطيهم ما يريدون.

نظر له علي نظرة ساخرة محاولات إخفاء خوفه ، بصق دماء من فمه، على قدم هاتس وقال :

- أما هذه الصور فلتنقعها وتشرب ميائها أتعتقد أنك من خلالها سوف تكون قادر على سجني حتى ، انظر لنفسك لا تجيد سوى النباح كالكلاب الضارة ، وتلك الفتاة، هل انت متأكد انك لم تجبرها على الاعتراف .

مع الأسف كم أنت مغفل واحمق .

شعر هاتس بالإهانة فهم بضربه أقسى من قبل وقال محاول استجماع كرامته:

- لن أسمح لك ولا لغيرك بالبحث عن دليل لبراءتك فغداً محكمتك، غدا أرى بأي عين سوف تتكلم معي .

تدخل رجال الشرطة بسرعة قبل أن يقضي هاتس على علي، سحبوه بعيداً وهو يسب ويشتم، غادر هاتس الغرفة تاركاً وراءه جثة إنسان لا تزال تتنفس.

سُحل علي سحلاً إلى الزنزانة الانفرادية. كان جسده يرتطم بالأرض الباردة، ولم يعد يشعر بالألم الجسدي بقدر ما يشعر بتمزق روحه.

ألقوه في زنزانة ضيقة، لا تتجاوز مساحتها المترين، لا نافذة فيها، فقط جدران سوداء متسخة، تفوح منها رائحة الموت والنسيان.

نهض علي بصعوبة بالغة، استند بظهره المدمي على الحائط، وأغمض عينيه. في تلك العتمة، ولد بداخله وحش لم يعرفه من قبل. همس لنفسه، وصوته كان كفحيح الأفعى.

إذن، هذا هو جزاء الخير؟

الفساد لا يُحارب بالعدالة، بل يُهزم بفساد أقوى منه. لقد حاولوا طمس الحقيقة، ونجحوا. ها هي ذي الحكومة الفاسدة، تضحي بالمدافعين عنها لتغطي على عوراتها.

عزم علي في تلك اللحظة على الانتقام. لم يعد يهمه القانون الذي درسه لسنوات. أقسم أن الحقيقة التي بحث عنها ستختفي معه، وأنه إذا قُدر له الخروج أو حتى في لحظاته الأخيرة، سيعاملهم بذات القذارة.

سيهزم الفساد نفسه بنفسه، وسأكون أنا الشرارة التي تحرق كل شيء. شعر بحقد أسود، قلبه يتآكل، حقد على هاتس، على الحلاق، على الفتاة، وعلى

المدينة التي صفق لها يوماً، على والده وجيوفاني وماجد ، عزم على الانتقام منهم جميعهم وقتلهم أن اتيحت له فرصة واحدة فقط للنجاة.

بعد سويعات من العزلة، فُتح باب الزنزانة الصغير بصرير حاد :

- لديك زائر، خمس دقائق فقط .

اقتيد علي إلى غرفة الزيارة. كان يوسف، معلمه ووالده الروحي، يجلس خلف الزجاج، وقلبه يكاد يقفز من صدره.

عندما رأى يوسف وجه علي الدماء الجافة، الأنف المحطم، والعينين اللتين انطفأ فيهما بريق الأمل شهق شهقة مكتومة واهتزت يداه.

قال يوسف بصوت مخنوق :

علي.. يا بني.. ما الذي فعلوه بك؟

بدأ علي يروي ليوسف الحقيقة ببرود غريب، حكى له عن مؤامرة الصور، وعن شهادة الفتاة المزورة، وكيف أن هاتس أعد كل شيء لشنقه. صُدم يوسف، ارتجفت شفتاه وقال بتلعثم:

- هل أنت واثق؟ هل يمكن أن تصل بهم الدناءة إلى هذا الحد؟

أومأ علي برأسه مؤكداً، وعيناه متسمرتان على يوسف. حاول يوسف أن يلملم شتات نفسه، مسح دموعه وقال بحزم:

- استمع إليّ.. لن أتركك. سأكون محاميك الخاص. سأنبش الأرض، سأحفر في قبورهم، سأبحث عن دليل يثبت أنك كنت تدافع عن نفسك. لن يلفوا الحبل حول عنقك وأنا أتنفس

لا تتعب نفسك يا يوسف لا وقت لنبش الأرض ولا حتى لفرك رأس، غدا محكمتي ،ولم يسمح لي حتى بوقت لأثبت براءتي، لا أنكر أنني خائف قليلاً ، لكن هذا أفضل من موتي وأنا أحمل عار اني رأيت حياة شخص على المحك ولم أساعده، لربما ينتابني شعور ندم لعلي هذا، لكنني في نهاية أنا سوف أعدم كقاتل لا كمدافع عن أحد، والذي يقهر قلبي يا معلمي أن الفتاة التي أنقذتها ، سوف تشهد غدا ضدي ، وأضف من شعر بيت أنني لا أعلم مني هي تلك الفتاة ولا أنت حتى ، لنستطيع إقناعها بقول الحق ، لذا كرهت طيبة قلبي هذه، ولو مر بي زمن سوف أسحقها من قاموسي كله، لكن لا ضرر فعلى الاقل سوف أموت شريف بعين نفسي ،وبعينك أيضا.

شكرا لك يا يوسف على كل شيء كنت خير معلم لي وخير اب لم اره يوما، لذا فنشاهد بصمت ما الذي سوف يحدث غدا، لعل معجزة تنزل من السماء لإنقاذ.

كان هناك جهاز تلفاز معلق في زاوية الغرفة، بدأ يبث صوراً مباشرة من الخارج. كانت الجماهير تغص بالميادين، يرفعون لافتات عليها صورة علي وعليها علامة X حمراء، ويصرخون بهستيريا:

الإعدام للقاتل! الموت لمن خان القانون!

الإعدام للقاتل! الموت لمن خان القانون!

كان المذيع يقول بصوت حماسي:

- الشعب لا يقبل بأقل من الإعدام العلني غداً لهذا المجرم الذي روع الآمنين.

نظر علي إلى الشاشة ثم نظر إلى يوسف وابتسم ابتسامة ميتة:

- انظر يا معلمي.. لقد صدر الحكم بالفعل. ليس في المحكمة، بل في قلوب هؤلاء الذين ضللوهم.

لا مجال للهروب يا يوسف، لقد سدوا كل الطرق. غادر يوسف المكان وهو يترنح من الصدمة، بينما عاد علي إلى زنزانته تحت حراسة مشددة.

عاد علي إلى عتمته، جلس في الزاوية، وضم ركبتيه إلى صدره. بدأت الذكريات تهاجمه كسكاكين حادة. كان يخشى دائماً أن يموت بهذه طريقة، وها هو القدر يسخر منه ويضعه في ذات المسار.

بدأ علي يهمس في سكون الزنزانة، والدموع تنهمر بصمت على جروحه:

يا والدي، انظر إليّ الآن. لقد كنت دائماً أثق بأنك سوف تبحث عني وتضمني في حضنك ، لكن كل هذه الأحلام كانت أوهام، إن العدالة في هذه الأرض هي مجرد نكتة سمجة يلقيها الأقوياء على الضعفاء.

حاولت أن أكون مختلفاً، حاولت أن أنظف القذارة بيدي، فإذا بالقذارة تبتلعني بالكامل، وتأتي لقتلي ، يا لي من ساذج يا والدي.

استرسل في بكائه، وهو يتخيل وجه والده:

يا والدي، أتعذب الآن ليس من الضرب، بل من الخيبة. هل كنت تستشعر هذا الألم وأنت تغادر الدنيا؟

هل شعرت بهذا القدر من اليأس والإحباط؟

لقد اخترتُ طريقاً ظننته سيقودني للشرف، فإذا به ينتهي بي إلى مشنقة يشاهدها الجميع ويصفقون لموتي. سأموت متهماً، منبوذاً، وسيلعنني الجميع غداً.

هذه الحياة التي لم أخترها، يا والدي، عذبتني بكل تفاصيلها، منذ طفولتي إلى هذه اللحظة.

لقد كانت نهاية غير مشرفة لرجل أراد فقط أن يرى الحق ينتصر. الفساد كبر يا أبي، كبر حتى صار هو الهواء الذي نتنفسه ، أنت يا والدي فاسد بنظري ، يكفي أنك تخليت عني ، الحقيقة التي أفنيت عمري أبحث عنها ستموت معي تحت التراب، ولن يعرف أحد أنني كنت الضحية.

أشعر بالبرد يا أبي.. برد الروح قبل الجسد. اليأس تغلغل في عظامي، ولم يعد هناك أي شعور بالأمل. لقد انطفأ كل شيء.

كان علي يتحدث وكأنه يرى والده أمامه:

سامحني يا والدي، لأنني لم أستطع أن أكون أقوى من هذا الظلم. سامحني لأنني سأموت مهزوماً، سامحني لأنني لن أستطيع أن أغفر لك ذنبك العظيم هذا ، لقد كنت أتمنى رؤيتك في كل لحظة وفي أحلامي ، لكن القدر اختار موتي شنقاً، هذه هي دنيا يا والدي تختار شخص وتقوم بإنزال عليه اسوء الأقدار ومع الأسف اختارتني أنا .

يا والدي، ليتني لم أخرج لهذه الدنيا، ليتني بقيت طيفاً لم يعرف طعم هذا القهر. غداً، سيلف الحبل عنقي، وسأرتاح من هذه المعاناة، لكن قلبي سيبقى

يلعن كل من تسبب في ضياع الحقيقة، ويلعنك ،ويلعن كل من أذى كياني وحطم أحلامي وأضاع طفولتي.

سامحني يا يوسف ، لأنني لم أستطع أن أكون أقوى من هذا القدر، سامحني لأنني سأموت مهزومًا، محطمًا، ووحيدًا في عتمة هذا الفساد الذي لا ينتهي.

سكت علي، وأسند رأسه على الجدار الخرساني البارد، مستسلماً لسواد الزنزانة وسواد القدر، منتظراً الفجر الذي سيحمله إلى منصة الإعدام، ليكون الضحية الأخيرة في مسرحية الفساد الكبرى.

الفصل السابع عشر:

حين التفتُّ حولي ولم أجد أحداً، أدركتُ أنَّ الله لم يتركني وحيداً، بل أرادني أن أكتشف أنَّ ذراعي هي مَجدافي، وأنَّ قدماي الحافيتين هما سبيلي الوحيد للنجاة.

انبلج الفجر ببطء على زنزانة علي الخالية من النافذة، لكنه أحس بضوئه يتسلل كخيوط من الحزن إلى قلبه. كان هذا هو الفجر الأخير. فُتح باب الزنزانة بضجيج معدني، واقتادوه مقيد اليدين والقدمين نحو قاعة المحكمة. كانت الممرات هذه المرة أكثر إضاءة، وكأنهم يريدون لعلي أن يرى بوضوح حجم السخرية.

عندما دخل علي إلى قاعة المحكمة، شعر بأن أنفاسه قد اختنقت. كانت القاعة تضج بالناس، كل مقعد كان ممتلئاً. وجوه الحاضرين كانت مزيجاً من الفضول، والشماتة، والغضب. الصحفيون والكاميرات كانت تومض بلا هوادة، وكأنهم يلتقطون صوراً لمعرض فني لا لجريمة. كان في الصف الأول يوسف، وجهه شاحب ومتجهم، وعيناه تحملان ألف سؤال وسؤال. وإلى جانبه، جلس هاتس ببدلته الأنيقة، يبتسم ابتسامة المنتصر، وعيناه تثبتان على علي وكأنه يتلذذ بعذابه.

أُجلس علي في قفص الاتهام، وهو قفص حديدي صغير، كان القاضي يجلس على منصته العالية، وجهه خالٍ من أي تعبير، وكأنه يقرأ من نص مكتوب مسبقاً. لم تكن هذه محاكمة للبحث عن الحقيقة، بل كانت استعراضاً لقتل العدالة.

بدأت المحاكمة بمشهديه مروعة. وكيل النيابة، رجل ضخم ذو صوت جهوري، بدأ يعدد التهم بصوت قاسٍ:

- لقد أقدم المتهم علي، المحامي السابق، على جريمة بشعة بحق المجتمع، مختطفاً الفتيات، ومقتلاً لأناس أبرياء، محاولاً بث الفوضى في المدينة!

رفع يوسف يده بهدوء، طالباً الكلمة. كان صوته يحمل بقايا كرامة:

- سيدي القاضي، موكلي يدفع ببراءته، كل ما حدث كان دفاعاً عن النفس، وهناك دلائل تشير إلى وجود مؤامرة حقيقية!

قاطعه وكيل النيابة بسخرية:

- مؤامرة؟ هل تريد إقناع المحكمة بأن كل هؤلاء الشهود كاذبون؟
- هل تقول إن الشرطة متواطئة؟

ضحك هاتس بصوت خافت، مما زاد من غضب يوسف، وأخبر هاتس كل من في المكان عن هوية علي الحقيقة وهو رجل يدعى بلال ، وأخرج أوراق تثبت بأنه طفل يتيم وغيرها من معلومات التي تعرفونها.

صرخ يوسف، لكن كلماته ضاعت في همهمات الحاضرين. بالتأكيد هناك تضليل!

ثم جاء دور الشهود. كان أولهم الحلاق، الذي قدم شهادة تدين علياً بالكامل، وتأكدت المحكمة من صحة الصور الدامغة التي التقطها. بدا علي وكأنه في حلم، يرى هذا المشهد وكأنه فيلم رديء لا يخصه.

أخيراً، دُعيت الفتاة شاهدة العيان إلى المنصة. كانت ترتدي ثياباً بسيطة، ووجهها يحمل تعابير الخوف، لكنها نظرت إلى علي نظرة غريبة، نظرة لم يفهمها.

وكيل النيابة سألها:

- أخبرينا يا بنيتي، ماذا فعل بك هذا الوحش؟

ترددت الفتاة للحظات، نظرت إلى يوسف، ثم إلى هاتس الذي كان يحدق بها بتهديد صامت، ثم إلى علي. فتحت فمها وقالت بصوت بالكاد يُسمع:

- لقد.. لقد خطفني، وحاول.. حاول إيذائي. كان يهدد بقتلي إذا لم أفعل ما يأمرني به.

شعر علي بصدمة كهربائية تسري في جسده. الفتاة التي أنقذها، التي حمى حياتها، تلدغه الآن بكل بساطة!

قفز يوسف من مكانه صارخاً:

- كذب! هذا محض افتراء! موكلي أنقذها من ذلك القاتل!

لكن القاضي ضرب بمطرقته بقوة:

- اجلس أيها المحامي! لا تثر الفوضى في المحكمة. الشهادة واضحة.

نظرت الفتاة إلى علي نظرة أخيرة، نظرة لم تكن كراهية، بل كانت مزيجاً من الخوف والعجز والأسف، ثم انزلت رأسها وغادرت المنصة.

في تلك اللحظة، انهار الأمل الأخير في قلب علي. حتى الفتاة التي ضحى بنفسه من أجلها طعنته في الظهر. أدرك أن لا جدوى من أي محاولة. كان كل شيء قد رُتب بدقة.

توجه القاضي بنظرته إلى علي، وقال بصوت جامد:

- لقد ثبتت إدانتك يا علي بالتهم المنسوبة إليك. حكمت المحكمة بإجماع الآراء، بالإعدام شنقاً حتى الموت، في ساحة المدينة أمام الجميع، ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه العبث بأمن هذا الوطن.

دوت صيحات الفرح في القاعة، وهتافات التكبير من الحاضرين. لقد حصلوا على ما يريدون:

- رأس المحامي الذي تجرأ على تحدي النظام. رفع هاتس إبهامه لعلي بابتسامة انتصار، بينما انهار يوسف على كرسيه، ووجهه بين يديه، يبكي بصمت على العدالة التي ماتت.

اقتيد علي من القفص، كانت خطواته ثقيلة، لكن هذه المرة لم تكن بسبب الوهن، بل بسبب اليأس المطلق. لم ينظر إلى أحد، ففي عينيه، لم ير سوى الظلام.

عاد علي إلى زنزانته، لم تعد مجرد زنزانة، بل صارت محض انتظار للعدم. ارتمى على الأرض، لم تعد لديه قوة حتى للبكاء. كان يشعر بخدر كامل، كأن روحه قد غادرت جسده بالفعل.

همس علي في الظلمة، وصوته كان كخرير الماء في وادٍ مهجور :

يا والدي، لقد حدث الأسوأ. لقد قتلت العدالة اليوم، وقتلت معها أنا أيضاً. أتعس من أن تموت وحيداً، هو أن تموت وجميع من حولك يصفقون لموتك.

انفتحت أبواب الزنزانة الجماعية بصرير معدني يمزق نياط القلوب، صرير كان يشبه صرخة روح تحتضر. اندفع الحارسان الغليظان، وبقسوة لا تعرف الرحمة، قبضا على ياقة قميص علي (بلال) الملطخة بالدماء والأتربة، وألقيا به داخل القاعة الكبيرة التي كانت تكتظ بأجساد السجناء المنهكة. سقط بلال على الأرض الخشنة، ولم يبدِ أي مقاومة، فقد كانت روحه قد استسلمت للعدم قبل جسده.

زحف بلال ببطء، جارّاً خلفه أذيال الخيبة، حتى استقر في زاوية معتمة، بعيداً عن نظرات الفضول والشماتة. هناك، انهار بالكامل؛ بدأ يبكي بصوت مكتوم، شهقاته كانت تخرج كأنها شظايا زجاج تمزق حنجرته. كان يبكي على المحامي الذي ضاع، على البراءة التي ذُبحت، وعلى العمر الذي سُرق منه في لحظة غدر.

وفجأة، وسط ضجيج السلاسل وهمسات اليائسين، انطلق صوتٌ لم يكن من جنس الأصوات التي ألفها بلال في قاعات المحاكم أو في غرف التعذيب. كان صوتاً رخيماً، ينساب كالنهر العذب في صحراء قاحلة، صوتاً يحمل في طياته هيبة الجبال وحنان الأمهات. لم تكن مجرد كلمات مرصوفة، بل كانت اهتزازات نورانية تخترق جدران قلبه المتفحم.

في تلك اللحظة، تجرد بلال من كل ما حوله. اختفت قضبان السجن، وتلاشت رائحة العفن، وغاب وجه هاتس القبيح وصور الحلاق الغادرة.

لم يعد يشعر بالقيود التي تدمي معصميه، بل شعر بيدٍ غيبية تمسح على روحه. بدأ يبكي، لكنه لم يكن بكاء اليأس هذه المرة، بل كان بكاءً تطهيرياً؛ كأن دموعه كانت تغسل ذنوباً لم يقترفها، وتجلو صدأً تراكم على بصيرته لسنوات.

كان ينتحب بعنف، وجسده الهزيل يرتجف مع كل آية تُتلى، حتى انتبه إليه كل من في الزنزانة؛ نظروا إليه باستغراب وتساءلوا:

ما بال هذا الرجل؟ لقد دخل محطماً، والآن يبكي وكأن روحه تُنزع منه أو تُولد من جديد!

عندما سكت الصوت، بقيت أصداؤه تتردد في أرجاء المكان كأنها بخور قدسي. اقترب منه رجل عجوز، كان الزمان قد رسم أخاديده على وجهه، لكن عينيه كانتا تشعان بنور غريب. وضع يده الدافئة على كتف بلال المرتجف، وسأله بنبرة تقطر رحمة:

- ما بك يا بني؟ ما الذي أبكاك بهذا العنف؟
- أهي وطأة السجن، أم جراح الجسد؟.

رفع بلال رأسه، وعيناه غارقتان في بحر من الدموع، ونظر إلى العجوز بذهول وقال بصوت متهدج:

- هذا الصوت.. هذا الكلام.. لقد سمعته يوماً ما! أذكر أنني بكيت حينها بذات الحرقة، لكنني لا أذكر أين.. ولا أذكر ما هذا السحر الذي يزلزل كياني ويجردني من كبريائي!

ابتسم العجوز بوقار وسكينة، وقال:

- هذا ليس سحراً يا بني، هذا هو القرآن الكريم.. كلام رب العالمين، الذي أنزله ليخرج الناس من ظلمات التيه إلى نور اليقين.

القرآن! صرخ بلال وكأن برقاً قد أضاء أقبية ذاكرته المظلمة:

- "نعم، القرآن.. أنا أذكره الآن! هذا ما قاله لي صاحب الحانوت حين كنت طفلاً ضائعاً في أزقة المدينة. وفي تلك اللحظة، انفتحت بوابات الذاكرة الموصدة.

تذكر بلال الأيام التي قضاها في كنف رجل مسلم طيب، تذكر رائحة الطمأنينة في بيته البسيط، وتذكر كيف كان ذلك الرجل يطعمه من خبزه ويمسح على رأسه اليتيم.

وفجأة، تلعثمت الكلمات في فمه، وانطلقت من بين شفتيه الآية الوحيدة التي انحفرت في وجدانه كوشم لا يمحى:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾. وقال بلهفة والدموع تسبق كلماته:

- أذكر أن الرجل الذي حفظني هذه الآية، والذي كان لي أباً حين عزَّ الآباء، كان اسمه صالح.. أين هو الآن؟ هل يعيش في هذا العالم الموحش؟

هنا، اهتز كيان العجوز، وانهمرت دموعه بغزارة لم يعهدها السجناء من قبل. كانت دموع العجوز كأنها مفاتيح فكت أسر الأرواح في تلك الزنزانة. نظر إلى بلال بعينين يملؤهما الشوق والحنين، وسأله بصوت يرتعش:

- هل اسمك.. هل أنت بلال الصغير؟

تسمّر بلال في مكانه، وهز رأسه بقوة والذهول يلجم لسانه: "

- نعم، أنا بلال! وكيف عرفت؟

قال العجوز وهو يفتح ذراعيه ليضمه إلى صدره:

- وأنا.. أنا صالح يا بني! أنا الذي كنت أراك مستقبلي، وأدعو الله أن يحفظك من غدر الزمان.

ارتمى بلال في حضن صالح، واختلطت دموع اللقاء بمرارة القهر. كان عناقاً اختصر سنين التيه والضياع. وبكى كل من في السجن تأثراً بهذا المشهد الدرامي الذي كسر هيبة السجان.

بدأ بلال يروي لصالح كيف نهشته الأيام، وكيف تحول حلمه بالدفاع عن المظلومين إلى حبل مشنقة يلتف حول عنقه بتهمة الخيانة.

تحسس صالح جروح بلال، تلك التي خلفها الحديد وتلك التي خلفتها الخيبة، وهمس بصوت متهدج:

- صرت لسان الحق في زمن الزور يا بلال؟ لا تبتئس يا بني، فالذهب لا يلمع إلا إذا صهرته النار، وكذلك روحك.

اتكأ صالح بظهره على حائط الزنزانة البارد، وانساب صوته في العتمة مرتلاً:

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

ساد صمت طويل، لم يكن صالح يشرح ديناً من الكتب، بل كان يرمي لبلال طوق نجاة وسط بحر من اليأس. حدثه عن العزة التي لا تنحني للسجان، وعن إلهٍ لا يضع في ميزانه رتباً أو قصوراً، بل يضع قلباً سليمًا.

أصغى بلال، ولأول مرة شعر أن الإسلام ليس مجرد هوية في بطاقة، بل هو تمرد على كل قيد بشرى. قال بصوت مخنوق بالدموع:

يا عم صالح، طفتُ بين كتب القانون أبحث عن مخرج، لكنني هنا، بين كلماتك، وجدتُ المخرج من سجن نفسي. أريد أن أنتمي لهذا النور.. لا أريد أن أرتجف أمام جيوفاني أو هاتس بعد الآن. أريد إلهاً واحداً يحميني من غابة البشر هذه.

نطق بلال الشهادتين، ولم تكن مجرد كلمات، بل كانت زفيراً طويلاً أخرج معه كل ذل السنين. في تلك اللحظة، لم يشعر بهالة من النور حوله، بل شعر بشيء أثمن من كل شئ : السكينة.

☆_____ بلال _____☆

اكتشفتُ مع صالح أن الآيات ليست نصوصاً تُحفظ، بل هي مطارق تكسر زنازين الروح. لم يعد الله في مخيلتي ذلك القوي البعيد الذي يراقب عذابي بصمت، بل صار القريب الذي يسند ظهري المكسور. أدركتُ أن النصر ليس في رؤية أعدائي خلف القضبان، بل في ألا أراهم داخل رأسي بعد الآن.

مسح صالح على رأسه بيقينٍ هزّ كيان بلال:

- أنت الآن حر يا بني، وهم السجناء. هم يملكون المشانق، وأنت تملك رب المشانق.

نظر بلال إلى قضبان الزنزانة، وقال بحرقة مكتومة بدموع:

- لقد قرأتُ في إحدى كتب دكتور مصطفى محمود قولاً لم أدرك أو أستشعر معانيه ، لكنني الآن أدركت معنى الحرفي لكلامه ربما لأنني استشعرت حب الله.

لا أنسى تلك الكلمات أبداً قال فيها كنت أعتقد أن العبد هو الذي يحب الله أولا ، حتى يحبه الله؛ حتى قرأت قول الله تعالى:

" فسوف يأتي الله بقومٍ يُحبُّهم ويُحبُّونه"...

فعلمت أنَّ الذي يحب أولاً هو الله....

ما أعظم أن تكون عبداً لله، حيث لا يقوم بتعذيبك ، أو ظلمك أو إهانتك.

ثم غفت عين بلال لأول مرة منذ سنوات دون كوابيس. لم تعد الزنزانة ضيقة، ولم يعد الجلاد مخيفاً. أدركتُ أخيراً أنني لم أدخل الإسلام هرباً من الموت، بل دخلته لأنني وجدتُ فيه الحق الذي طالما حاولتُ أن أعيشه، فصار ديني هو وطني الذي لا يجرؤ أحد على نفيي منه.

الفصل الثامن عشر:

أصعب المعارك هي تلك التي تخوضها صامتاً، حيث يكون عدوك هو الوقت، وسلاحك هو الصبر، والجائزة هي مجرد البقاء ليومٍ آخر.

كان فجر ذلك اليوم يزحف ببطء كئيب، كأنه يخشى مواجهة الدقائق التي سيسلب فيها الرمق الأخير من بلال. لم يكن صباحاً عادياً في السجن؛ بل كان أشبه بمراسم جنائزية استباقية. الهواء في الزنزانة كان ثقيلاً، مشبعاً برائحة الرطوبة والدموع المكتومة. استيقظ الجميع قبل الموعد، لا للنوم بل لوداع الروح التي كانت تمنحهم صبراً طوال سنوات العتمة.

بدأ السجناء يتوافدون نحو بلال بقلوب يمزقها الوجع. تقدم منه أبو أدهم ، الرجل الذي ابيضّ شعره خلف القضبان، احتضنه بشدة وهو يرتجف، ودموعه تسيل على كتف بلال.

قال بصوت مخنوق:

- يا بني، والله إن قلوبنا هي التي ستُشنق اليوم لا عنقك.

كان الوداع يمزق نياط القلب؛ فهذا يقبل جبينه، وذاك يهمس في أذنه بآيات من القرآن، وآخر يطلب منه أن يذكره عند ربه. كان مشهداً تذوب فيه القلوب الصخرية؛ سجناء بكوا كالأطفال، لأن بلال لم يكن مجرد سجين، بل كان النور الذي يذكرهم بأن في هذا العالم ما زال هناك طهر.

حين انتهى الجميع، وانفض الجمع بقلوب منكسرة، خيّم هدوء غريب على الزنزانة، هدوء ما قبل العاصفة. جلس بلال والأنفاس تتسارع في صدره بجانب

العم صالح. كان صالح يحدق في الفراغ بعينين غائرتين، تشعان بوميض من أمل أخيل إليه أنه سيموت معه.

ساد الصمت فترة قصيرة، ثم كسره العجوز بصوت متهدج:

- يا بلال.. يا بني، هل لي بسؤال؟

كانت عيناه تلمعان ببريق غريب، كأنه يتمسك بقشة في بحر هائج.

أجاب بلال بوقار، محاولاً إخفاء ارتعاش صوته:

- تفضل يا عمي صالح، كلي آذان صاغية.

بدى الحزن جلياً في نبرة العجوز وهو يسأل:

- أنت كنت من ذلك الحي.. هل تعلم شيئاً عن زوجتي وابنتي أمل؟ هل لا تزال صورتهما كما هي في ذاكرتي؟

أطرق بلال رأسه، وشعر بطعنة في قلبه. كان يود لو يمنحه خبراً يثلج صدره، لكن الصدق كان مرّاً:

- لا يا عمي.. فمنذ خروجي من تلك الأزمة، لم أعد إلى ذلك الحي أبداً. كنت أخاف من ظل جورج ، وأرتعب من ذكر اسم جيوفاني. كنت أخشى أن يلمحني أحد منهم فيعيدني إلى سجونهم الخاصة أو يسلمني للشرطة مرة أخرى.

سامحني يا عمي، فقد كنت أركض هرباً من الموت، فغفلت عن السؤال.

تكسر آخر خيط أمل في قلب صالح، وهبطت كتفاه كأن جبالاً أُلقيت فوقهما. زفر زفرة كادت تخرج روحه معها، ثم قال بصوت مكسور:

- يا بلال.. إن كتب الله لك عمراً، أو إن كان لك أحد خارج هذه الأسوار، فإنني أرجوك.. أرجوك بكل ما هو مقدس، أن توصيه بعائلتي. ابحث عنهم، أخبرهم أنني ما نسيتهم يوماً.

هز بلال رأسه بالموافقة، وشعر بذنب عظيم. كيف نسي هذا الرجل الذي كان يمسح على رأسه في طفولته الملعونة؟

كيف غابت عنه تفاصيل الوحيد الذي كان يشعره بآدميته؟

فجأة، انقطع حبل الأفكار بصوت صرير الأقفال الحديدية المزعج. دخل الضابط حسن، رجل ذو ملامح حادة تخفي وراءها بحراً من التناقضات. كان يمشي بخطى عسكرية رصينة، لكن عينيه كانتا تحكيان قصة أخرى. وقف أمام الزنزانة وقال بصوت أجش:

- أين بلال؟ اخرج معي الآن.

تقدم بلال نحوه بخطى ثابتة، مسلماً أمره لخالقه. لم يعد يهمه الموت؛ فقد تشبعت روحه بالإيمان بأن هذه الحياة ليست سوى معبر ضيق، وأن نهايته، مهما كانت قاسية في أعين البشر، هي في الحقيقة هدية من الله للانتقال إلى جنة عرضها السماوات والأرض، حيث لا ظلم، ولا جيوفاني، ولا حبال مشانق.

أخذه حسن إلى غرفة التحقيق، جلس حسن خلف الطاولة، وشبك يديه بقوة، وكان يطيل النظر إلى بلال بصمت مخيف. كانت عيناه مزيجاً غريباً من قسوة الجلاد ورحمة الإنسان. زفر حسن بصوت مسموع وقال:

- إذن يا بلال.. الموت على الأبواب، أخبرني، ما هي الهدية التي ستعطيني إياها قبل أن ترحل؟

استغرب بلال، وانفجر بضحكة هستيرية ممتزجة بالمرارة:

- هدية؟، أيها الضابط، منذ متى يعطي الموتى هدايا للأحياء؟
- أيها المغفل، لا أعتقد أن من يساق إلى حتفه ظلماً يملك ما يقدمه لجلاديه. أنتم ظلمة، ولن تنالوا مني شيئاً، لا في حياتي ولا بعد موتي

نظر إليه حسن بحقد مفتعل، وقال بصوت حاد:

- إذن هذه الشجاعة التي تتشدق بها الآن.. لماذا لم تظهرها أمام القاضي؟ لماذا وقفت صامتاً كالنعجة؟

رد بلال بابتسامة ساخرة:

- سلامة ذكاءك يا حضرة الضابط! كان يجب أن تدرك وحدك أن العدالة في هذا المكان عمياء، وأن صوتي لم يكن ليخترق آذاناً صمّتها الرشاوي والولاءات.

هنا، تغيرت ملامح حسن فجأة، وظهرت على وجهه ابتسامة صغيرة، غامضة ومريحة في آن واحد. اقترب بجسده من بلال وقال:

- سأعيد سؤالي مرة أخرى، والجواب لك.. ماذا ستعطيني مقابل أن أخرجك براءة من هنا؟

صعق بلال، تجمدت الدماء في عروقه. حاول التماسك، ظناً منه أنها مجرد لعبة سادية يمارسها هذا الضابط في ساعاته الأخيرة:

- لا أعلم ما الذي تريده، فأنا لا أملك حطام الدنيا. ثم إن وفاءك لعملك لا يجب أن يكون له ثمن.

استسلم حسن لنبض الخير في أعماقه، وخلع قناع الضابط القاسي ليظهر شخصيته الحقيقية:

- حسناً يا بلال، استمع إليّ جيداً. ستخرج براءة.

صرخ بلال بانفعالية:

- براءة؟!!.
- نعم، براءة! لدي شاهد ومجموعة أدلة ستقلب الطاولة، وستنزع عنقك من حبل المشنقة. ربما ستدفع فدية بسيطة فقط لتسوية الأوراق، لكنك ستكون حراً.

بدأ حسن يسترجع شريط الذكريات أمام بلال المذهول:

- في ذلك اليوم، حين كان الجميع يحتفل بإدانتك، كنت أنا أبحث في مكب النفايات.

بحثت لساعات حتى عثرت على دليل أهمله الجميع. قادني البحث إلى كوخ مهجور مقام وسط القاذورات، وهناك وجدت الرجل الذي عالجك حين نجوت من قبضة الموت.

هذا الرجل هو دليلي القاطع؛ ففي الوقت الذي وقعت فيه الجرائم المنسوبة إليك، كنت أنت طريح الفراش في ذلك الكوخ بعيداً عن المدينة. لقد سجلت اعترافه صوتياً لذلك للرجل للحفاظ على سلامته.

أكمل حسن وصوته يزداد حماساً:

- ولم أكتفِ بذلك، بل ذهبت إلى الشاهدة سارة. واجهتها بضميرها، وأخبرتها أن شهادتها الزور ستقتل إنساناً بريئاً.
- لقد اعترفت لي أن الضحية هي التي خطفتها وليس أنت ، وعندما وقفت أمام الجثة أنا وهاتس في ذلك اليوم لم يكن حول معصمه ذلك الشريط الأخضر الذي ادعى الضابط هاتس وجوده.

هاتس زيف الأدلة يا بلال، لأن القاتل الحقيقي هو أخوه! أراد التضحية بك لإنقاذ دمه.

سأله بلال بدموع بدأت تترقرق:

- لماذا فعلت هذا يا ضابط حسن؟ لماذا خاطرت بمنصبك لأجلي؟

تنهد حسن وقال:

- في البداية، أردت التجاهل، فهاتس زميلي ولم أعهده يظلم أحداً قبلك. لكن طيف والدي المتوفى ظل يلاحقني في أحلامي ويقظتي. كان يقول لي دائماً:
- يا حسن، عملنا وجد لنصرة المظلوم، لا لمحاباة الظالم.

وهكذا، قررت التحرك. سأدفع باتجاه تبرئتك بحجة الدفاع عن النفس، أو على الأقل تأجيل الإعدام للبحث عن دليل أقوى، ولا تقلق، سأبحث حتى لو كلفني ذلك حياتي.

ثم نظر إلى ساعته وقال بجدية:

- استعد، فموعد إعدامك في الواحدة ظهراً، أي لم يبقَ لك سوى ساعة واحدة فقط، وسأبذل قصارى جهدي في هذه الساعة.

خر بلال ساجداً في مكانه، يلهج لسانه بالشكر لله. كان يشعر بعظمة الله وقدرته التي تجلت في أضيق الأوقات. تذكر قول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

انهمرت دموع بلال بغزارة، لم يكن بكاء ضعف أو انكسار، بل كان بكاء القوة والسكينة.

نظر الضابط إليه وقال:

- "أتبكي الآن يا بلال"؟
- يا لك من طفل ساذج حقاً.. كل هذه المدة وأنت تتظاهر بالثبات، وفي النهاية تنهار كالأطفال الصغار بسبب خبر بسيط؟ هل دموعك رخيصة إلى هذا الحد؟"

رفع بلال رأسه، كانت عيناه حمراوين، لكن نظراته كانت ثاقبة. مسح دموعه بطرف ثوبه الخشن، وأخذ نفساً عميقاً كأنه يسترد أنفاسه التي ضاعت في سنوات الانتظار.

قال وصوته يرتجف بصدق:

- "هل تسمي براءتي خبراً بسيطاً؟
- أيها الضابط، أنت لا تعرف معنى أن يعيش الإنسان وهو متهم بشيء لم يفعله، أن يمشي في الطرقات والعيون تلاحقه كأنها نصال سكاكين. هل من عقلك حقاً أن تقول إن من يجد دليل براءته ساذج لأنه بكى؟"

سكت بلال قليلاً، ثم تابع بنبرة فيها نوع من التحدي الهادئ:

- "ليس من السيء أن نبكي أيها الآخرق.. البكاء هو اللغة الوحيدة التي لا تكذب. لا تقل لي إنك لم تبكِ في حياتك أبداً. ألم تشعر يوماً بفرحة غامرة هزت كيانك؟
- أو بحزن ثقيل جثم على صدرك حتى كاد يخنقك؟
- ألا تعرف ما هو البكاء يا سيادة الضابط؟"

تغيرت ملامح الضابط في تلك اللحظة. تلاشت السخرية وحل مكانها نوع من الذهول الممزوج بحزن قديم مخبأ في تجاعيد وجهه.

تراجع إلى الخلف واتكأ على كرسيه، ثم قال بصوت خافت كأنه يتحدث لنفسه:

- "مع الأسف.. إنني إنسان. وهل يوجد إنسان في هذه الدنيا يعيش بلا أحزان؟"

ساد الصمت الغرفة، صمت طويل لدرجة أن صوت دقات الساعة المعلقة على الحائط صار يشبه ضربات المطر على سقف معدني. استطرد الضابط قائلاً:

- أحاول دائماً، رغم الحزن الذي يسكنني وضيق الصدر الذي لا يغادرني، أن أنسى.. أتظاهر بالنسيان لكي لا أبكي. أنا أخفي جرعات قاتلة من الألم، والكثير من التعب الذي لا ينتهي، وأطنانًا

من الخذلان الذي تلقيته من أقرب الناس إلي.. كل هذا أخفيه خلف كلمة واحدة أرددها للجميع:

أنا بخير والحمدلله.

لكنني، رغم كل ذلك، لست ضعيفاً مثلك وأبدأ بذرف الدموع.

قام الضابط من مكانه وبدأ يسير في الغرفة بخطوات رتيبة، ثم وقف أمام النافذة الصغيرة التي لا تُظهر إلا جزءاً من السماء المظلمة. تابع حديثه بنبرة حادة:

- "هل فهمت الآن يا بلال؟ أم أنك مثل البقية، يصعب عليك استيعاب أن خلف كلمة أنا بخير هناك جبال من الكلام المكتوم؟ أجبني.. ألا تفهم هذا الصمت، أنت أيضاً؟"

رد بلال بهدوء، وهو ينظر إلى ظهر الضابط المتصلب:

- "أنا أفهمك تماماً.. بل ربما أفهمك أكثر مما تفهم نفسك. لكن سؤالي هو: لماذا تصر على عدم البكاء؟

أنت تقول إن البكاء ضعف، لكنني أراه راحة للقلب وتطهيراً للروح. بنظري، أنت هو الضعيف هنا، ولست أنا.

هروبك من مشاعرك هو الضعف بحد ذاته. أنت تخاف من دمعتك لأنك تظن أنها ستكسر هيبتك، لكن الحقيقة أنها ستكسر القيد الذي يلتف حول قلبك. صدقني، سوف ترتاح كثيراً إن بكيت."

التفت الضابط فجأة، كانت عيناه تشتعلان غضباً وحزماً. صرخ بصوت هز جدران الغرفة:

"وهل قلت لك إنني لم أحاول؟ أقسم لك بأنني حاولت! لقد حاولت بكل قوتي أن أخرج دمعة واحدة تطفئ النار التي بداخلي. أنا أعرف تماماً أن الأمور التي نهرب منها تلاحقنا، تلاحقنا في يقظتنا وفي أحلامنا، وتجبرنا على مواجهتها عاجلاً أم آجلاً."

انخفض صوته فجأة ليصبح همساً مبحوحاً مليئاً بالانكسار:

"لكنني حاولت البكاء وأقسم أنني حاولت.. لكنني وجدت داخلي فارغاً تماماً. عيناي قاحلتان، جفت الدموع فيهما منذ زمن بعيد.

أحاول أن أبكي، أضغط على جفوني، أتذكر كل مآسي حياتي، لكن لا شيء يخرج. أصبحت أشتهي البكاء كما يشتهي الجائع رغيف الخبز. أتمناه في كل دقيقة، لعلي أشعر بذرة من الراحة، لعلي أحس بأنني ما زلت حياً.. لكنني فعلاً لا أستطيع."

اقترب الضابط من الطاولة مرة أخرى، وسند يديه عليها. كانت المسافة بينه وبين بلال صغيرة جداً. وفي تلك اللحظة، حدث شيء لم يتوقعه الضابط نفسه. بدأت عيناه تلمعان، ثم امتلأتا بالدموع التي كانت محبوسة لسنوات طويلة خلف جدران الكبرياء.

قال بلال بحزن:

لقد ذكرتني أيها ضابط بكلام قرأته في كتاب لغسان كنفاني يقول فيه : كم هي قاسية ومؤلمة اللحظة التي يريد فيها الإنسان البكاء ورغم ذلك فهو لا يستطيع.

شعر الضابط ببرودة الدموع وهي تتجمع في محاجر عينه لأول مرة. كان شعوراً غريباً، مرعباً، ومنعشاً في آن واحد. أحس بضعفه يخرج إلى العلن، وبكلماته التي قالها لبلال تنهار أمام واقع عاطفته.

غادر حسن المكان مسرعاً، ولم يضف كلمة أخرى؛ فقد خشي أن تغلبه مشاعره أمام دموع ذلك المظلوم فيبكي هو الآخر، وهو الضابط الذي اعتاد إخفاء مشاعره.

عاد بلال إلى زنزانته، والسكينة تغمر وجهه. توجه نحوه العم صالح بلهفة، فروى له بلال كل ما جرى. ابتسم العجوز بوقار، وقال كلاماً يقطر حكمة: أرأيت يا بني؟ إن الله يمهل ولا يهمل.

نصر الله لا يأتي بجدول زمني نضعه نحن، بل يأتي في اللحظة التي يظن فيها الظالم أنه قد ملك كل شيء، ويظن المظلوم أنه قد فُقد كل شيء. إن الله سبحانه يحب أن يرى يقين عبده في اللحظات الأخيرة، عندها يفتح له أبواباً لم تكن في الحسبان .

أمسك بلال يد العجوز صالح بقوة، وقال بصوت مليء بالعزم:

- يا عمي، أقسم لك بالله العظيم، الذي نصرني في هذه الساعة، أنني عند إثبات براءتي لن أرتاح حتى أخرجك من هذا المكان. سأكون لابنتك أمل وزوجتك الأهل والسند.

سأحفظ عائلتك في قلبي، وسأظل أزورك هنا في كل يوم حتى تتحرر وترجع إليهم. كان هذا القسم عهداً مقدساً قطعه بلال على نفسه أمام الله.

بعد مرور ربع ساعة، تغير جو السجن فجأة. سمع الجميع صوت الحارس وهو يطرق القضبان الحديدية بعصاه البوليسية بقوة غير معهودة. كان يجوب الممرات ويصرخ بصوت مرتفع وصل إلى مسامع كل سجين:

سيتم تأجيل جميع الإعدامات لهذا اليوم لثلاث ساعات! أكرر... سيتم تأجيل جميع الإعدامات لثلاث ساعات!

دبت في الزنزانات حالة من الدهشة المختلطة بالفرح.

السجناء بدأوا يكبرون ويهللون، ظناً منهم أن معجزة قد حدثت، أو أن عفواً عاماً قد صدر.

بينما ظل بلال واقفاً في مكانه، يتساءل بقلب منقبض:

- لماذا ثلاث ساعات؟ هل هي المهلة التي يحتاجها حسن لإكمال الأوراق؟

تقدم أحد السجناء، وهو صديق مقرب من الحارس، وناداه بملء صوته:

- أيها الحارس! ما الذي حدث؟ هل هناك عفو؟

اقترب الحارس من القضبان، وكان وجهه شاحباً كالموت، وعيناه محمرتان.

حاول إخفاء دموعه وهو يهمس بصوت منخفض سمعه بلال بوضوح:

- لقد وجدنا الضابط حسن مقتولاً في مكتبه.. بطلقة في الرأس.

تجمد بلال في مكانه. سقطت الكلمات على مسمعه كالصواعق التي تحرق الأخضر واليابس.

صرخ بلال صرخة مزقت سكون السجن:

- قتل؟! قتل؟! كيف حدث ذلك؟!.

تلاشت الفرحة وحل محلها رعب قاتل. أخبر السجين البقية بالخبر، فخيم صمت جنائزي رهيب. شعر بلال أن الأرض تدور به.

الشخص الوحيد الذي كان يحمل مفتاح نجاته، ها هو الآن قد مُحي من الوجود. بصيص الأمل الذي رآه قبل قليل عاد ليتلاشى، تاركاً خلفه ظلاماً أكثر حلكة. لقد قُتل حسن، وقُتلت معه الأدلة، وسُفن النجاة غرقت قبل أن تصل إلى الشاطئ.

جلس بلال على الأرض الباردة، يسند ظهره إلى الجدار. كانت روحه تئن من سوء الحظ الذي يطارده كظله.

- يا الله.. همس بها وصدره يضيق، ما هذا القدر؟ هل يُكتب لي النجاة ثم تُسلب مني في لحظة؟ هل كان حسن هو القربان الذي قُدم ليؤجل موتي لثلاث ساعات فقط؟.

التفت بلال إلى العم صالح الذي كان يرتعد، وقال بصوت حاد كالسكين:

- لقد قتلوه يا عمي!

- لم يقتلوه لأنه ضابط، بل قتلوه لأن الحقيقة كانت في جيبه.

اندفع بلال نحو القضبان، ممسكاً بها بقوة كأنه يريد اقتلاعها، وصرخ في وجه الحارس الذي كان يحاول الابتعاد:

- اسمعني أيها الحارس! إن كنت تخشى الله، فاعلم أن حسن لم يمت منتحراً كما سيقولون لكم غداً.

حسن قُتل لأن الملف الذي يحمله يدين القاتل الحقيقي! أخبرهم.. أخبر أي أحد أن الأوراق موجودة، لا تدع دم حسن يذهب سدى كما ضاع عمري! لكن الحارس أشاح بوجهه ومضى مسرعاً، يجر خلفه ذيول الخوف من بطش هاتس.

عاد بلال إلى وسط الزنزانة، وبدأ يذرعها ذهاباً وإياباً كنمط محبوس. نظر إلى ساعته المعلقة في مخيلته؛ ثلاث ساعات.. مائة وثمانون دقيقة تفصل بينه وبين المشنقة، وبين هاتس وبين النجاة بجريمته. فجأة، توقف بلال ونظر إلى العم صالح بعينين تلمعان بقرار انتحاري:

- يا عمي، إن كان حسن قد قدم حياته ثمناً لهذه الساعات الثلاث، فلن أقضيها في البكاء.

سأجعل من صمتي في غرفة الإعدام صرخة تزلزلهم. سأطلب مقابلة المدير، سأفضح اسم هاتس أمام الجميع قبل أن يلف الحبل عنقي. إذا كان الموت قد كُتب، فليكن موتاً يجرهم جميعاً إلى الجحيم معي.

نظر له العم صالح بحزن وقال:

- لن يسمعوك يا بني لذلك لا تتعب نفسك، أنتظر الأمر يمضي وانك شهيد بإذن الله.

الفصل التاسع عشر:

الظلم لا يكسر العظام، بل يفتت الثقة في عدالة السماء حتى يشعر المظلوم أنه نسيئة في سجل الوجود.

كانت الجدران في سجن شباينبرغ العتيد لا تكتفي باحتجاز الأجساد، بل كانت تمتص الأرواح. الساعة الأولى من المهلة لم تمر كدقائق، بل مرت كأنها طواحين عملاقة تطحن عظام الوقت. الصمت في الممرات لم يكن هدوءاً، بل كان زئيراً أبكماً، صمتاً يغلي فوق فوهة بركان. مقتل الضابط حسن لم يكن مجرد جريمة اغتيال خلف الأبواب المغلقة، بل كان صرخة مكتومة بالدم تخبر الجميع:

- إن ملف بلال هو التابوت الذي سيُدفن فيه كل من يجرؤ على نبشه.

بلال، ذلك الشاب الذي نحتت الغربة ملامحه، لم يعد يبكي. جفت مآقيه حتى صارت كأرضٍ سبخة. كان يجلس في زاوية الزنزانة، جسده هناك، لكن روحه كانت تحلق بعيداً، تطارد شعاع ضوءٍ هزيل يتسلل من كوة مرتفعة، شعاع يبدو كخيط حرير يربط بين موته الوشيك وحريةٍ لن ينالها إلا تحت التراب.

التفت إليه العم صالح، ذلك الرجل الذي اختصر التاريخ في تجاعيد وجهه. بدا وكأن الساعات الأخيرة قد سرقت من عمره عقداً كاملاً. اقترب من بلال، وضع يده المرتجفة على كتفه وهمس بصوت يخرج من أعماق بئر سحيق:

-

"بلال.. يا بني، اسمعني جيداً. إن كان حسن قد ترجل عن صهوة الحياة، فإن دمه ليس حبراً ضائعاً. الظلم، مهما بلغ جبروته، هو بناءٌ أخرق، دائماً ما يترك القاتل في زحام خوفه خيطاً واحداً يتدلى من كفن الحقيقة. لا تستسلم لبرودة اليقين بالموت، بل استسلم ليقين العدالة التي لا تنام".

لم يكد صدى كلمات صالح يتلاشى حتى دوت في الردهة أصوات لم يألفها السجناء. لم تكن خبطات أحذية الحراس الرتيبة، بل كانت قرعات أحذية عسكرية ثقيلة، رصينة، تحمل هيبة الموت الرسمي. فُتح الباب بصرير يمزق نياط القلب، ودخل العقيد مراد. كان يجسد الصرامة في أبهى صورها الكالحة، وفي يده ملفٌ ورقي، حوافه متآكلة، وتلطخه قطرات جافة من دمٍ قاني، بدت كأنها أختامٌ من الجحيم.

نظر العقيد إلى بلال طويلاً، نظرة خالية من أي شفقة، نظرة الموظف الذي ينفذ بروتوكولاً جنائزياً. قال وصوته يتردد في الزنزانة كقصف الرعد في ليلة شاتية:

بلال.. بلغت الساعة الرابعة. انتهى زمن الانتظار. لقد فقدنا حسن، وفقدنا معه آخر ذرة من التساهل. سيُنفذ الحكم الآن، بلا هوادة، وبلا تأجيل.

اقتيد بلال وسط حراسة مشددة. الممر كان طويلاً، طويلاً جداً، كأنه جسر بين عالمين. أدخلوه غرفة التلقين، تلك الغرفة الباردة التي تشهد على الزفرات الأخيرة للمحكومين. وضع العقيد أمامه ورقة بيضاء وقلم رصاص، وقال ببرود: وصيتك الأخيرة. عشر دقائق فقط.

غادر العقيد، وبقي بلال وحيداً مع الورقة. أمسك القلم، كانت يده ترتجف كعصفور بلله المطر، ودموعه التي حبسها طويلاً خلف جفونه بدأت تغلي كالحمم. استجمع قواه، استشعر عظمة الخالق في تلك اللحظة الفارقة، وخطّ بيمينه:

بسم الله الرحمن الرحيم.. بسم من إليه المصير، ومن عنده تلتقي الخصوم.

"أكتب هذه الكلمات وأنا أقف على الحافة الرفيعة بين الشهيق الأخير والخلود. اليوم، وأنا أواجه مقصلة الظلم، أشعر أنني لم أعرف طعم الحرية إلا في هذه الزنزانة. لقد اختنقت بروحانيات هذا الدين العظيم، دين الإسلام، الذي لم يزده القيد إلا شموخاً في قلبي. إنني اليوم أعتنق فخري بهذا الدين الذي جعلني أرى النور وأنا في غياهب العتمة.

يا الله.. لستُ نادماً على إسلامي، بل أنا فخور بأنني سألقاك وأنا أردد لا إله إلا الله، الكلمة التي زلزلت عروش الطغاة في صدري قبل أن تزلزل واقعهم. لقد علمني إسلامي أن القيد في اليد أهون بآلاف المرات من قيد الذل في الروح. أنا فخور بكوني أنتمي لأمةٍ تمرض ولا تموت، أمةٍ تجعل من الموت في سبيل الحق عُرساً، ومن الظلم درساً في الصبر.

الحمد لله الذي ابتلاني بهذه المصيبة ليريني معادن الرجال، فلولا هذا الضيق لما عرفتُ بطل طفولتي، العم صالح، الذي علمني أن الأمل لا يشيخ خلف القضبان، وأن الحق كالذهب، كلما زادت عليه النار زاد بريقاً. وعلمتُ أيضاً أن الضابط حسن، ذلك الرجل الذي سقط شهيداً، كان يحمل في صدره إيماناً يفتت الصخر، كان مسلماً يخفي ديانته ليحمي الضعفاء، وها هو قد سبقني إلى جنات الخلد، ليكون حجةً على كل ظالم. لقد ذهب شهيداً في محاولة مقدسة لنصرة الحق، وسأذهب خلفه متمسكاً بنفس الثبات.

إلى صديقي يوسف..

أخي الذي لم تلده أمي، يوسف.. أعتذر لك لأنني تركتك وحيداً في مواجهة رياح الغربة. أعتذر لأنني لن أحضر زفافك، ولن أشاركك أحلامنا الصغيرة التي رسمناها في شوارع المدينة. لكن يا يوسف، لا تبكِ عليّ بالدموع، بل ابكِ

عليّ بالثبات. إذا مررت بقبري، فلا تقل مات المظلوم، بل قل ولدت الحقيقة. كُن رجلاً كما عهدتك، ولا تجعل رحيلي يكسر انحناءة ظهرك، بل اجعل دمي وقوداً لإيمانك بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

يا من تقرؤون هذه السطور بعد أن يبرد جسدي..

لا تظنوا أن الموت نهاية الحكاية، الموت هو الصرخة التي توقظ الضمائر النائمة. أوصيكم بالعم صالح، فهو إرثي الوحيد، اجعلوه يرى النور الذي حُرمت منه. وأوصيكم بعائلة الشهيد حسن، أخبروهم أن والدهم لم يكن خائناً، بل كان بطلاً دفع حياته ثمناً ليفدي رقبة بريء لم يره من قبل.

أنا بلال.. الذي عاش غريباً، ومات مظلوماً، وسيبعث بإذن الله شاهداً على عصرٍ ضاع فيه الحق بين كفتي ميزانٍ مائل. إنني أشم الآن ريح الجنة، فوداعاً لدنياكم الزائفة، وأهلاً بخلودٍ لا ظلم فيه. استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

وضع بلال القلم، وقد ابتل ورق الوصية بدموع لم تكن دموع انكسار، بل كانت وداعاً أخيراً لجسد لم يعد يتسع لروحه الكبيرة. دخل العقيد مراد، سحب الورقة بخشونة، لكنه حين قرأ السطر الأول، اهتزت يده قليلاً، ونظر إلى بلال نظرة لم يستطع فيها إخفاء ذهوله من ذلك الثبات الأسطوري.

انتهى الوقت يا بلال.. استعد.

خرجت سيارة الشرطة من بوابات السجن الحديدية، يحيط بها سرب من الدراجات النارية كأنها غربان سوداء تنعى الضحية قبل ذبحها.

في الداخل، كان بلال يجلس مقيداً بحديدٍ بارد، لكن قلبه كان يحترق بيقينٍ غريب. نظر من النافذة الصغيرة، فرأى برلين التي أحبها تتغير ملامحها؛ الشوارع التي كان يمشي فيها غريباً، أصبحت اليوم مسرحاً لموته. كانت رائحة الهواء غريبة، مزيجاً من دخان المصانع ورائحة الخوف.. أو ربما كانت تلك هي رائحة الموت التي تسبق الرحيل.

وصلت المسيرة إلى الساحة الكبرى بوسط المدينة. الحشود كانت تملأ الأفق، آلاف الوجوه تجمعت كأمواج هادرة. هناك من جاء ليشمت، وهناك من جاء ليبكي سراً، وهناك من دفعه الفضول لرؤية الوحش الذي أرعب المدينة لشهور طويلة

في وسط الساحة، ارتفعت منصة الإعدام الخشبية، سوداء، كئيبة، تتحدى السماء بقبحها، ويتدلى منها حبل المشنقة كأفعى جائعة تنتظر فريستها.

وقف الجلاد بجانب الحبل، ضخم الجثة، وجهه مغطى بقناع أسود لا تظهر منه إلا عينان باردتان كقاع المحيط، يديه الخشنتين تداعبان العقدة القاتلة ببرود مخيف.

ارتقى العقيد مراد المنصة، وأمسك بالمذياع، فخيم صمت جنائزي على الساحة. قال بصوتٍ جهوري يهز أركان النفوس:

يا سكان برلين.. اليوم نغلق فصلاً من الرعب. اليوم ننتصر للضحايا. أمامكم القاتل الذي سفك الدماء ولم يرحم صرخات الضعفاء. بلال، الغريب الذي رد الجميل بالخيانة. لن تشرق شمس الغد وهناك قلب ينبض بالإثم في صدور القاتلين. باسم القانون، وباسم العدالة، سيُنفذ حكم الإعدام بلا هوادة، ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه العبث بأمننا!

انفجرت الحشود بين صرخات

الموت للقاتل! واقتلوه الآن!،

الموت للقاتل! واقتلوه الآن!.

وبين وجوهٍ أخرى كانت تنظر للأرض بخزي، تشعر في أعماقها أن شيئاً ما في هذا المشهد ليس صحيحاً.

أُنزل بلال من السيارة. كانت خطواته نحو المنصة بطيئة، رصينة، كأن كل خطوة هي صلاة أخيرة. كان يرى أحذية الناس، يسمع سباتهم، لكن روحه كانت تسمع تسبيح الملائكة. ارتقى درجات المنصة الخشبية، وصوت ارتطام حذائه عليها كان كدقات ساعة القيامة.

وضع الجلاد الحبل حول عنقه. خشن الملمس، بارد كالموت. أغمض بلال عينيه، استنشق بقايا هواء الدنيا، وتمتم بشفتين ذابلتين:

أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمداً رسول الله.

أطلق العقيد مراد رصاصة في جو يأمر بها الجلاد ببدء الشنق.

صرخ ناس بصوت واحد ،سُحبت الرافعة، ومع الأسف قتل بلال.

هوى جسد بلال. انقطع الهواء. بدأت روحه تتأرجح في برزخ الخلاص، شعر بضغط الحبل يحاول انتزاع أنفاسه، اسودّت الدنيا في عينيه، وبدأ نبضه يتسارع في صراعٍ يائس مع الفناء. صرخ الناس بجنون:

مات القاتل! مات القاتل!.

وفجأة، شق الزحام صوتٌ يمزق الحناجر، صوتٌ يحمل حرارة الروح:

"توقفواااا! توقفوا باسم الحقيقة!".

كان يوسف، المحامي والصديق، يركض نحو المنصة وهو يلوح بملفٍ والدموع تنهمر على وجهه. صرخ في وجه والعقيد:

أوقفوا المشنقة! أنا أملك دليل براءة بلال القاطع!.

ارتبك العقيد، وأشار للجلاد الذي سحب بلال بسرعة قبل أن تنكسر رقبته. سقط بلال على خشب المنصة، يشهق شهقاتٍ متتالية، صدره يرتفع ويهبط كغريقٍ عاد للحياة للتو، وجهه محتقن بالدم، لكنه بدأ حاول أن يستنشق الحياة مرة أخرى، أراد أن يعيش لينتقم.

جن جنون الضابط هاتس، اقترب بملامح شيطانية، وسحب سلاحه وصوبه نحو رأس بلال الملقى أرضاً وصرخ: إنه قاتل! هذا تلاعب بالقانون! سأقتله بيدي!.

لكن العقيد مراد صرخ بقوة: أخفض سلاحك يا هاتس! سنسمع ما لدى هذا الرجل أولاً. التفت العقيد للحاكم المسؤول عن جميع سجون في برلين أومأ برأسه موافقاً تحت ضغط الفضول الشعبي.

وقف يوسف على المنصة، وصوته يرتجف بالانفعال: سيدي العقيد، يا شعب برلين المخدوع.. في الوقت الذي كنتم تحتفلون فيه بإدانة هذا البريء، كنت أنا وضابط حسن نحفر في مكبات النفايات والأنقاض. لقد توصلنا للحقيقة بدمائنا.

لقد ذهبتُ إلى الكوخ المهجور وسط القاذورات، وهناك وجدت الرجل الذي عالج بلال حين هرب من إحدى العصابات.

هذا الرجل شهد وسجلتُ قوله أنا وضابط حسن ، بأن بلال في وقت الجريمة كان طريح الفراش، عاجزاً عن الحركة، فكيف يقتل وهو بين الموت والحياة؟

ولم أكتفِ بذلك، بل واجهت سارة، الشاهدة التي أُجبرت على الكذب. لقد اعترفت أن الضحية لم يكن حول معصمه الشريط الأخضر، وأنه هو من اختطفه وليس بلال، هاتس زيف الأدلة يا سيدي، لأن القاتل الحقيقي هو شقيقه! أراد أن يضحي بدم غريب لينقذ دمه!

صاح يوسف بحرقة: "أنا وضابط حسن كنا يداً واحدة، وهو من قادني لهذه الخيوط، وأنا مستعد لإحضاره ليشهد الآن!.

ساد صمت مرعب، ثم انطلقت ضحكة هيستيرية من هاتس وهو يصرخ: "حسن؟! حسن مات ظهيرة اليوم يا غبي! لن يشهد معك أحد من القبور!"

تسمر يوسف في مكانه، صُعق الخبر في أذنيه كالصاعقة. سقطت دمعة حارقة من عينه وهو يهمس:

قتلوه.. قتلوا صديقي.

لكنه تماسك ببطولة وقال: موت حسن هو الدليل الأكبر على صدقي!

لقد قتله من يخاف من الحقيقة!.

في تلك اللحظة، شقت فتاة الجموع، كانت سارة. صرخت بصوتٍ متهدج:

صدق يوسف! الضابط هاتس جاء إلى منزلي وهددني لأن بلال سوف يقتل عائلتي إن لم أشهد زوراً! بلال ليس قاتلاً، بلال هو من أنقذني من بين يدي القاتل الحقيقي، لقد دافع عني بشرف.

توقف الحاكم، نظر إلى الحشود التي بدأت تهمس، ثم بدأ يصفق ببطء، تصفيقاً ينم عن الصدمة والإعجاب. قال:

- يا له من شاب محظوظ.. ويا له من ظلم كدنا نرتكبه. يا سكان برلين، هل تعفون عن بلال؟

انفجر الميدان بزلزال بشري:

- الحرية لبلال! الحرية للبريء! الموت للخونة!.

نظر إلى بلال وقال لك حريتك أيها المحظوظ كما أنني سوف أنفذ لك طلب واحد مهما صعب ، لكي لا يتبقى لك شئ عندنا ..

رفع بلال رأسه وقال ، أريد كم أن تتلقوا سراح رجل عجوز يدعى صالح، هذا هو طلبي...

نظر له الحاكم وقال سوف أفكر في هذا ، أن لم يكن يشكل خطر على آمننا فلك ما تريد.

التفت العقيد مراد إلى هاتس، وكانت عيناه تشتعلان غضباً: إذن.. القاتل هو أخوك، وأنت من قتل حسن لتغطي على جريمتك؟.

تقدم ضابط شاب من المخابرات، ومد هاتفه للعقيد قائلاً:

- "سيدي، هذا التسجيل وجدناه في بريد الضابط حسن، أرسله قبل مقتله بدقائق. إنه تسجيل لمشادة بينه وبين هاتس".

تعالى الصوت في المذياع، كان صوت حسن يقول بثبات: "

هاتس، ملف بلال سأفتحه غداً أمام الجميع، لن أسمح لك بقتل بريء لتنقذ أخاك المجرم. وصوت هاتس يرد بصراخ وجنون:

إن فعلت ذلك يا حسن، ستكون نهايتك اليوم! لن يوقفني أحد!.

انتهى التسجيل بصوت طلقة غادرة. سقط السلاح من يد هاتس، وارتجفت ركبتاه وهو يرى نظرات الاحتقار من الشعب الذي كان يطالب بموت بلال قبل قليل.

اقترب يوسف من بلال، فك قيده، واحتضنه بقوة والدموع تغسل جراحهما. همس يوسف في أذن بلال: لقد فعلناها يا صديقي.. حسن يبتسم الآن من السماء.

وقف هاتس في وسط المنصة كذئبٍ جريح حاصرته النيران. كان يرى إمبراطورية كذبه تنهار، ومستقبله يتحول إلى حبل مشنقة يلتف حول عنقه. جحظت عيناه، واستجمع كل ما في قلبه من حقدٍ أسود، وسحب سلاحه المخفي بحركةٍ جنونية.

صرخ هاتس وصوته يخرج كحشرجة شيطان:

- أتحتفلون؟! تظنون أنكم قد انتصرتم؟!

لا يا بلال.. لقد سلبتموني كل شيء، والآن سأسلبك أنفاسك التي استعدتها للتو! اذهب إلى حسن، اذهب لتعانقه في الجحيم!".

في اللحظة التي ضغط فيها هاتس على الزناد، انقض يوسف كالصقر، لم يفكر ببدلته الأنيقة ولا بمستقبله، بل فكر في جسد صديقه الذي لا يقوى على رصاصة أخرى. دوى الانفجار، واهتزت الساحة.. لكن الرصاصة لم تستقر في صدر بلال.

ارتمى يوسف للخلف، وقد انفتحت في صدره فوهة بركان قانية. سقط على الخشب كشجرة ياسمين اقتلعتها ريح عاتية. اندفع رجال الشرطة كالوحوش نحو هاتس، طرحوه أرضاً، وقيدوا يديه وهو يصرخ بجنون، لكن بلال لم يرَ أحداً منهم. كان العالم قد اختصر في جسد يوسف الملقى على الأرض.

ارتمى بلال فوق صديقه، وضع رأسه على حجره، وبدأ يحاول كتم الدم المتدفق بكفيه المرتجفتين. صرخ بلال صرخةً شقت عنان السماء:

- يوسف! لا.. ليس الآن! لقد انتصرنا يا أخي، قُم لنرحل من هنا! يوسف.. تمسك بي، لا تتركني وحيداً في هذا العراء!".

فتح يوسف عينيه ببطء، كانت نظرة الوداع تفيض بحنانٍ أبدي. ابتسم ابتسامة باهتة، ورفع يده الملطخة بدمه ليمسح دمعة سقطت من عين بلال. قال بصوتٍ يتقطع كأنفاس الفجر:

- "بلال.. يا رفيق الروح.. لا تبكِ. لقد كنتَ دائماً القضية التي تستحق أن أموت من أجلها. السجن لم يكسرك، فلا تدع موتي يكسرك. أنت لست مجرد صديق، أنت نبض الحقيقة في عالمٍ من زيف. ارفع رأسك.. لقد أديتُ الأمانة.. ووصلتُ بك إلى شاطئ النور."

توقفت الكلمات في حنجرته، وبدأت الروح تحلق. نظر إلى السماء، وتمتم بآخر ما يملكه من قوة:

- "أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمداً رسول الله".

ثم ارتخت يده، وانطفأ بريق عينيه، ورحل يوسف.. رحل المحامي الذي ترافع بدمه قبل لسانه.

كانت الجنازة زلزالاً هز أركان برلين. لم تكن جنازة لشخصين، بل كانت تظاهرة للضمير الإنساني. سار الآلاف خلف نعشي يوسف وحسن. كان النعشان محمولين على الأكتاف، يحيط بهما الصمت المهيب والدموع الحارقة.

مشى بلال في المقدمة، كان يمشي كجبلٍ من الصخر، وجهه لم يعد يحمل ملامح ذلك الشاب المنكسر. كانت عيناه تلمعان ببريقٍ جديد، بريق اليقين المسلح نظر إلى قبر حسن، الذي مات ليحمي الحق، وإلى قبر يوسف، الذي مات ليحمي الصديق.

عندما وُضع يوسف في ترابه، انحنى بلال، وقبّل حفنة من التراب ووضعها على القبر، وهمس بصوتٍ سمعه كل من حوله:

- "يا يوسف.. يا حسن.. قسماً بمن أحلّ الروح في جسدي، وبمن جعل الحق مرّاً على الطغاة، لن تذهب دماؤكما سدى. من اليوم، لم يعد بلال طريداً، بل أصبح سيفاً. سأطارد كل ظلٍ فاسد، وسأهدم قلاع الظلم حجراً حجراً.

الفصل العشرون:

الحب هو الدفء الوحيد الذي لا يمكن شراؤه.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساءً، لكن مدينة الصخب لم تكن تنوي الهدوء. خلف النوافذ الشاهقة لمبنى المحكمة الكبرى، كانت السماء تتشح بلون رمادي كئيب، يمهد لليلة شتوية قاسية. في الطابق الرابع، كان بلال يقف أمام مرآة مكتبه، يشد ربطة عنقه الحريرية للمرة العاشرة.

بلال، المحامي الذي لم يتجاوز الثامنة وعشرين، والذي نجى من الموت ، كان يمتلك حضوراً يربك خصومه قبل أن ينطق بكلمة. ملامحه حادة كحكم قضائي نهائي، وعيناه واسعتان لكنهما لا تبوحان بشيء. حياته كانت عبارة عن جداول زمنية، ومذكرات قانونية، وساعات عمل تمتد حتى الفجر. بالنسبة له، العالم ليس سوى ساحة للمنافسة، حيث البقاء لمن يمتلك الدليل الأقوى.

كان بلال يشعر بضغط غير مسبوق. قضية عائلة الراوي كانت على المحك؛ صراع على ملكية أراضٍ شاسعة يمتد لعقود. الوثيقة الوحيدة التي يمكن أن تحسم النزاع هي صك وقف قديم يعود للعهد العثماني، وقيل له إنها فُقدت في أرشيفات المحكمة المهملة.

حمل بلال حقيبته الجلدية واتجه نحو المصعد. ضغط على زر القبو، وهو طابق نادراً ما يزوره المحامون المرموقون. مع نزول المصعد، كان بلال يشعر وكأنه يغادر زمن السرعة ليدخل زمناً آخر. حين انفتح الباب، استقبلته رائحة غريبة؛

مزيج من الرطوبة، والورق المحترق بفعل الزمن، وعطر خفيف جداً لم يستطع تمييز ماهيته.

كانت الممرات ضيقة، تحيط بها رفوف حديدية صدئة تكدست عليها آلاف الملفات. الصمت هنا لم يكن عادياً، كان صمتاً ثقيلاً يضغط على الأذنين. سار بلال وهو يتفحص الأرقام المكتوبة بخط اليد على جوانب الرفوف، حتى وصل إلى نهاية الممر، حيث انبعث ضوء أصفر دافئ من خلف باب خشبي نصف مفتوح.

دفع بلال الباب بهدوء، فتجمد مكانه. لم يكن يتوقع أن يجد في هذا المكان الكئيب حياة. كانت هناك طاولة خشبية عملاقة تتوسط الغرفة، وعليها مصابيح مسلطة بدقة على أوراق مهترئة. وخلف الطاولة، كانت تجلس فتاة، كانت تدعى ليلى.

لم تكن ليلى مجرد موظفة أرشيف؛ كانت تبدو ككاهنة في معبد قديم. ترتدي وزرة عمل زرقاء فاتحة فوق ثيابها، وتضع كمامة طبية خفيفة، وقفازات بيضاء دقيقة جداً. كانت تمسك بملقط معدني صغير، ترفع به قشرة رقيقة من الورق المتآكل وتضعها في مكانها الصحيح وكأنها تجري عملية جراحية لقلب مفتوح.

راقبها بلال لأكثر من دقيقتين دون أن يشعر. كانت حركة يديها انسيابية، وعيناها خلف النظارة الطبية تركزان لدرجة الذهول. فجأة، تحرك بلال، فتعثرت قدمه بسلك أحد المصابيح، مما أحدث ضجة خفيفة.

انتفضت ليلى، ورفعت رأسها بسرعة، لتلتقي عيناها بعيني بلال.

صرخت بنبرة حادة جعلت بلال يتسمر في مكانه:

- "من فضلك! لا تتحرك!.

خلعت الكمامة ببطء، وظهر وجهها الذي كان يحمل مزيجاً من الإرهاق والجمال الفطري :

- أنت لا تعرف ماذا فعلت.. هذا الاهتزاز قد يمزق ألياف الورق التي أحاول وصلها منذ ساعات!

شعر بلال بالإحراج، وهو شعور لم يزره منذ سنوات ممارسته للمحاماة. تنحنح وقال محاولاً استعادة وقاره:

- أعتذر.. أنا المحامي بلال، جئت للبحث عن سجلات الوقف رقم 102 الأمر مستعجل جداً ولا يتحمل التأجيل.

رفعت ليلى حاجبها، ونظرت إلى ساعتها، ثم إليه.

- السجلات التي تتحدث عنها هي الآن في مرحلة الترميم الكيميائي. إنها تمر بعملية تجفيف من الرطوبة، ولمسها الآن يعني ضياع الحبر للأبد.
- مستعجل؟ التاريخ انتظر مائة عام، فهل تعجز أنت عن انتظار بضعة أيام؟

تقدم بلال خطوة، محاولاً استخدام نبرة الإقناع التي يمارسها في المحكمة:

- آنسة، ما اسمك؟

إجابته بأن اسمها ليلى.

حسنا انسة ليلى، القانون لديه مواعيد نهائية. إذا لم أقدم هذه الوثيقة للقاضي غداً صباحاً، ستضيع حقوق عائلات كاملة. الورق يمكن ترميمه، لكن العدالة الضائعة لا تعود.

ردت ليلى بابتسامة مريرة، وهي تقف وتواجهه وجهاً لوجه: والعدالة التي تُبنى على ورق مشوه هي عدالة ناقصة. أنت ترى ورقة، أنا أرى قصة.

هذا الصك كتبه رجل كان يرتجف خوفاً على إرث أبنائه، وهذا الختم هو بصمة حياة غادرت. مهمتي أن أجعل هذه البصمة تتحدث بوضوح أمام قاضيك. فمن منا يخدم العدالة أكثر؟

ساد صمت عميق. كان بلال يحلل كلماتها بعقله القانوني، لكن قلبه كان مشغولاً بشيء آخر؛ بطريقة حديثها، بشغفها الذي يتطاير مع كلمات السخط التي وجهتها له. وجد نفسه يتراجع، ليس خوفاً، بل احتراماً لهذا الكيان الذي لم يألفه

حسناً، قال بلال وهو يضع حقيبته جانباً. سأعترف بهزيمتي أمام حرس التاريخ. ولكن، هل يمكنني على الأقل الجلوس هنا؟ لا أستطيع العودة للمكتب دون معرفة ما إذا كانت الوثيقة لا تزال حية.

نظرت إليه ليلى بريبة، لكنها رأت في عينيه صدقاً لم تتوقعه من محامي بدلة أنيقة. أومأت برأسها: يمكنك الجلوس في تلك الزاوية، لكن بشرط.. لا حديث، لا هواتف، ولا حركة مفاجئة.

جلس بلال على كرسي قديم، وراقبها وهي تعود لغمر نفسها في عملها. مرت ساعة، ثم ساعتان. بدأ يراقب كيف تتعامل مع الماضي برفق. وفي غمرة تركيزه، لاحظ شحوب وجهها.

سأل بلال خافضاً صوته.

- هل أنتِ بخير؟

توقفت ليلى، مسحت جبينها بظهر يدها وقالت:

- إنه مجرد إرهاق. هذا العمل يتطلب تركيزاً يستهلك الروح.

حين دقت الساعة الثامنة، قررت ليلى التوقف. خلعت قفازاتها، وشعر بلال برغبة غريبة في مساعدتها.

- "هل تسمحين لي أن أوصلك؟ الوقت تأخر، والمكان هنا يبدو موحشاً في الليل، عرض بلال بلطف غير معهود.

نظرت إليه ليلى، وشعرت أن الجدار الجليدي الذي بنته بينهما قد بدأ يتصدع.

- شكراً لك يا أستاذ بلال. لكن قبل ذلك، انظر هنا..

أشارَت له إلى جزء صغير من الصك الذي كانت تعمل عليه. هذا هو اسم موكلك، لقد بدأت الحروف تظهر. غداً عند الظهر، سيكون الصك جاهزاً للمعاينة القانونية.

شعر بلال بنبضة غريبة في صدره، لم تكن بسبب الوثيقة، بل بسبب الابتسامة التي ارتسمت على شفتي ليلى وهي تعلن له الخبر.

خرجوا من القبو معاً. في الخارج، كان المطر قد بدأ ينهمر بهدوء. وقف بلال يفتح مظلته، وحرص أن يغطي ليلى بها أكثر من نفسه. في تلك اللحظة، وسط زحام السيارات وأصوات المطر، أدرك بلال أن القضية التي دخل من أجلها القبو، قد انتهت، وبدأت قضية أخرى، بطلتها باحثة تاريخية، وقاضيها هو القلب.

مرت ثلاثة أشهر على ذلك اللقاء الأول بين ليلى وبلال في قبو المحكمة. لم تكن تلك الفترة مجرد تعارف عابر، بل كانت أشبه بعملية حفر تنقيبي في شخصية كل منهما. بلال، الذي اعتاد على لغة النصوص الجافة والمواد القانونية الصارمة، وجد نفسه يغرق في عالم ليلى المليء بالرموز والقصص المنسية.

في أحد المساءات، داخل مكتب بلال الفاخر، كان الضوء الخافت ينعكس على أكوام من الملفات. دخلت ليلى تحمل حقيبة جلدية كبيرة، وبدت على وجهها علامات السهر.

بلال، لقد قرأتُ مذكرات الخصم في قضية قصر المنشاوي، قالت وهي تضع الحقيبة بعنف محبب على مكتبه. إنهم يعتمدون على ثغرة 'التقادم المكسب للملكية'. يقولون إن العائلة وضعت يدها على القصر منذ عام 1940 دون انقطاع.

قام بلال من مقعده، ودار حول المكتب ليقف بجانبها. هذا صحيح قانونياً يا ليلى. إذا لم نجد ما يثبت أن الأرض كانت وقفاً عاماً قبل هذا التاريخ، فسنخسر القضية. القاضي رجل نصوص، ولا يهمه جمال العمارة بقدر ما يهمه تسلسل الملكية.

نظرت إليه ليلى بتحدٍ:

- أنت تتحدث كأنك فقدت الأمل.
- هل نسيت أنني مرممة؟ أنا لا أرى الورق المهترئ، أنا أرى الحقائق التي حاول الغبار إخفاءها. لقد وجدتُ خيطاً في أرشيف نظارة الأوقاف.. هناك سجل مفقود، يُقال إنه نُقل إلى مخزن في أطراف المدينة بعد حريق عام 1970. إذا وصلنا إليه، سنغير مجرى التاريخ.. ومجرى قضيتك.

نظر بلال إلى عينيها اللتين كانتا تلمعان بإصرار غريب. شعر بجاذبية لا تتعلق بالجمال الظاهري بقدر ما تتعلق بتلك بأفكارها المقاتلة التي تشبهه في أفكاره لو قليلاً.

استقل بلال وليلى سيارته واتجها نحو ضواحي المدينة القديمة. كان الطريق طويلاً، مما أتاح لهما فرصة للحوار الإنساني البعيد عن العمل.

سألت ليلى وهي تراقب قطرات المطر على النافذة:

- بلال، لماذا اخترت المحاماة؟

صمت بلال قليلاً، ثم أجاب بصوت هادئ:

- كان لدي صديق قديم يدعى يوسف ، كان معلمي في مجال المحاماة، علمي الكثير ووقف معي دوما ، ثم سكت قيلا وأضاف ، لقد أعجبت به. وأردت أن أصبح مثله.

قالت ليلى:

- واين هو الآن معلمك هذا.

صمت بلال وابتلع غصته:

لقد مات في حادث مروع، ثم صمت محاول استعادة شتات نفسه. وأضاف

- ماذا عنكي أنتي .

ابتسمت ليلى بمرارة:

- أنا أعيش في الماضي لأنني أجد فيه صدقاً لا أجده في الحاضر. الموتى لا يكذبون يا بلال، يتركون آثارهم لتقول الحقيقة، ونحن الأحياء من نشوهها.

وصلوا إلى المخزن؛ مكان مهجور يفوح برائحة النسيان. قضوا ساعات يبحثون تحت ضوء الكشافات اليدوية. كانت لحظة درامية حين تعثرت ليلى وكادت تسقط، لولا أن ذراع بلال كانت أسرع، ليلتقطها ويضمها إليه لثانية واحدة شعرا فيها بتوقف الزمن. كان أنفاسهما تتسارع، والصمت في المخزن أصبح كثيفاً لدرجة أنهما سمعا دقات قلوبهما.

صرخت ليلى فجأة وهي تشير إلى صندوق خشبي قديم :

- وجدته!!. كان هناك.. سجل الأوقاف المفقود.

في قاعة المحكمة المزدحمة، كان التوتر يملأ الأجواء. محامي الخصم، الأستاذ عزمي، كان يبتسم بثقة، ظناً منه أن بلال لا يملك شيئاً سوى الخطابات العاطفية.

وقف بلال، وبدأ مرافعته التي استمرت لساعتين. لم يكن يتحدث عن مواد القانون فقط، بل كان يستحضر روح المكان. وعند اللحظة الحاسمة، طلب من المحكمة السماح لـ ليلى، بصفتها خبيرة تاريخية، بتقديم شهادتها.

دخلت ليلى القاعة بوقار باهر. شرحت بأسلوب علمي دقيق كيف أن السجل الذي عثرت عليه يثبت أن القصر أُوقف كمدرسة ومكتبة بمرسوم رسمي لا يجوز نقضه. كانت كلماتُها تسقط كالمطارق على رؤوس الخصوم.

حين نطق القاضي بالحكم برفض دعوى المدعين وتثبيت ملكية الوقف، ضجت القاعة بالتصفيق. لكن بلال لم ينظر لأحد سوى لليلى، التي كانت تبكي من فرط التأثر.

بعد انتهاء الجلسة، دعاها بلال لعشاء هادئ في مطعم يطل على معالم المدينة التي أنقذا جزءاً من تاريخها اليوم. كان الجو شاعرياً، والشموع تعكس بريق النصر في أعينهما.

قال بلال وهو يمسك كأس الماء بيد مرتجفة قليلاً :

- اليوم، وأنا واقف أمام المنصة، أدركتُ شيئاً . أدركتُ أنني لم أكن أدافع عن القصر فقط، بل كنت أدافع عن العالم الذي بنيناه معاً في الشهور الماضية. كنت أخشى إذا خسرنا القضية، أن ينتهي العذر الذي يجمعني بكِ كل يوم.

توقفت ليلى عن الطعام، ونظرت إليه بعمق. تابع بلال وصوته يزداد عمقاً وصدقاً:

- أنا رجل يحترف الحديث، لكنني أمامكِ أفقد كل مرافعاتي. ليلى.. أنتِ لستِ مجرد زميلة أو باحثة. أنتِ المخطوطة الأغلى التي أخشى عليها من غبار الأيام. لقد استطعتِ ترميم أفكاري الذي ظننتُ أن القضايا الجنائية قد قسّته. أنا معجب بكِ وبأفكاركِ ، ليس كقرار قانوني، بل كضرورة حياة. هل تقبلين أن نكون قضية واحدة، لا تقبل القسمة ولا الاستئناف؟

ساد صمت مهيب. كانت ليلى تشعر وكأن الكلمات تخترق حصونها. وضعت يدها فوق يده، وقالت بنبرة ملؤها الشجن:

- "بلال.. طوال حياتي كنت أبحث في الماضي عن الأمان، لأن الحاضر كان يخيفني. لكن معك، شعرتُ أن المستقبل يمكن أن يكون جميلاً أيضاً. أنت لم تكن مجرد محامٍ في عيني، كنت الإنسان

الذي أعاد لي إيماني بأن الحق يمكن أن ينتصر بصدق العاطفة. أنا أيضاً.. أحبك، وأقبل أن أكون معك في كل فصول عمرك القادمة.

الفصل واحد عشرين:

طول الانتظار خلف القضبان يحول الصبر إلى حجر، والقلب إلى مقبرة للأماني التي لم تولد.

في ليلة ممطرة، توجه بلال إلى المطبعة. وجد العم صالح واقفاً تحت المطر، بجسده النحيل وشموخه الذي لا يلين. حضنه بلال بقوة،

وقال للعم صالح:

- الحمدلله أنك خرجت من ذلك السجن كنت أنتظر خروجك بفارغ الصبر.

اندفعت دموع صالح كالحمم:

- بلال.. يا ولدي، ذهبتُ لأستعيد بقايا عائلتي، فوجدتُ الموت والذل في انتظاري.

زوجتي قضى عليها المرض والقهر، وابنتي أمل. ابنتي التي هي قطعة من روحي، أخذها رجال جيوفاني وجعلوها جارية في قصره.

وماجد.. ذلك الوحش، ضربني وأهان شيبتي، وقال لي إن أمل لن تخرج إلا وهي زاحفة تحت قدميه.

تجمد بلال وقال بلسان متلعثم:

- لقد ذهب إلى ذلك الحي ، وطرقت الباب ولم يجيبني احد.

ثم سكت قليلا من وقع الكلمات، وارتمى بلال على الأرض وبدأ يبكي بحرقة.

انحنى العم صالح محاول تهدئت بلال، وحضنك وقال:

- يا بني ما بك تبكي بحرقة ، ليس لك ذنب في الذي حل .

حاول بلال جمع شتات نفسه وقال بشهقات متتالية:

- يا ... يا عمي صالح، لقد وعدت أمل أن أتي وأحررها هي وبقيت العبيد في قصر جيوفاني لكنني خوفي منهم في بداية و حريتي أنساني الأمر، أعتذر لك يا أمل ، أعتذر لك يا عم صالح.

هز العم صالح بلال بقوة وصرخ :

- هل رأيت أمل ؟!! ، أرجوك هل هي بخير .

هز بلال رأسه بإيجابية وروى للعم صالح ، ما يعرفه عن أمل.

سجد العم صالح شاكر لله ، إذ أنه على الأقل علم أن إبنته مازالت على قيد الحياه.

هنا، تحول بلال إلى وحشٍ كاسر. قال بصوتٍ مبحوح بالثأر:

- "والله يا عمي، لا يهنأ لي بال، ولا تذوق عيني النوم، حتى أهدم ذلك القصر على من فيه. سأطبق فيهم شرع الله وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ. لن أطلب عدالة المحاكم التي اشتراها جيوفاني، بل سأكون أنا الخصم والحكم والجلاد.

ثم أضاف قائلًا كما أنني يا عمي سوف أخطب فتاة جميلة ورائعة في الأيام القادمة وأريدك أن تكون ولي أمري.

هز العم صالح رأسه وقال:

- إذن سوف ننتقم من جيوفاني بعد أن تخطب حب حياتك فربما لن تجد مثلها ،وبعد خطوبتكما سوف نبدأ بتنفيذ الخطة المحكمة يا بلال.

هز بلال رأسه موافق على رغبت العم صالح. وعم صمت طويل.

عاد بلال إلى مكتبه بعد أن فتح أبواب منزله للعم صالح ، كان بلال يراجع أوراق قضية حياته الجديدة؛ زيارة منزل ليلى لطلب يدها. كان يرتدي بدلة كحلية من الصوف الفاخر، ويعدل ياقة قميصه أمام المرآة للمرة الألف.

دخل عليه مساعده سامر ليداعبه:

- أستاذ بلال، أراك متوتراً أكثر مما كنت عليه في قضية الجنايات الكبرى الأسبوع الماضي!

ابتسم بلال بمرارة وقال:

- في المحكمة يا سامر، أعرف خصمي وأعرف الثغرات، لكنني اليوم ذاهب لمواجهة العميد غانم، رجل يقرأ التاريخ في ملامح الناس قبل

أن يقرأه في الكتب. ليلى أخبرتني أن والدها لا يحب المحامين، يراهم تجار كلام.

في الجهة الأخرى، كانت ليلى في جناحها الخاص، تعيش حالة من التوتر الممزوج بالفرح. اختارت فستاناً من الحرير الأخضر الداكن، كانت والدتها، السيدة ناهد تراقبها بصمت خلف زجاج نظارتها، وهي تضع لمساتها الأخيرة على صالون الاستقبال الذي يفوح برائحة البخور والياسمين.

ليلى، هل أنتِ متأكدة؟ .

- هذا الشاب.. بلال، يبدو حاداً جداً في صوره التي تنشرها الصحف. والدك يفضل الشخصيات الأكثر هدوءاً.

ردت ليلى وهي تضع عقدها اللؤلؤي:

- أمي، بلال خلف ملامحه الحادة قلب من ذهب. إنه الرجل الذي دافع عن التاريخ حين صمت الجميع. أرجوكِ، أعطيه فرصة.

وصل بلال وعم صالح إلى المنزل؛ فيلا عتيقة تحيط بها حديقة غناء، وتشبه في تصميمها القصور التي طالما ترافع عنها. استقبله خادم بزي رسمي، وقاده إلى الصالون الكبير حيث كانت الجدران مزينة بلوحات زيتية لأسلاف العائلة.

دخل السيد غانم، رجل في السبعين من عمره، يمشي بعصا أبنوسية ونظراته ثاقبة كالصقر. وقف بلال باحترام، وصافحه بقوة وثبات.

قال السيد غانم بصوت رخيم:

- تفضل يا بني..

لقد سمعتُ عنك الكثير.. محامي قصر المنشاوي. لقد فعلتَ ما عجز عنه أساتذة القانون.

جلس بلال وقال بكياسة:

- شكراً لك سيدي. لكن الفضل يعود لابنتك ليلى، فلولا دقتها في البحث، لما وجدتُ حجة أترافع بها.

بدأ الحوار يتحول إلى استجواب مقنع. السيد غانم لم يسأل عن رصيد بلال في البنك، بل سأل عن فلسفته في الحياة، وعن جذور عائلته. كان بلال يجيب بهدوء المحامي المحترف، لكنه كان يشعر بعرق بارد على جبينه.

قال الأب فجأة :

- أستاذ بلال المحاماة مهنة تقوم على تكييف الحقائق لخدمة الموكل. كيف أثق أنك لن تكيّف مشاعرك تجاه ابنتي حسب ظروفك؟

صمت بلال لثانية، نظر إلى ليلى التي كانت تراقبه من بعيد، ثم عاد بنظره للأب:

- سيدي، في القانون هناك ما يسمى الأدلة القطعية ،وإعجابي لابنتك ليس ادعاءً أقدمه لمحكمة، بل هو حقيقة مادية غيرت مجرى حياتي. أنا لا أعدك بحياة خالية من النزاعات، لكنني أعدك بأنني سأكون محاميها وموكلها ودرعها أمام كل نوائب الدهر.

انتقل الجميع إلى مائدة الطعام، حيث كانت الأجواء أكثر رسمية. كانت الأسئلة تتوالى من السيدة ناهد حول طموحات بلال، ومن أقارب ليلى الذين حاولوا استفزازه ببعض القضايا الجدلية. لكن بلال كان كالقائد في معركة، يرد بحكمة ويضفي روحاً من المرح على الجلسة.

في لحظة جانبية، همست ليلى لبلال وهي تمرر له طبقاً:

- لقد بدأتَ تكسب والدي، استمر في الحديث..

ابتسم بلال وغمز لها بخفة:

- أنا أترافع لأجلك الآن، الفشل ليس خياراً.

وبالفعل، بدأ بلال يتحدث عن ما ما يمكن الحديث عنه مع هذه العائلة

تحول الاستجواب إلى نقاش فكري عميق، وبدأ الجليد يذوب تحت حرارة الحوار الصادق.

بعد انتهاء العشاء، طلب السيد غانم من بلال الانفراد به في مكتبته الخاصة. كانت الغرفة تعبق برائحة الورق القديم، تماماً مثل المكان الذي التقى فيه بليلى لأول مرة.

بدأ الأب يتحدث وهو يشعل غليونه :

- ليلى هي أغلى ما أملك. هي ليست مجرد ابنة، هي امتداد لهذا البيت. لقد رأيتُ في عينيك اليوم شيئاً لم أره في المتقدمين السابقين.. رأيتُ رجلاً لا يبيع المبادئ.

وضع السيد غانم يده على كتف بلال:

- أنا أقبل بك صهراً، وبشرط واحد.. أن تجعل ليلى تبتسم دائماً كما فعلت اليوم.

خرج بلال من المكتب والابتسامة تملأ وجهه. رأى ليلى تقف في نهاية الممر بانتظاره. لم يقل شيئاً، فقط أومأ برأسه، فهرعت إليه وضمت يده بقوة.

قالت ليلى بصوت مخنوق من الفرح:

- لقد فعلتها يا بلال!.

رد بلال وهو ينظر في عينيها:

يل بدأنا الآن يا ليلى اليوم تم توثيق عقد قلبينا في سجلات الحقيقة.

خرجا إلى الحديقة، وكان المطر قد بدأ ينهمر بخفة، تماماً كما في ليلة لقائهما الأول. وقف بلال تحت شجرة عتيقة، وأخرج علبة مخملية تحتوي على خاتم من الألماس يتوسطه فص من الزمرد الأخضر، تماماً كفستان ليلى في تلك الليلة.

ليلى، قال وهو يلبسها الخاتم :

- هذا الخاتم ليس قيداً، بل هو ميثاق. أعدك أن نكتب معاً أجمل فصول روايتنا، وأن تكوني أنتِ الحقيقة الوحيدة في عالم مليء بالأكاذيب.

نظرت ليلى إلى الخاتم ثم إلى بلال، وقالت:

- وأنا أعدك أن أكون الموثقة لكل لحظة سعادة نعيشها، وأن أحفظ حبنا كأغلى مخطوطة في تاريخ البشرية.

☆في قصر جيوفاني☆

في عتمة القصر الموحش، وبين جدران الغرفة رقم ٤٠٢ ،كانت أمل تقبع في الزاوية كعصفورٍ كُسرت أجنحته. لم تكن الغرفة سوى زنزانة مغلفة برداء الفخامة الزائف؛ جدران باردة، صمتٌ يطبق على الأنفاس، ونافذة وحيدة عالية تبدو كأملٍ بعيد المنال. كانت تسند يديها المرتجفتين إلى إطار تلك النافذة، ترمق السماء بعينين غارقتين في الدموع، وتهمس بدعواتٍ مخنوقة، ترجو خالقها أن يشق لها مخرجاً من هذا الجحيم.

استسلمت أمل لنوبة بكاء مريرة، ومع كل شهقة، كانت الذاكرة تعود بها إلى الوراء، إلى ذلك اليوم المشؤوم الذي تلا محاولة بلال الهروب..

انساب الزمان من بين أصابعها لتعود إلى القبو المظلم، حيث الرطوبة تنهش العظام. فجأة، اقتحم جيوفاني المكان، يحيط به رجاله كظلالٍ شيطانية. كان يحمل في يده سياطاً تتلوى كالأفاعي، وصوته الرخيم القاسي يزلزل المكان وهو ينادي: عبيد.. أيها العبيد!

أجبرهم على القسم بالولاء المطلق، مهدداً إياهم بأن مصير بلال سيكون درساً لن ينساه أحد. تقدم الجميع بقلوب مرتجفة، يقسمون بأرواحهم أنهم لن يفكروا في الهرب، فالخوف من جنون جيوفاني كان أعظم من رغبتهم في الحرية.

بعد مراسيم الولاء المذلة، أمر جيوفاني حراسه بترتيبهم في صفوف عسكرية؛ النساء في جهة، الأطفال في أخرى، والرجال في زاوية منفصلة.

كانت أمل حينها تشعر بقلبها يقرع طبول الذعر في صدرها، كانت عيناها معلقتين بوجه جيوفاني الكالح، بينما يلهج لسانها بالدعاء:

- يا رب، اجعل بلال قد نجا.. اجعله يصل إلى بر الأمان ليأتي ويحررنا.. لا أريد أن أفقده، هو كل ما أملك في هذا العالم الموحش.

قطع جيوفاني حبل أفكارها بابتسامة سادية، وقال بصوتٍ يقطر سماً:

- بما أنكم أظهرتم الطاعة، سأكافئكم بقصة.. قصة خائن ظن أن أسوار قصري يمكن اختراقها.

جلس على عرشه الخشبي، يحتسي نبيذه ببرود، وتابع بلهجة جليدية:

- لقد أمسكت ببلال وهو يزحف كالجرذ.. أشبعته ضرباً تحت قدمي، وهو يتوسل الرحمة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة تحت سياطي.

وعندما فارقت روحه جسده النتن، ألقيته جيفةً للكلاب المفترسة.. هذا هو جزاء كل من تسول له نفسه خيانتي.

سقط الخبر على أمل كالصاعقة. اهتز كيانها، وبدأت ترتجف بعنف، تضرب قدميها بالأرض في نوبة من الانهيار والندم، تلوم نفسها:

- لماذا سمحت له؟

- لماذا لم أمنعه في تلك الليلة اللعينة؟.

ومنذ ذلك اليوم، غاصت أمل في غياهب اكتئابٍ حالك؛ هجرت الطعام، وذبل جسدها، وفقدت بريق الحياة في عينيها.

مسحت أمل دموعها التي تبلل حافة النافذة، وتذكرت كيف انتهى بها المطاف في هذه الغرفة.

بعد أسابيع من تلك الحادثة، دفعها الجوع المرير والحنين لذكرى بلال إلى التسلل للمطبخ ليلاً. لم تكن تعلم أن جيوفاني قد زرع جورج في الممرات لمراقبة كل دبة نملة.

تتبعها جورج ببرود، ورآها وهي تسرق أرغفة الخبز لتخبئها للأطفال في القبو.

في تلك اللحظة، كان ماجد يراقب المشهد من برج المراقبة. كان يراقبها بمنظاره، وشعر بشيء لم يعهده؛ إعجاب بجنونها وشجاعتها. همس لنفسه:

- أية قوة تملك هذه الفتاة لتخاطر برأسها من أجل خبز؟

وعندما حاولت العودة، وجدت جيوفاني يقف كالجدار أمام باب القبو. سقط الخبز من يدها، وتناثر على الأرض المتربة.

- زمجر جيوفاني بغضب، إلى أين يا ابنة الخائن؟

ثم أضاف آمراً جورج:

- خذها إلى غرفة العرش، ونادِ لي حسام وماجد وسميرة فوراً!.

في القاعة الكبرى، كان التوتر سيد الموقف. دخل جيوفاني وهو يغلي، والتفت إلى سميرة المسؤولة عن الخادمات ، وصفعها صفعة قوية أطاحت بها أرضاً وهو يصرخ:

- كيف تغفلين عن هذه الجرذة؟!.

ثم استدار نحو أمل، وبدأ يضربها بسوطه، ثم داس بقدمه على كفها الصغير. صرخت أمل بمرارة:

- اقتلني! اقتلني كما قتلت بلال!، الموت أرحم من هذه الحياة.

هنا، تقدم ماجد بخطوات واثقة، وانحنى لجيوفاني قائلاً:

- سيدي، أرجوك.. هذه الفتاة لا تستحق أن تتسخ يداك بدمها. أنا لم أجرب تعذيب النساء من قبل، وأريد أن أتعلم في جسدها أساليب جديدة للإخضاع.

اتركها لي، وأعدك أنني سأجعلها تتمنى الموت ولا تجده.

وافق جيوفاني ببرود، وسحب ماجد أمل إلى الغرفة . وبمجرد أن أغلق الباب، تغيرت لهجته.

- اسمعي يا أمل.. أنا لم أنقذكِ حباً في جيوفاني. لقد أعجبتني شجاعتكِ، وبصراحة.. أنا أريدكِ.

كوني زوجتي سراً، وسأطعمكِ وأحميكِ من هذا الجحيم. فكري.. الزواج مني أو الموت تحت سوط جيوفاني.

نظرت إليه أمل باحتقار وقالت بصوت متهدج:

- أفضل الموت على أن أكون لرجسٍ مثلك.

عاد ذهن أمل للواقع حين سُمع صوت قفل الباب يُفتح. دخل ماجد، وفي يده طبق من الطعام الشهي، تفوح منه رائحة اللحم والخبز الطازج. كانت أمل تتضور جوعاً، فتقدمت بضعف نحو الطبق.

ضحك ماجد بسخرية، ورفع الطبق عالياً:

- أوه.. القطة الشجاعة جائعة؟ انظري إليّ يا أمل، قريباً ستزحفين تحت قدمي لتطلبي هذا الطعام، وقريباً ستوقعين على صك زواجنا وأنتِ شاكرة. أنتِ ملكي، أفهمتِ؟.

ثم، وبحركة مليئة بالإذلال، رمى الطعام على الأرض، وخرج وأغلق الباب خلفه بقوة. ارتمت أمل على الأرض، تنظر إلى الطعام الملوث بدموعها، وتهمس بقلبٍ محطم:

- يا بلال.. أين أنت؟

لو كنت حياً، لما سمحت لهم أن يذلوني هكذا.. يا رب، إن كان حياً فاحفظه، وإن كان ميتاً فالحقني به.

الفصل الثاني والعشرون:

قد يصبر المرء على غرس السكين في جسده، لكنه لا يصبر على يدٍ أحبها وهي تدفع السكين نحو قلبه.

تخذ بلال من جذع شجرة بلوط عتيقة متكأً لجسده المنهك وعيناً لا تنام. ومن خلف عدسات منظاره، بدأ يفكك شيفرة القصر؛ لم يكن القصر مجرد بناء معماري مهيب يتوسط تلك الهضبة، بل كان وحشاً رابضاً من الحجر الأبيض، يحيط به سور بارتفاع أربعة أمتار تعلوه أسلاك شائكة مكهربة. سحب بلال منظاره وبدأ بجولته التفقدية الصباحية، مسجلاً في عقله كل شاردة وواردة، فالمعلومة في هذه اللحظة هي الفارق الوحيد بين الحياة والموت، وبين الحرية والبقاء تحت سوط جيوفاني.

كانت الشمس لم تشرق بعد تماماً، لكن الحركة داخل فناء القصر بدأت تدب.

رصد بلال أول الأهداف:

حسام، كان يخرج بضخامته المعهودة من غرفة الحرس، يرتدي بتهالك سترة جلدية سوداء، ويحمل في يده هراوة كهربائية يضرب بها براحة يده الأخرى بآلية مرعبة.

كان يتحرك بتبخترٍ يوحي بثقةٍ عمياء وصلت حد الغرور، وهي القاتل الأول لرجال الأمن. رصد بلال الدقائق الثلاث التي يقضيها حسام في ثرثرةٍ جانبية عند البوابة الجانبية؛ كانت تلك الفجوة الزمنية هي الثغرة التي ستسمح لبلال بالعبور من عالم الظل إلى قلب الجحيم.

على الجانب الآخر، عند برج المراقبة الغربي، كان ماجد يتسلم نوبته. ماجد كان نقيض حسام؛ نحيلاً، قلقاً، وعيناه لا تتوقفان عن المسح.

لاحظ بلال من خلال مراقبته لعدة أيام أن ماجد يعاني من إدمان واضح للتبغ؛ ففي كل ساعة، يترك موقعه متجهاً إلى ركن مظلم خلف البرج ليشعل سيجارته بعيداً عن أعين جيوفاني. تلك الدقائق الخمس التي يقضيها ماجد في تدخين سيجارته هي النافذة التي سيستخدمها بلال لتجاوز السور الشائك دون أن يُكشف أمره.

انتقل بلال بالمنظار نحو الشرفات العلوية، وهناك لمح سميرة. كانت تتحرك بوقار زائف، مرتدية ثياباً حريرية سرقتها من مخازن القصر، وتتحدث بغطرسة مع الخادمات الصغيرات.

كان بريقُ مجوهراتها يعمي أبصار عن حقيقتها البشعة، تعد سميرة هي الأخطر، لأن سلاحها ليس القوة بل الوشاية. لاحظ بلال أنها تقوم بجولة تفتيشية شاملة في تمام الساعة العاشرة مساءً، تتأكد خلالها من إغلاق جميع الأبواب الداخلية، وتحمل معها دائماً حزمة مفاتيح ضخمة، من بينها مفتاح الجناح المخطوط، حيث تُحتجز أمل.

كانت أمل هي اللغز والدافع الأكبر لبلال؛ فتاة رقيقة وقعت في أيدي جيوفاني، وكان يعلم أن إنقاذها هو المفتاح لكسر كبرياء هذا الطاغية.

أما جورج، فكان مراقبته هي الأصعب. جورج و الظل الذي لا يغادر القبو إلا نادراً. رأى بلال كيف يخرج جورج في وقت الظهيرة ليرمي بقايا الطعام للكلاب الشرسة المحبوسة في الأقفاص الجانبية. كان جورج يمتلك سيطرة غريبة على تلك الكلاب، وكان هو الوحيد الذي يملك الرمز السري لتعطيل نظام الليزر الذي يحيط بغرفة الكنوز والزنازين الانفرادية. دون الوصول إلى جورج ، ستظل الزنازين مغلقة حتى لو سقط القصر.

بقي بلال في مكانه لساعات، يسجل اتجاه الرياح، وسرعة استجابة الحراس لأي صوت غريب، حتى أنه لاحظ أن جيوفاني نفسه يخرج في ساعة محددة ليمشي في حديقته الخاصة، محاطاً بحراسة مشددة يقودها حسام. وضع بلال خريطته ، وبدأ برسم مسارات متقاطعة:

مسار التسلل، مسار التحييد، ومسار الهروب. كان يخطط لضربة جراحية تبدأ بقطع التيار الكهربائي في لحظة تقاطع نوبات الحرس، ثم الدخول من فتحة التهوية التي اكتشفها قديماً خلف المطبخ، والتي تؤدي مباشرة إلى الممرات الخلفية التي لا يرتادها إلا العبيد.

بعد أن اكتملت الصورة في ذهنه، وتأكد من مواعيد تبديل الحراس، وتحديد أماكن الكاميرات العمياء، وتأكيد موقع أمل في الغرفة رقم 402 بالجناح الشرقي، حزم بلال أمتعته بحذر. انسحب من الغابة بخفة القطط، متجنباً

فروع الأشجار اليابسة، وسار لمسافة كيلومترات عبر شعاب جبلية وعرة، حتى وصل إلى بيت طيني قديم يختبئ تحت سفح الجبل، بعيداً عن أعين دوريات جيوفاني.

طرق بلال الباب ثلاث طرقات متتابعة، ثم صمت، ثم طرق طرقة واحدة قوية. انفتح الباب ببطء ليظهر وجه العم صالح، والد أمل، دخل بلال وأغلق الباب خلفه بإحكام، ثم أضاء شمعة صغيرة وبسط الخرائط على الطاولة الخشبية المتآكلة.

نظر العم صالح إلى بلال بعينين دامعتين وقال بصوت متهدج:

- عدت يا ولدي؟ كنت أعلم أنك لن تتركهم لمصيرهم.

أومأ بلال برأسه بجدية حادة وقال:

- لم أعد للهرب هذه المرة يا عمي، عدت لأقتلع القصر من جذوره. انظر هنا، هذه هي الخطة. سأدخل من نقطة الضعف خلف المطبخ في الساعة الثانية فجراً. حسام سيكون مشغولاً، وماجد سيكون في استراحته اللعينة. هدفي الأول هو غرف التحكم التي يحرسها جورج. إذا سيطرنا على المفاتيح، سيتحرر الجميع في لحظة واحدة.

بدأ بلال يشرح للعم صالح كيف سيستخدم سميرة كطعم للوصول إلى جيوفاني، وكيف سيقوم بتأمين طريق خروج العبيد عبر النفق القديم الذي كان علم عنه قبل هروبه ، كان العم صالح يستمع، ويصحح له بعض التفاصيل حول عادات جيوفاني الليلية، وكيف أنه يضع سلاحه دائماً في درج مكتبه الأيمن.

قال بلال بنبرة ملؤها الإصرار:

- ابنتك أمل هي الأولوية يا عمي. لا نعلم ما الذي يخطط له جيوفاني، لذا يجب أن يكون التحرك الليلة. سأنتقم من كل سوط ضرب ظهري، ومن كل صرخة خنقها هؤلاء الأوغاد في حناجرنا. حسام، ماجد، سميرة، وجورج. لن يرى أي منهم شروق شمس الغد.

اتكأ العم صالح على عصاه، ووضع يده المرتجفة على كتف بلال قائلاً:

- العدالة ليست مجرد قتل يا بني، العدالة هي أن تخرج ومعك كل روح حبسها ذلك الشيطان. اذهب، والله معك، وأنا سأنتظرك عند مخرج النفق مع الخيول والماء. لا تتأخر، فالظلام لن يدوم للأبد.

خرج بلال من الكوخ، ونظر إلى القصر البعيد الذي بدأ يتلألأ بأنوار زائفة. لم يكن يرى رخاماً أو ذهباً، كان يرى مقبرة لجيوفاني وحراسه، ومنارة حرية لرفاقه الذين ينتظرون خلف القضبان.

عاد إلى موقعه بالقرب من السور، تحسس بلال نصل نقمته قبل سلاحه، وتأكد من أن جعبته مشحونة بالإصرار. لم يكن ينتظر مجرد وقتٍ مناسب، بل كان ينتظر اللحظة التي تتوافق فيها دقات الساعة مع نبضات قلبه الثائر، ليقتحم العرين وينتزع أمل من بين أنياب الذئاب التي لم ترحم ضعفها يوما .

ثم رفع رأسه نحو سماء وقال متمتماً :

- انتظرني يا جيوفاني، بدأ الانتقامُ في داخلي كبذرةٍ سُقيت بماءٍ مالح؛ ينمو ببطء وهدوء في سراديب عقلي. لم أعد أشتهي دماءك بقدر ما أشتهي رؤية ذعرك حين تدركون أن العبد الذي صنعتموه صار هو القدر الذي لا مفر منه.

كنتُ أتأمل يديّ وأتخيلها وهي تقلبُ كراسيّ عروشهم الورقية، ليس حباً في السلطة، بل رغبةً في إعادة التوازن لهذا الكون الذي اختل ميزانهُ طويلاً .

لكن الآن يجب أن أذهب إلى ليلى، لذا انتظرني يا جيوفاني لن أطيل عليك، وتوجه بعد ذلك نحو ال غانم لرؤية ليلى..

كانت ليلةً يكتنفها سكونٌ مريب، كأن الهواء في حديقة آل غانم قد تشبع برطوبةٍ ثقيلة منعت الأنفاس من الاسترسال. كان الضوء المنبعث من فوانيس الحديقة العتيقة يرسم ظلالاً متراقصة على وجه ليلى، التي بدت في تلك

اللحظة وكأنها قد قررت أخيراً أن تفتح زنزانةً في ذاكرتها، زنزانةً ظلّت موصدةً لسنوات بأقفال من الكبرياء والوجع العائلي.

جلس بلال بجانبها، كان يشعر بدفء يدها في يده، ولم يكن يعلم أن هذا الدفء هو آخر ما سيشعر به من طمأنينة.

بلال.. نادته ليلى بصوتٍ خفيض، كان يحمل رنيناً غريباً يشبه صوت انكسار الزجاج القديم. أنت الآن لست مجرد شريكٍ لحياتي، بل أنت مستودع أسراري. واليوم، أشعر أن ثقل هذا السر يمنعني من التنفس أمامك. يجب أن تعرف من هم آل غانم حقاً، بعيداً عن بريق الألقاب وهيبة القصور التي تراها أمامك الآن.

اعتصر بلال كفه، وشعر بوخزٍ مجهول في أطراف أصابعه، لكنه ظل صامتاً كعادته في المحكمة، يمنح الشهود المساحة لقول كل شيء يدور في بالهم .

بدأت ليلى تقص حكايتها، وعيناها مثبتتان على الأفق المظلم:

- يقولون إن التاريخ يُكتب بأيدي المنتصرين، لكن تاريخ عائلتي كُتب بأيدي القساة.

قبل ثمانية وعشرين عاماً، لم أولد وحيدة. كان لي أخٌ توأم، قطعةٌ من روحي، تقاسمتُ معه الرحم والصرخة الأولى. لكن والدي، السيد غانم، الذي تراه الآن رمزاً للوقار، كان يرى العالم بمنظارٍ مختلف.. منظار الكمال الطبقي.

ساد صمتٌ قصير، قطعه شهيق ليلى المرتجف:

- وُلد أخي بضعفٍ خلقي في كف يده اليسرى، كانت أصابعه لا تتحرك كالبقية، وندبةٌ غريبة في معصمه كانت تبدو لوالدي بصمة عارٍ في سلالة لا تقبل إلا الأقوياء.

كان جدي آنذاك يحكم العائلة بقبضة من حديد، وكان يرى في هذا الطفل فألاً سيئاً على استثمارات العائلة. وتحت وطأة هذا الجهل المغلف بالأرستقراطية، قرر والدي التخلص منه. أخذوه وعمره لم يتجاوز العامين، انتزعوه من حضن أمي التي كانت تصرخ حتى فقدت وعيها، وأودعوه في دار أيتام نائية، ومسحوا اسمه من سجلات العائلة وكأنه لم يكن.

تغيرت نبرة ليلى من الحزن إلى القسوة المفاجئة، وتابعت:

- لسنوات، ظل عمي يترجى والدي أن يستعيده، يذكره بأن الدماء لا تصبح ماءً.

وقبل سنوات طويلة، علمنا أن دار الأيتام قد سلمته لعائلة من الطبقة العالية المقام، عائلة تسمى آل جورج. أتذكر يومها كيف ضحك والدي بسخرية وقال:

- أخيراً، عاد الفرع الذابل إلى بيئته الحقيقية.

وأكد لي والدي أن ذلك الاخ لن يلمس من أموال ال غانم شيئا وأنه لربما يعمل خادم لدى ال جورج فهم من منبت عائلة ذو نفوذ ومخيفة أيضًا، لذلك أعتقد ان أخي أصبح عبد قذر ، لا يليق به ان يكون من عائلتنا.

ومنذ ذلك الحين، صار هذا الأخ في نظرنا هو العدو، هو العار الذي نخشى أن يطفو على السطح. أنا أستحقره يا بلال.. أستحقر ضعفه وأستحقر وجود شخص يحمل جيناتي ويعيش نكرةً كلقيط في كنف عائلة مجهولة. هذا هو سري الأعظم، أنا أختٌ لمنبوذ، وابنةٌ لقاتل مشاعر.

سقطت الكلمات على مسامع بلال كوقع الصواعق. آل جورج... الاسم تلك العائلة التي تبنته ، تلك العائلة التي أذاقته جميع أنواع التعذيب وأقصاها ، شعر بلال ببرودةٍ مفاجئة تجمد الدماء في عروقه. تحسس بيده اليمنى لاإرادياً معصمه الأيسر.. هناك، تحت كم القميص، توجد تلك الندبة القديمة التي طالما ظنها ، نتيجة لإحدى مراسم التعذيب التي تعرض لها من عائلة جورج.

شعر بلال برغبة في التقيؤ. الكلمات التي قالتها ليلى عنه بأنها تستحقره.. لقيط.. عار كانت تتردد في أذنيه كصرخات في وادٍ سحيق.

نظر إلى ليلى تلك فتاة التي أعجب بها، فرآها الآن غريبة، بل رآها كجلادٍ يجلد ظهره دون أن يدري.

قالت ليلى بذعر وهي تمسك وجهه بيدين مرتجفتين:

- بلال؟ ما بك؟ وجهك أصبح شاحب !

فزع بلال من لمستها، انسحب بجسده بعيداً كمن لمسته نارٌ مقدسة. حاول الحديث، لكن صوته كان حشرجةً مكتومة:

- أنا.. أنا بخير. فقط.. كل ما في الامر أن القصة بشعة.

لم أتخيل أن والداً يفعل ذلك بابنه . أشعر بضيق في التنفس.. أحتاج للهواء.

قام بلال واقفاً، كانت الأرض تهتز تحت قدميه. كان يشعر بتمزقٍ بين رغبته في الصراخ أنا هو ذلك الأخ المنبوذ!

وبين رغبته في الاختفاء من الوجود، اقترب من ليلى في محاولةٍ يائسة لجمع شتات نفسه، واحتضنها بقوةٍ غريبة، حضناً لم يجد فيه الدفء، بل وجد فيه رائحة الوداع الأبدي.

وفي غمرة هذا العناق، وبحركةٍ سريعة ومدروسة، انسلّت أصابعه لتلتقط خصلة من شعرها الأسود، انتزعها بخفة وضيق، ووضعها في منديله الورقي في جيبه.

قال وهو يتجنب تماماً النظر في عينيها اللتين صارتا مصدر رعب له:

- يجب أن أذهب الآن يا ليلى.. لدي ميعادٌ طارئ بخصوص قضيةٍ معقدة.

انطلق بسيارته كالمجنون، يقطع إشارات المرور، والدموع تحجب الرؤية عنه. كان يصرخ في سيارته:

- لا يمكن.. لا يمكن أن تكون هي أختي!

وصل بلال إلى بيته ، هنالك كان العم صالح يجلس بانتظاره دخل عليه كالإعصار، وجده جالساً على سجادته.

- عمي صالح.. لقد علمت من هي عائلتي ؟ صرخ بلال وهو يلهث، وأخرج خصلة الشعر ووضعها على الطاولة.

ارتبك الرجل العجوز، وحاول تهدئة الوضع :

- أنت بلال ابني الذي لم الده . ماذا جرى لك يا ولدي؟

صرخ بلال بانهيار :

- أخبرتني ليلى اليوم عن طفلٍ ألقي في دار الأيتام لأن يده مشوهة!

وأخبرتني عن عائلة آل غانم التي رمتني ببرود قاتل !

هل أنا ذلك الطفل؟ هل أنا أخت خطيبتي؟

انهار العم صالح من وقع الكلمات التي قالها بلال ، وحاول أن يستوعب تلك الكلمات .

خرج بلال إلى الشرفة، يحدق في ليل المدينة. كان يشعر بقرفٍ وجودي. ليلى التي رسم معها مستقبله، قد تكون أخته التي تشاركه نصف جيناته.

ليلى، التي أحبت المحامي الناجح، هي نفسها التي تستحقر الأخ الذي صار هو، أمسك هاتفه واتصل بصديقه دكتور حسام، مدير مختبر التحليلات الجنائية:

حسام.. أريد فحص DNA مستعجل الآن. سآتيك بخصلة شعر وعينة من دمي. أريد النتيجة قبل الفجر.. حياتي تتوقف على هذا الفحص.

أغلق الهاتف وجلس على الأرض، يدفن رأسه بين ركبتيه.

المحامي الذي لطالما دافع عن المظلومين، وجد نفسه اليوم هو القضية وهو الضحية وهو الخطيئة. كان ينتظر الفجر، لا ليرى الضوء، بل ليعرف إن كان عليه أن يقتل ليلى بيده، ويختفي من حياتها للأبد، حاملاً معه سرّه الذي صار لعنةً تسري في عروقه..

الفصل الثالث وعشرون:

هناك أوجاع لا تحكى، وتعجز أن تعبر عنها حتى بدموع ، تُعاش كصمتٍ طويل يبتلع كل الكلمات التي لم تجد من ينصت إليها، وآحيانا هذا الوجع المتراكم يتحول إلى انتقام.

كانت الساعةُ تشير إلى الرابعة فجراً، وهو التوقيت الذي يسكن فيه العالم، لكنه كان التوقيت الذي استيقظت فيه أكبر كوابيس بلال.

جلس في زاوية المختبر الباردة، تحت الأضواء الفلورية الشاحبة التي تجعل الوجوه تبدو كأنها من شمع. كان الطبيب حسام، صديقه القديم، يمسك بالورقة بيدٍ ترتعش، لم يجرؤ على النظر في عيني بلال.

بلال.. النتيجة لا تحتمل التأويل، قالها حسام بصوت مخنوق. نسبة التطابق الجيني بينك وبين العينة الأخرى هي 99.9%. أنتما توأمان من بويضة واحدة.. ليلى هي شقيقتك.

لم يصرخ بلال، ولم يذرف دمعة واحدة. بل شعر ببرودةٍ مفاجئة تسري في عموده الفقري، وكأن دمه تحول إلى جليد. سحب الورقة بهدوء قاتل، وشعر بأن ملمس الورق يحرق أصابعه.

خرج من المختبر، واستقبله هواء الفجر البارد الذي كان يلسع وجهه، لكنه لم يشعر به. كان عقله يعرض شريطاً سريعاً لكل لحظة قضاها مع ليلى؛ قبلاتهما، وعودهما، أحلامهما.. كل ذلك تحول في ثانية واحدة إلى محرمات مقززة، وإلى خطيئة كبرى زرعها أبٌ معدوم الضمير.

قاد بلال سيارته نحو قصر آل غانم بسرعة جنونية. كان يرى الطريق وكأنه نفق مظلم يؤدي إلى الجحيم. كان يقبض على المقود حتى ابيضت مفاصله، والندبة في يده اليسرى كانت تنبض بألمٍ غريب، وكأنها تصرخ باسمها الحقيقي. كان المونولوج الداخلي يمزقه:

- لقد أعجبت بأختي.. لقد وعدتُ بدمي من نبذني.. سأقتلك يا غانم، سأهدم هذا القصر على رؤوسكم جميعاً.

وصل إلى القصر مع خيوط الشمس الأولى. لم ينتظر الخدم ليفتحوا له، بل دفع البوابة الحديدية الضخمة ودخل بجبروت المحامي الذي لا يُهزم. وجد ليلى ووالدها في الشرفة الزجاجية، يتناولان القهوة بسلامٍ مستفز.

حين رأته ليلى، نهضت بابتسامة باهتة:

- بلال؟ لماذا وجهك هكذا؟ هل هناك مشكلة في العمل؟

لم يرد عليها بكلمات، بل ألقى بتقرير الـ DNA على الطاولة، ليتطاير الرذاذ من فنجان قهوة السيد غانم. اقرأ يا سيد غانم.. اقرأ شهادة ميلادي الحقيقية التي حاولت دفنها تحت تراب دار الأيتام.

التقط السيد غانم الورقة ببرود أرستقراطي، وحين وقعت عيناه على النتيجة، لم يتفاجأ، كان وكأنه يقرأ خبر عادي على جريدة ، وكأنه لا يخصه ، وازدادت ملامحه قسوة. أما ليلى، فكانت تقرأ والذهول يشل أطرافها.

ما هذا؟ صرخت ليلى وهي تنظر لبلال برعب.

- أنت.. أنت أخي؟ ذاك المنبوذ الذي تحدثتُ عنه؟

انفجر بلال ضاحكاً، ضحكةً هستيرية هزت أركان الشرفة:

- نعم يا خطيبتي السابقة!
- أنا هو المنبوذ الذي كنتِ تستحقرين ذكره بالأمس!

أنا العار الذي عاد ليطالب بمكانه في هذه المزبلة التي تسمونها قصراً!

انظري إلى يدي.. رفع بلال يده اليسرى في وجهها، هذه الندبة التي نبذني والدكِ لأجلها، هي صكي الوحيد لأثبت أنني أنتمي لهذه العائلة القذرة!

ارتجفت ليلى وتراجعت خطوةً للوراء وكأنها رأت شيطاناً خرج من تحت الأرض، ارتسمت على ملامحها علامات النفور الممزوج بالرعب، وصرخت بصوتٍ متهدج محاولة استعادة كبرياءها :

أخرجت ليلى خاتم الخطوبة من إصبعها ووضعتْه على الطاولة أمامَه ويدُها ترتجف.

لم تستطع أن تنظر إلى عينيه.

قالت بصوت منخفض متهدج:

أرجوك... لا تقل إن هذا الكلام صحيح.

أنا لم أعد أستطيع.

وجودك يؤلمني.

اخرج من حياتنا... أتوسل إليك.

لا أريد أن يُذكر اسمي إلى جانب اسمك مرة أخرى.

التفت بلال نحو السيد غانم، الذي وقف أخيراً، واضعاً يده في جيب سترته الفاخرة.

لماذا؟ سأل بلال بصوت متهدج من الغضب. لماذا ألقيت بي لآل جورج؟

لماذا لم تقتلني حينها وتركتني أعيش هذه المأساة؟

اقترب السيد غانم منه، ولم تكن في عينيه ذرة ندم:

لأنك كنت كسراً في ميزان العائلة، أنت لا تعلم ماذا كان سيقول الناس عنا..

نحن آل غانم لا نقبل بالبضاعة المعيبة. وُلدت بيدك هذه في وقت كنت أحتاج فيه لوريث يرفع رأسي، فكنت أنت خيبتي الكبرى. أبقيتك عند آل جورج لأنهم حثالة مثلك، والطيور على أشكالها تقع.

والآن، وجودك هنا يلوث سمعتي.. ارحل قبل أن آمر الحراس بسحلك في الشارع كأي متسول، ارحل قبل ان يراك أحد.

صرخ فيه بلال:

- أنا المحامي الذي خضع له كبار القوم

- سأهدم هذا القصر فوق رأسك! سأجعل اسم آل غانم مرادفاً للخزي في كل صحيفة وفي كل محكمة!

ضحك الأب بسخرية:

- أنت لا تملك شيئاً ضدي. اذهب لبيتك الشعبي وابكِ على أطلال كرامتك. أنت لا شيء بالنسبة لنا، مجرد خطأ قديم تم تصحيحه بنفيك.

خرج بلال من القصر وخطواته ثقيلة كأنها تدق مسامير في الأرض.

كان يشعر برغبة عارمة في أن يحرق العالم كله، لا ليطفئ ناره، بل ليجعل الجميع يشعرون بما في صدره من لهيب.

عاد إلى بيته. كان العم صالح جالساً في الصالة، وما إن رآه حتى نهض فزعاً، لكن بلال مر بجانبه دون كلمة واحدة.

عيناه زائغتان، وفكّه مشدود.

دخل غرفته وأغلق الباب خلفه. ولثوانٍ ساد صمت.

ثم بدأت العاصفة.

حطّم كل شيء وقعت عليه عيناه.

صور ليلى أولاً.

الهدايا التي احتفظ بها لأشهر... كسرها. كتب التاريخ التي اشتراها لأجلها ورماها على الأرض وداسها بقدميه حتى تقطعت صفحاتها.

المزهرية، المصباح، الكرسي... كل شيء في الغرفة تحول إلى شظايا تطايرت في الهواء ثم سقطت تحت قدميه.

وعندما هدأ كل شيء، جلس في وسط الخراب.

الغرفة مظلمة، والأنفاس فقط هي الصوت المسموع. كان يلهث، صدره يصعد ويهبط بغضب أسود كثيف.

وللمرة الأولى لم يشعر بالحزن على فراق ليلى، الحزن مات، مع كل ذكرياتها...

ما تبقى مكانه كان احتقاراً بارداً. احتقار لها لا يقل قسوة عن احتقاره لوالدها.

أدرك في تلك اللحظة أنها لم تكن سوى نسخة منه.

نسخة مشوهة الروح، تافهة، تقدس المظاهر وتلمع من الخارج، لكنها تبصق على الدماء في الداخل.

سأدمركم.. همس بلال لنفسه والدموع تجف على وجهه لتترك مكانها ملامح الشيطان. سأستخدم كل ثغرة قانونية، كل سر عرفته عن صفقاتكم، كل تاريخ ليلى وال جورج وعائلة جيوفاني كلها سأجعلكم تتمنون لو أنكم لم تلدوني، ولو أنكم لم تقتلوا فيّ الإنسان.

كانت السماء فوق بلال كقطعة من المخمل الأسود الذي لا يخرقه سوى ضوء القمر الشاحب، وكأن الطبيعة نفسها كانت تتواطأ مع بلال في تلك الليلة المشؤومة. وقف بلال على التلة المقابلة لقصر جيوفاني، يراقب ذلك الصرح الذي يشبه الوحش الجاثم في قلب الغابة.

لم يكن القصر مجرد بناء؛ كان حصناً من الحجر الجيري الأبيض الذي صبغت جدرانه دماء الضعفاء. تحيط به أسوار عالية تعلوها أسلاك شائكة مكهربة، وتتوزع على أركانه كاميرات مراقبة حرارية تمسح المحيط بضوء أحمر خافت يشبه أعين الشياطين.

بدأ بلال تحركه قبل ساعة من الوقت المحدد. لم يكن يرتدي بزة من النسيج الماص للضوء تجعله يختفي تماماً في العتمة. دهن وجهه بمادة طينية باردة لتقليل انبعاث حرارة جسمه وتضليل الكاميرات الحرارية.

تحرك بلال زحفاً على بطنه لمسافة مائتي متر عبر الأعشاب الطويلة. كان يتقدم سنتيمتراً تلو الآخر بتمهل ،يتوقف مع كل هبة ريح ليضمن أن صوت حركته يمتزج بحفيف الأشجار. وصل إلى المنطقة العمياء، وهي بقعة تقنية اكتشفها بعد أسابيع من الرصد، حيث تتقاطع زوايا كاميرتين فتتركان فجوة بعرض خمسين سنتيمتراً فقط ولمدة ثماني ثوانٍ خلال دورانهما.

عندما أعطت ساعته الاهتزاز الصامت، وثب بلال كالبرق. تسلق السور الخارجي مستخدماً خطافاً مغناطيسياً مكسواً بالمطاط لمنع الضجيج. وفي اللحظة التي قفز فيها داخل الأسوار، كان قد دخل عش الدبابير.

حدائق القصر تفوح برائحة غريبة؛ مزيج من عطر الياسمين الليلي الفاخر ورائحة البارود والكلور التي تنبعث من الثكنات القريبة. كانت المسارات مرصوفة بحجر الرخام المصقول الذي يعكس ضوء القمر، مما جعل عبوره انتحاراً.

استغل بلال نظام الري الآلي. عندما بدأت الرشاشات بنثر رذاذ الماء، استغل الضباب الكثيف المنبعث وتحرك بين شجيرات البوكسوس المقصوصة بعناية. رأى كلاب الحراسة من فصيلة دوبرمان تجوب الممرات، لكنه كان قد جهز كرات من اللحم المشبعة برائحة اللبأ وهي مادة تشتت انتباه الكلاب وتجعلها تشعر بالدوار دون نباح. ألقاها في الاتجاه المعاكس، ليفسح لنفسه طريقاً نحو الجهة الخلفية للقصر.

وصل إلى فتحة التهوية. كانت مغطاة بشبكة حديدية قديمة، الصدأ فيها يحكي قصة إهمال في هذا الركن المظلم. سحب زجاجة صغيرة من الحمض المركز، وقطّرها على البراغي ببطء. كان صوت فحيح المعدن وهو يتآكل يطغى على دقات قلبه المتسارعة. سحب الشبكة ببطء شديد، وانزلق للداخل كأفعى .

داخل الممرات الضيقة للتهوية، كانت الرائحة خانقة؛ غبار السنين، وعفن الرطوبة، ورائحة الزيوت المحترقة من المحركات. زحف بلال حتى وصل إلى شبكة تطل على الساحة الخلفية للبرج الغربي.

كان ماجد بنسبه لبلال العدو الأول ، فهو الرجل الذي كان يعذبه في قصر جيوفاني ويتبلى عليه أمام أمه سميرة وجورج فيعاقب بسبب ذنب لم يرتكبه.

كان ماجد يجلس في ركنه المعتاد خلف البرج الغربي، يشعل سيجارته وعيناه نصف مغمضتين من النعاس.

هبط بلال من الفتحة بصمت لا يصدقه عقل، كأنه ريشة سقطت من جناح غراب. مشى خلف ماجد، وكانت الأرضية الرخامية باردة تحت قدميه. هب نسيم بارد جعل ماجد يرتجف. التفت ماجد نصف التفاتة، لكن قبل أن تدرك عيناه النعسانتان هوية الشبح الواقف خلفه، كان نصل الخنجر المسنون قد استقر تحت فكه تماماً.

سد بلال فم ماجد بيده القوية التي تشققت من العمل الشاق. جحظت عينا ماجد، وحاول التخبط، لكن بلال همس في أذنه بنبرة تقطر سماً:

أتذكر ليلة الشتاء في غرفتك عندما حولتني لمدفئة؟ ،أتذكر عندما منعت عنا الماء لثلاثة أيام؟

اليوم.. ستشرب من دمك، لا تقلق لن يألمك هذا كثيراً، سوف أكون رحيم بك.

بحرقة الانتقام، غرس بلال الخنجر بعمق، لينهي حياة الجلاد في صمت مطبق. سحب الجثة خلف صناديق الخشب الكبيرة، وأخذ جهاز اللاسلكي الذي كان يبث وشيشاً متقطعاً لأصوات الحراس الآخرين.

لم يضع بلال وقتاً. ارتدى سترة ماجد العسكرية ووضع القبعة ليخفي ملامحه تحت ظلال الكاميرات الداخلية. توجه نحو البوابة الداخلية حيث كان حسام، العملاق الذي يفتخر بقوته البدنية، يقف متبختراً بهراوته الكهربائية التي كانت تطلق شرارات زرقاء مرعبة في الظلام.

كان حسام يلقب بالوحش، وكان يستمتع بسماع صوت تكسر عظام السجناء. قرر بلال أن يستدرجه لملعبه. دخل بلال إلى مخزن المؤن المجاور وضرب رفاً من المعلبات الحديدية عمداً.

صرخ حسام بصوت جهوري وهو يتجه نحو المخزن:

- من هناك؟
- ماجد.. هل هذا أنت أيها الأحمق؟

دخل حسام المخزن وهو يلوح بهراوته، لكن الغرفة كانت غارقة في ظلام دامس.

صرخ بغطرسة:

- اخرج يا من تلعب هنا، سأجعل عظامك طعاماً للكلاب!

فجأة، خرج بلال من خلف كومة من صناديق، لم يخرج بسلاح، بل بسلسلة حديدية ثقيلة كانت تستخدم لتقييد العبيد. التفّت السلسلة حول عنق حسام قبل أن يدرك ما يحدث. حاول حسام استخدام قوته الجبارة لفك القيد، لكن

بلال وضع ركبته في منتصف ظهر حسام وشدّ السلسلة بكل ما أوتِيَ من مرارة وقهر.

سقط حسام على ركبتيه فوق كومة من الأغلال الصدئة. كانت المفارقة مؤلمة؛ القاتل يموت فوق أدوات قتله. اقترب بلال من أذنه وهو يراه يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقال بصوت مخنوق بالدموع:

- هذه السلاسل التي أدميت بها معاصمنا.. هي من سيأخذ روحك الآن. ارحل إلى الجحيم، وأخبرهم أن بلال قادم للبقية.

ترك بلال جثة حسام هامدة، وأخذ سلاحه الرشاش. الآن، لم يعد متسللاً فحسب، بل أصبح جيشاً من رجل واحد داخل قلب قصر جيوفاني. كانت أضواء القصر لا تزال خافتة، لكن النيران في قلب بلال كانت كافية لإحراق القصر ومن فيه.

بعد أن أجهز بلال على حرس الطابق السفلي، صعد السلالم الرخامية الملتوية التي كانت تفوح منها رائحة البخور الغالي، رائحة كانت في الماضي تثير غثيانه لأنها كانت تمتزج دائماً برائحة دمائه. كان القصر في طابقه العلوي عالماً آخر؛ سجاد تبريزي أحمر يمتص صوت الخطوات، وجدران مزينة بلوحات لجيوفاني وعائلته وهم يبتسمون بغطرسة.

وصل بلال إلى جناح سميرة، المشرفة على الخدم التي كانت ترى في تعذيب الفتيات فناً ترتقي به في عيون جيوفاني.

دفع الباب بهدوء مريب. كانت تجلس أمام مرآتها الذهبية الكبيرة، تضع مساحيق التجميل وتدندن بلحن بارد. انعكست صورة بلال في المرآة؛ طيف أسود يخرج من العدم.

تجمدت يدها وهي تمسك بفرشاة الشعر. قبل أن تفتح فمها لتطلق صرخة تمزق سكون القصر، كان بلال قد قفز خلفها، واضعاً يده اليسرى على فمها بقوة جعلت أسنانها تصطدم ببعضها، بينما ضغط بنصل خنجره على رقبتها.

اقترب من أذنها حتى التقت أنفاسه الغاضبة بوجهها الذي صار بلون الكفن، وقال بنبرةٍ يقطر منها الصقيع:

- "هل تذكريني يا سميرة؟
- أم أن كثرة الضحايا أنستكِ الوجوه؟
- أنا ذلك الفتى الذي كانت سياطكم ترسم الخريطة على ظهره. أنا العار الذي ظننتم أنكم دفنتموه في سرداب النسيان، فبعثتُ حياً ليحاسبكم على كل دمعةٍ سقطت في مطبخكم البارد تحت سياطك.

بدأت سميرة ترتجف كعصفور بلله المطر، ودموع الرعب تذيب كحل عينيها.

لم يرحمها بلال؛ بل سحب من جيبه زوجاً من الأغلال الحديدية الثقيلة التي كانت هي من تختارها بعناية لتقييد الفتيات المتمردات. قيد يديها خلف ظهرها بقسوة، وكمم فمها بقطعة من ثوبها الحريري الفاخر الذي كانت تتباها به. نظر إليها بنظرة أخيرة وقال:

المفاتيح التي كانت تذلهم، ستكون اليوم خلاصهم.

انتزع حزمة المفاتيح الذهبية من خصرها وتركها ملقاة على الأرض، تنظر إلى المرآة لترى صورتها وهي ذليلة، بانتظار العبيد الذين سيعبرون من غرفتها بعد قليل ليثأروا لسنوات المهانة.

اتجه بلال نحو غرفة التحكم المحصنة في نهاية الرواق. كان جورج، أمين الأقفال، يجلس خلف عشرات الشاشات التي تراقب كل زاوية في القصر. كان رجلاً يعشق التكنولوجيا بقدر كرهه للبشر؛ يعتقد أن الأزرار والأسلاك هي من تحكم العالم.

توقف بلال خلف الباب المصفح. أخرج جهاز اللاسلكي الذي غنمه من ماجد، وغير صوته ليحاكي نبرة الخوف:

- جورج! افتح الباب أيها الأخرق!

هناك حركة غريبة عند السياج الشمالي، الكاميرات لا تعمل، أظن أن هناك اختراقاً!

تردد جورج لثانية، لكن غطرسته جعلته يظن أن لا أحد يجرؤ على دخول عرين الأسد. ضغط على زر الفتح الإلكتروني.

انفرج الباب، فاندفع بلال كالسهم. قفز جورج نحو سلاحه الملقى على الطاولة، وامتدت يده الأخرى بذعرٍ نحو زر الإنذار. لم يمهله بلال اي لحظة لتنفس.

رصاصة واحدة صامتة من المسدس الذي بيدي بلال سبقت حركته. سكن كل شيء؛ سقط جورج قبل أن يلمس الزر، وبقي بلال، وسلاح ماجد، وصمت العدالة المرّ، وبدم بارد، ضغط بلال على الزر الأكبر في اللوحة:

- تحرير شامل لجميع القطاعات.

سمع بلال صوت طقطقة الأقفال الإلكترونية وهي تفتح في أرجاء القصر؛ كان ذلك الصوت بالنسبة له أجمل من أي معزوفة عالمية. لقد انكسرت هيبة النظام الأمني، وأصبح القصر الآن كتاباً مفتوحاً للثوار.

نزل بلال إلى القبو، حيث الممرات الضيقة التي تفوح منها رائحة الرطوبة والقاذورات والخوف القديم. كانت الأبواب الحديدية الثقيلة مفتوحة على مصراعيها. صرخ بلال بصوت زلزل أركان القبو:

- الحرية! اخرجوا يا رفاق!
- جيوفاني سقط! اليوم لا سيد إلا كرامتكم!

بدأت الرؤوس تظهر من خلف القضبان. كانت الوجوه شاحبة، غائرة العينين، تبدو كأنها خرجت من قبور جماعية.

خرج إحدى الرجال والذي كان يعرف بلال حق المعرفة يدعى صقر

صقر بصوت مرتجف:

- بلال؟ أهذا أنت أم أن الجوع جعلني أهذي؟

بلال وهو يمسك بيده:

- إنه أنا يا صقر. لم يعد هناك جوع، ولم يعد هناك سياط. خذ هذا السلاح، اليوم أنت من سيحمينا.

ثم التفت بلال ليرى الفتيات، الفتيات التي كانت سميرة تتفنن في كيّ يديها بالنار. كانت تنظر إلى الأبواب المفتوحة بذهول، غير مصدقة أن الشمس قد تشرق عليها وهي حرة.

بلال:

- يا فتيات ، سميرة مقيدة في غرفتها بالأعلى.. تذكرن صراخاتكن الذي كانت تضحك عليه؟ اذهبوا وذكروها به.

قالت احداهن :

- لن أتركها تصرخ يا بلال.. سأجعلها تتمنى الصراخ ولا تجده.

تحول القصر في دقائق إلى ساحة حرب مقدسة. لم يكن العبيد المحررون يبحثون عن الذهب، بل عن الكرامة. بدأوا بتحطيم التماثيل الرخامية لجيوفاني، تلك التماثيل التي كان عليهم الانحناء لها كل صباح. مزقوا الستائر المخملية الفاخرة واستخدموها لربط جراحهم وتغطية أجسادهم الهزيلة.

كان المنظر مهيباً؛ مئات الأجساد التي أنهكها الذل، تتحرك الآن بآلية الغضب. كان بلال يقف في وسط الردهة الكبرى، يوزع الأسلحة التي غنمها من مخزن الحرس. كان يرى في عيونهم تحولاً جذرياً؛ من أرقام في سجلات جيوفاني إلى بشر يكتبون تاريخهم بدم جلاديهم.

صرخ بلال وسط ضجيج التحطيم :

- اسمعوني جيداً القصر لنا الآن، لكن جيوفاني لا يزال في جناحه المحصن. لا تقتلوا الخدم الصغار، ابحثوا عن الرؤوس الكبيرة.
- احرقوا الظلم، لكن لا تحرقوا الأمل الذي أخرجكم من الزنازين!

☆ بلال ☆

اشتعلت النيران فجأة، كان المطبخ يختنق. تصاعد الدخان الأسود ليعمي البصر، وصار صرير الخشب المحترق هو الصوت الوحيد الذي يعلو فوق صرخاتهم. ركضتُ، لا أعرف إلى أين، لكن حرارة الجدران كانت تدفعني دفعاً نحو المخرج. لم تعد رائحة الكلور هي التي تنهش أنفي، بل رائحة الموت الوشيك. تحطمت النافذة، وتطاير الزجاج كشظايا، لم أفكر في جمال المشهد، بل في رئتيّ اللتين أوشكتا على الانفجار.

☆ الراوية ☆

وسط هذا الصخب، كان بلال يتحرك في الرواق الشرقي، يركض فوق السجاد الذي بدأ يتفحم، وتتطاير فوق رأسه شظايا الثريات الكريستالية التي كانت تنفجر بفعل الحرارة العالية، مساقطةً مطراً من الزجاج الحاد الذي يلمع كسكاكين سماوية.

كانت رائحة الماهوجني المحترق تمتزج برائحة الكبريت، وأزيز الرصاص الذي يطلقه العبيد المحررون في الأسفل يتردد صداه في الممرات كأنه تصفيق للقدر. بلال لم يكن يرى شيئاً سوى صورة أمل؛ تلك الفتاة التي كانت النور الوحيد في نفق عبوديته المظلم.

وصل بلال إلى الباب الفولاذي الضخم الذي يفصل العالم الخارجي عن الأجنحة المحرمة، كان الهواء هنا بارداً بشكل غريب، وكأن جيوفاني قد سجن الشتاء نفسه خلف هذه الأبواب. أخرج بلال حزمة المفاتيح الذهبية التي غنمها من سميرة، وكانت يداه ترتجفان بحدة.

ليس الآن.. لا ترتجفي الآن!

صرخ بصوت مبحوح وهو يحاول إدخال المفتاح في القفل المعقد. كان يسمع خلفه صوت انهيار سقف الممر الذي جاء منه، مما يعني أن طريق العودة بدأ ينسد. بعد محاولات يائسة، انفرج القفل بصوت معدني ثقيل.

اندفع داخل الممر الطويل. كانت الجدران هنا مكسوة بالحرير الأرجواني، وعلى جانبيها تماثيل لنساء من الرخام الأبيض بوجوه باكية، بدأ بلال يفتح الغرف بجنون: دخل الغرفة الأولى كانت مخزناً لفساتين السهرة المنهوبة، تفوح منها رائحة عطور قديمة وميتة .

ثم ركض نحو الغرفة الثانية كانت مكتب الذي يحتوي على قبو سري، مليء بالملفات التي توثق صفقات بيع البشر. لم يتردد بلال؛ سحب شعلة من النار المشتعلة في طرف الممر وألقاها في قلب الأوراق. همس وهو يرى النيران تلتهم قيودهم الورقية:

اليوم ينتهي تاريخنا كأرقام، لنولد من جديد كبشر .

وصل أخيراً إلى نهاية الممر، حيث الباب رقم ٤٠٢. كان الباب مختلفاً؛ لا ثقب للمفتاح فيه، بل لوحة رقمية وماسح للبصمة. تذكر كلمات جورج الأخيرة قبل أن يلفظ أنفاسه:

- أمل خلف الحديد الإلكتروني.. لا مفاتيح هناك.

ضرب بلال الباب بقبضته، فارتد الألم إلى كتفه. نظر حوله بجنون، ليجد مطفأة حريق معدنية ضخمة مثبتة على الحائط. انتزعها بكل ما أوتي من غضب السنين. صرخ صرخة هزت أرجاء الممر:

أمللللل!.

بدأ يضرب القفل الإلكتروني بالمطفأة.

ضربة الاولى لم تفلح إلا بتحطم الغطاء البلاستيكي وتطايرت الشرارات الكهربائية، تبعتها الضربة الثانية انبعج المعدن وبدأ النظام يطلق صفيراً متقطعاً.

وضرب ضربة الاخيرة التي استجمع فيها ملئ طاقته كانت ضربة الحرية؛ حيث انخلع القفل من مكانه واندفع الباب ليصطدم بالجدار الداخلي بقوة.

دخل بلال الغرفة. كانت رائحتها تشبه رائحة المسك الممزوج بالخوف. كانت الغرفة مذهبة، سرير وفير، وسجاد ناعم، لكنها كانت زنزانة بامتياز؛ نافذة

واحدة ضيقة تعلوها قضبان غليظة تحجب حتى رؤية الدخان المتصاعد من الخارج.

في زاوية الغرفة، كانت أمل منكمشة، تضع يديها فوق أذنيها، وجسدها يرتجف بعنف. كانت تظن أن الانفجارات في الخارج هي نهاية العالم، أو ربما جيوفاني جاء ليجهز عليها قبل هروبه.

جثا بلال على ركبتيه أمامها، وكان يلهث، ووجهه مغطى بالرماد والدماء. نزع اللثام الأسود عن وجهه، ومد يده المرتجفة ليمسح خصلة شعر سقطت على وجهها الشاحب.

قال بنبرة حانية، نبرة انصهرت فيها كل قسوة المعركة:

أمل.. ارفعي رأسكِ.. انظري إليّ

رفعت أمل رأسها ببطء شديد، وعيناها الواسعتان مليئتان بالانكسار. عندما وقع بصرها على عينيه، تجمدت الدماء في عروقها لثانية ، همست بصوت لم يكد يسمعه:

بـ ... بلال

هل أنا في حلم؟ هل مِتنا؟

أجابها وعبرة حارة تشق طريقها عبر السواد على وجهه

- لا يا أمل، نحن لم نمت.. نحن ولدنا للتو

انكسر القيد يا حبيبتي، والجلاد صار يرتعد في جحره. أنا هنا لأسترد بكِ إنسانيتي.

في تلك اللحظة، انتفضت أمل من ركنها كأن تياراً كهربائياً أصابها.

ارتمت في حضنه بقوة كادت تسقطه أرضاً، وأحكمت يديها حول عنقه وهي تنتحب بمرارة، صرخات مكتومة كانت تختزنها لسنوات خرجت الآن على كتفه. كانت تشد على قميصه وكأنها تخشى أن يختفي إذا أفلتته.

قالت وهي تشهق:

ظننتك قتلت.. ظننت أنهم أطعموا جسدك للكلاب،

مسد بلال على رأسها وقال:

قلبي كان يحرسني من أجل هذه اللحظة. والآن، كفّي عن البكاء، فالدخان يزحف إلينا، وعلينا أن نخرج من هذا القبر.

حمل بلال أمل، التي كانت واهنة الجسد كأنها غصن يابس، وخرج بها إلى الردهة الكبرى. كان المنظر هناك يفوق الوصف. العبيد الذين حررهم بلال لم يعودوا خائفين؛ رأى صقر وهو يحمل رشاشاً بيده ويقود مجموعة من الشباب لتأمين المخارج.

رأى العبيد بلال وهو يحمل أمل، فتوقفوا عن التحطيم للحظة، ورفعوا أسلحتهم في الهواء هاتفين باسمه. كان المشهد يشبه لوحة الحرية تقود الشعب.

بلال! انظر! صرخت ليلى وهي تشير نحو الشرفة العلوية.

هناك، كان جيوفاني يظهر بسترته الحريرية الملطخة بالدخان، يحمل حقيبة جلدية ضخمة ويحاول التسلل نحو مهبط الطائرات المروحية. كانت ملامحه التي كانت توحي بالوقار قد استحالت إلى قناع من الرعب الخالص.

أنزل بلال أمل برفق خلف عمود رخامي ضخم.

- ابقِ هنا يا أمل.. لا تتحركي.

هناك حساب أخير يجب أن يُصفى.

نظرت إليه أمل بخوف: لا تتركه يقتلك يا بلال.. لقد استعدك للتو.

ابتسم بلال ابتسامة باردة كالنصل: الموت يخشى من ليس لديه ما يخسره يا أمل.. وأنا اليوم، لديّ كل شيء لأعيش من أجله.

استدار بلال، وسحب مخزن الرصاص ليتأكد من جاهزيته، ثم انطلق كالبرق نحو السلالم المشتعلة، تاركاً خلفه جيشاً من الأحرار ينتظرون إشارة النهاية،

بينما كان جيوفاني يدرك في تلك اللحظة أن ماله وسلطانه لن ينقذاه من طيف عاد من الموت ليطالب بحقه.

كانت الصالة الكبرى تشبه الجحيم؛ أعمدة الدخان الأسود تتلوى كالأفاعي، وصوت تصدع الرخام تحت وطأة النيران يشبه طلقات الرصاص. وقف جيوفاني وسط هذا الخراب، لم يعد ذلك السيد المهيب، بل بدا كجذع شجرة نخرة توشك على السقوط. كانت يده التي تحمل المسدس ترتجف بعنف، وعرقه يمتزج بغبار الرماد المتساقط.

صرخ جيوفاني بصوت مبحوح يملأه الجنون:

سأقتلك أيها الحشرة! سأبيدكم جميعاً!

هذا ملكي.. هذا تاريخي الذي بنيته بدمائكم!

خطا بلال خطوة نحو الأمام، لم تكن مشيته مشية عبد خائف، بل كانت مشية قدر لا يرد. كانت عيناه تعكسان لهيب القصر، لكن قلبه كان أبرد من الجليد. أجابه بصوت هادئ، هدوء ما قبل العاصفة:

القصر لا يحترق وحده يا جيوفاني.. بل يحترق معه عصر العبودية. أملاكك التي تفتخر بها؟

انظر خلفك.. إنهم الآن هم القضبان التي ستسجنك إلى الأبد.

وقبل أن يرتدّ إصبع جيوفاني على الزناد، كان بلال قد تحول إلى إعصارٍ من الغضب؛ اندفع بلمح البصر، قفز محلقاً في الفراغ كصقرٍ انقضّ على طريدته، ووجّه لكمةً خاطفة استقرّت في منتصف وجه جيوفاني، فهوى الأخير كتمثالٍ من طين، والدماء تفجرت من أنفه لتلطخ رخام القصر البارد. وسُمع صوتُ ارتطام المسدس بالرخام، مال بلال بجسده قليلاً والتقط المسدس من الأرض حرّكه بين يديه كأنّه يكتشفه للمرة الأولى، ثم رفع بصره إلى جيوفاني وقال بصوتٍ يملئه الاحتقار:

أمضيتُ عمري في غياهب العبودية..

بهذه الأسلحة البسيطة كنت تحكمنا، لكنك أنت لا تُخيف، ما كان يُخيف حقاً هو هذا المعدن.

صمت للحظة، إلى أن أضاف ببرود:

والآن قصرك المتغطرس، وحُرّاسك المرتزقة، وكل من احتميت خلفهم.. ذهبوا جميعاً إلى الجحيم.

عسى أن يلتفّوا ويحترقوا هناك .

أنت لا تُخيف يا جيوفاني، لم تكن يوماً مخيفاً.. ما كان يُخيفنا هو جهلنا بأن هذا المعدن هو كل ما تملك.

اقترب بلال بخطواتٍ وئيدة من جيوفاني وأخرج مخزن الرصاص من المسدس وألقاه على الأرض، ثم رمى السلاح في الجهة المقابلة، وقال وهو يحدّق في عينيه:

حان وقتُ الحساب.. ليس لأنك جعلتني عبداً، فالعبودية قيدٌ كسرته منذ زمن، بل لأن رجالك تجرأوا على سجن عمي صالح، ولأن أمل ذاقت الويلات بسبب نزواتك.. الآن، قِف يا صاحب الجلالة! قِف يا حاكم الرماد.. قِف كالرجال ودافع عن بقايا كرامتك قبل أن أقتلع روحك بيدي هاتين.

وقف جيوفاني وهو يلتفت يمنةً ويسرة كحيوانٍ محاصر يبحث عن مخرج ما، حينئذٍ ارتسمت على أسارير وجه بلال ابتسامةُ سخرية، وقال وهو يقطّب حاجبيه:

انظر جيداً، التفت كما تشاء.. فلن تجد إلا ظلك المهزوم. اليوم سأكسر هذا العنق الذي طالما ارتفع بالباطل.

استشاط جيوفاني غيظاً، وانفجر بركان ذله في لكمةٍ ثقيلة يائسة أصابت وجه بلال.

لكن بلال لم يهتز، لم يتراجع شعرة واحدة، بل ظل واقفاً كالجبل،

ازداد توتر جيوفاني، فانهال عليه بلكمةٍ ثانية، ثم ثالثة، ولا يزال بلال واقفاً بشموخ، لا يدافع عن نفسه.

إلى أن رفع إبهامه الأيمن ومسح الدم عن شفتيه، وقال بهدوء: هل تعلم؟

بعد كل هذه السنين لم تعد ضرباتك تؤلمني.

اقترب خطوة، وحدّق فيه بازدراء وهو يقول:

أهذه ضربات رجل؟

إن كان هذا صحيحاً فأنا أشكّ في رجولتك..

ارتجف جيوفاني لا من الخوف بل من الغضب الذي فاض عن احتماله.

تشنج فك جيوفاني، واضطرب نَفَسه حتى كاد يختنق بغضبه، وراحت عيناه تدوران في محجريهما بجنون، حتى صرخ بآخر ما تبقى له من كبرياء زائف:

اصمت أيها العبد القذر!

لكن الكلمات خرجت مخنوقة، مهزوزة، لم تكن أمراً بل كانت عويلاً يائساً.

قهقه بلال بقوة: هكذا إذاً؟

هذا هو البعبع الذي كان يُرعب القصر؟

سقط السلاح فسقط القناع.. أنت لا شيء بدونه، مجرد حشرة لبست ثوب الملوك.

وفجأة، تحولت ملامح بلال إلى القسوة المطلقة. اندفع كالصاعقة، وسدد لكمةً أطاحت بجيوفاني أرضاً.

جثا بلال فوق صدره، وبدأ ينهال عليه بقبضتيه كالمطارق.. يمنى.. يسرى.. يمنى.. يسرى. وتوالت الضربات بلا عدٍّ ولا رحمة..

استمر الحال دقائق، حتى شعر وكأن الأكسجين قد اختفى من حوله، وبرزت عروق ذراعيه، وتلطّخت يداه بالدم.

وقف أخيراً ومسح العرق عن جبينه...

لم يكن بلال يضرب جيوفاني، بل كان يدفن الرجل الذي عاش عمره كلّه واقفاً على حرية أناس ضعفاء.

ومال برأسه قليلاً، كأنما اتخذ قراره أخيراً، وقال:

القتل رصاصة رحمة.. وأنت لا تستحق حتى الرحمة.

مال بلال بجسده أمسك بجيوفاني من قدمه بقوة تخلع العظم، تماماً كما كان جيوفاني يأمر بسحب العبيد المنهكين.. سحبه جثةً هامدة الروح، فاقدة للكرامة، خلفه نحو الساحة الخارجية حيث تجمع العبيد المحررين ، تحت ضوء القمر الذي شهد أخيراً نهاية الظلام.

ألقاه بينهم وقال بصوت سمعه الجميع:

هذا هو إلهكم الذي كان يجلدكم.. انظروا إليه الآن.. مجرد بشر يرتجف.

وتركه لهم ليرى بعينيه كيف ينهار ملكه تحت أقدام من كان يذلهم، ثم التفت عائداً إلى أمل ليحملها ويشق طريقهما وسط الدخان نحو المخرج السري.

ثم التفت عائداً إلى أمل ليحملها ويشق طريقهما وسط الدخان نحو المخرج السري.

عند مخرج النفق الذي يؤدي إلى الغابة، كان العم صالح يقف بعصاه، يراقب ألسنة اللهب التي تلتهم القصر بابتسامة نصر حزينة. عندما رأى بلال يخرج حاملاً أمل، ووراءه مئات العبيد الذين بدأت وجوههم تستعيد ألوان الحياة، صرخ بأعلى صوته:

الله أكبر! اليوم وُلدنا من جديد!.

وضع بلال أمل في إحدى العربات التي جهزها العم صالح، والتفت لينظر إلى القصر للمرة الأخيرة. كان البناء المهيب يتداعى، ورجال جيوفاني الذين عذبوا الناس سنوات صاروا مجرد ذكريات سوداء تحت الرماد. سار بلال بجانب العربة، ممسكاً يد أمل، بينما كانت قوافل الأحرار تشق طريقها عبر الغابة نحو قرية بعيدة، حيث لا سياط، ولا أغلال، ولا أسياد.

ومع بزوغ فجر يوم جديد، تلاشت أصوات الانفجارات وحل محلها زقزقة العصافير التي عادت لتغرد فوق الأنقاض.

نظر بلال إلى الشمس التي بدأت تشرق من خلف الجبال، وشعر لأول مرة ببرد الصباح يداعب وجهه دون خوف. لقد نجحت الخطة، وتحقق الانتقام، والأهم من ذلك، أن أمل كانت بجانبه، تتنفس الحرية مع كل شهيق.

طوى بلال صفحة العبودية إلى الأبد، وبدأ يخطط لبناء مجتمع جديد في تلك القرية النائية، مجتمع يقوم على العدل والكرامة، حيث سيحكي للأجيال القادمة كيف استطاع رجل واحد، بقلب مؤمن وإرادة من حديد، أن يحطم أسوار أقوى القلاع ويحرر أمة من المظلومين.

لم تنتهِ الحكاية عند أسوار القصر المحترقة، بل انتقلت إلى قاعة المحكمة الكبرى التي غصت بالحشود والصحفيين والضحايا الذين لم يصدقوا يوماً أنهم سيقفون وجهاً لوجه أمام جيوفاني وهو ذليل في قفص الاتهام.

دخل بلال القاعة مرتدياً ثياباً نظيفة، وبجانبه أمل التي بدأت تستعيد نضارتها بفضل الرعاية والحرية.

بينما كان العم صالح يجلس في الصفوف الأولى وعيناه تلمعان بفخر لم يسبق له مثيل. ساد الصمت المطبق عندما دخل جيوفاني، الذي بدا شاحباً وضئيلاً دون حراسه وسلاحه، وخلفه محاميه الذي فقد كل غطرسته وبدأ يرتجف وهو ينظر إلى آلاف الوثائق والملفات التي صادرها رجال الشرطة من القصر المحترق.

بدأ المدعي العام بسرد قائمة الجرائم التي تقشعر لها الأبدان؛ من الاتجار بالبشر، والتعذيب الممنهج، إلى القتل العمد وإخفاء الجثث في سراديب القصر.

حاول المحامي الخبيث الدفاع عن سيده مدعياً أن جيوفاني كان يحمي هؤلاء الناس ويوفر لهم العمل، لكن القاعة انفجرت بالاحتجاج عندما وقف بلال بصفته الشاهد الرئيسي.

تقدم بلال نحو المنصة بخطوات واثقة، ولم ينطق بكلمة في البداية، بل اكتفى بخلع قميصه ليظهر للحاضرين وللقاضي الندوب العميقة التي حفرتها سياط حسام وماجد في ظهره، تلك الخريطة من الألم كانت أبلغ من أي خطاب قانوني، فخيم ذهول مرعب على القاعة وانخرط بعض الحاضرين في البكاء.

تحدث بلال بصوت ثابت هز أركان المحكمة، روى تفاصيل الليالي المظلمة، وصراخ الأطفال، ومكائد سميرة، وجبروت جورج، وكيف كان المحامي يزور الأوراق الرسمية ليوهم السلطات بأن القصر ليس سوى مزرعة خاصة هادئة.

لم يستطع المحامي الرد عندما قدمت الشرطة التسجيلات السرية التي استخرجتها من غرفة التحكم المحطمة، والتي وثقت لحظات التعذيب بدم بارد.

في تلك اللحظة، انهار جيوفاني تماماً، وبدأ يصرخ بجنون متهماً محاميه وحراسه بأنهم هم من دفعوه لذلك، لكن القاضي طرق بمطرقته بقوة معلناً أن ساعة الحساب قد دقت ولا مكان للأعذار في محراب العدالة.

نطق القاضي بالحكم التاريخي:

السجن المؤبد لجيوفاني مع الأشغال الشاقة في أبعد السجون الصحراوية، والحكم على المحامي بالسجن لمدة عشرين عاماً بتهمة التستر والمشاركة في الجرائم ضد الإنسانية.

عندما نُطق الحكم، تعالت صيحات الفرح والعناق بين العبيد المحررين الذين ملأوا القاعة، بينما سِيق جيوفاني مكبلاً بالأغلال نحو عربة السجن، وفي تلك اللحظة تحديداً، تلاقت عيناه بعيني بلال للمرة الأخيرة.

لم يرَ جيوفاني في عيني بلال حقداً، بل رأى برود ينم عن انتصار الروح؛ لقد سقط الطاغية قانونياً كما سقط جسدياً من قبل، وانتهت أسطورة القصر الملعون إلى الأبد.

خرج بلال وأمل والعم صالح من باب المحكمة إلى ضوء الشمس الساطع، حيث كانت الحشود تنتظرهم بالهتافات والورود. لم يعد بلال العبد السابق، بل صار المحرر الذي أعاد الحق لأصحابه.

أمسك يد أمل وانطلقا نحو سيارة صغيرة كانت تنتظرهم لتأخذهم إلى قريتهم الجديدة، هناك حيث سيبدؤون حياة هادئة بعيداً عن ضجيج السلاسل.

ومع ابتعادهم عن صخب المدينة، نظر بلال إلى السماء الصافية وأدرك أن الأمل لم يكن مجرد اسم للفتاة التي أحبها، بل كان حقيقة تجسدت في كل روح حرة تتنفس الآن بفضله، وأن العدالة مهما تأخرت، فإنها تأتي كالفجر، تمحو ظلام السنين بضربة واحدة من نور اليقين.

الفصل الرابع وعشرين :

في نهاية كل نفق مظلم، إما أن نجد الضوء، أو نصبح نحن الضوء الذي يحرق الظلام.

كانت اللحظات التي تلت خروجهم من باب المحكمة تشبه ولادة جديدة من رحم العدم. لم يكن الضوء الذي غمرهم مجرد انعكاس لأشعة الشمس على الرخام البارد، بل كان شعوراً بالانعتاق يسري في العروق.

بلال، الذي قضى سنوات يظن أن قيمته تُقاس بقوة قيوده، وقف هناك شامخاً، يوزع الابتسامات على الحشود التي رأت فيه بطلاً قومياً.

أما أمل، فقد كانت تتشبث بذراع والدها العم صالح، وكأنها تخشى أن يكون هذا كله حلماً ورديا سينتهي بصوت سوط السجان.

انطلقت السيارة الصغيرة تخترق الزحام، تبتعد عن صخب المدينة التي شهدت عذابهم، متجهة نحو قرية الوادي الأخضر.

كانت الطريق طويلة، لكنها مرت كلمح البصر، فقد كان الصمت بين الثلاثة يضج بالكلمات والمشاعر التي لا تُقال.

حين حلّ المساء، كان البيت الريفي الصغير ينضح برائحة الأرض والزعتر.

اجتمعت العائلة حول مائدة عشاء متواضعة، ضمت خبزاً ساخناً وزيتاً وزيتوناً، لكنها كانت في أعينهم ألذ من موائد القصور المليئة بالسموم والضغينة.

كانت أمل تجلس بجانب والدها، تميل برأسها على كتفه في مشهد يختصر سنين الفقد. كانت تغمض عينيها لتستشعر دفء الأبوة الذي حُرمت منه خلف أسوار القصر اللعين، حيث كانت الجدران هناك باردة كقلوب ساكنيها.

توقف العم صالح عن الأكل، ونظر إلى السقف ثم إلى ابنته وبلال، وقال بصوت عميق يهز الوجدان:

يا أبنائي، انظروا كيف يغير الله من حال إلى حال. بالأمس كنا خلف القضبان، واليوم نحن ملوك في مملكة الحرية.

بدأ العم صالح يسرد لهما كيف أن الإسلام جاء لينقذ البشرية من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وكيف أن الله لا يرضى بالظلم لعباده. تأثرت أمل بشدة، وبدأت دموعها تنهمر بصمت. كانت دموعاً تمزج بين الفرح بالخلاص والتأثر بعظمة هذا الدين الذي أعاد لها كرامتها.

كان بلال يرقبها بصمت غريب. لم يكن ينظر إليها كما ينظر الرجال للنساء في القصور؛ نظرة تملّك أو شهوة، بل كان ينظر إليها بإعجاب وتقديس. فكر في نفسه:

هذه أول فتاة أراها تتحدث بصدق، تبكي بصدق، وتعيش بصدق. بعيداً عن صبغ الوجه، وبعيداً عن كلمات النفاق الخداعة. أمل ليست مجرد امرأة، إنها روح تجسدت فيها كل معاني الطهر.

فجأة، خيم صمت ثقيل على الغرفة. توقف العم صالح عن الحديث، وبدت عليه علامات القلق والتوتر. نظر إلى بلال طويلاً، ثم تنحنح وقال بنبرة يملؤها الرجاء:

يا بلال.. يا بني الذي لم تلده صلبي، أريد منك خدمة عظيمة، وأسألك بالله ألا تردني فيها.

فزع بلال من لهجة العم صالح، واعتدل في جلسته قائلاً:

يا عمي، أنت سندي ووالدي. والله لو طلبت رقبتي قانوناً وفداءً لك، لمددت لك عنقي راضياً. اطلب ما تشاء، فكلي فداء لك.

تنهد العم صالح تنهيدة خرجت من أعماق قلبه المثقل بالسنين، وقال بصوت متهدج:

يا بني، لقد أكلت الأيام من جسدي ما أكلت، وأشعر أن رحيلي قد اقترب.

لا يحزنني الموت، فالموت حق، ولكن ما يؤرقني هو هذه الأمانة التي بين يدي. أمل.. ابنتي التي ذاقت المر معي. أريد أن أطمئن عليها في كنف رجل لا يظلمها، رجل يعرف قدرها ويخاف الله فيها.

سكت قليلاً ليجمع شتات نفسه، ثم تابع والدموع تترقرق في عينيه:

يا بلال، لقد خبرتك في الشدائد، ورأيت نبل أخلاقك حين كنت عبداً وحين أصبحت حراً. لذا، فإني أوصيك بأمل زوجة لك. أريدك أن تكون لها الحصن والمنار. والله يا بلال، لن أجد في الأرض كلها من هو أفضل منك صوناً لها.

التفت العم صالح إلى أمل، التي كانت تنظر إلى الأرض بخجل شديد، وقال لها بحنان الأب الحكيم:

يا بنيتي، بلال ليس رجلاً عادياً. إنه رجل صهرته النيران فخرج ذهباً خالصاً. إنه نبيل في زمن عزّ فيه النبل، وصالح في زمن كثر فيه الفساد. سيكون لكِ عوناً في الدنيا، ورفيقاً يوصلكِ إلى الجنة في الآخرة. هل توافقين يا ابنة صالح؟

بلال، الذي تملكته الدهشة والشرف، قال والكلمات تخرج منه بصعوبة:

يا عمي.. إنه لشرف يطاول السماء أن تكون أمل شريكتي. والله إنني أرى نفسي أقل بكثير من أن أعامل رجلاً مثلك كوالدي، فكيف وأنت تمنحني أغلى ما تملك؟

إن وافقت أمل، فسأضعها في سواد عيني.

رفعت أمل رأسها، وكانت نظراتها مليئة باليقين، وقالت:

يا والدي، أنا أثق باختيارك ثقة عمياء. وبلال.. لقد رأيت شجاعته وصلاحه في أصعب الظروف. أنا أقبل به زوجاً ورفيقاً لدربي.

ابتسم العم صالح ابتسامة عريضة مسحت تعب السنين، ثم أمسك يد بلال ووضعها فوق يد أمل وقال:

اعلم يا بني أن النبي ﷺ كان نعم القدوة في معاملة النساء. كان يرقق الأسماء لزوجاته تودداً، وكان يساعدهن في شؤون البيت، ولم يضرب امرأة قط. بل إنه في سكرات موته، لم ينسَ أن يوصي بكنّ قائلاً: استوصوا بالنساء خيراً.

يا بلال، إن الله يغار على قلب المرأة المؤمنة، وعقاب من يظلمهن عظيم. من أهان زوجته فقد أهان نفسه أمام الله ورسوله. الظلم في الدنيا سينقلب وبالاً ونكالاً في الآخرة. فكن لها كما كان النبي لخديجة وعائشة؛ سكناً وأماناً.

بعد يومين، تحولت القرية إلى ساحة للفرح الحقيقي. لم تكن هناك أبواق صاخبة، بل كانت هناك أناشيد دينية تلامس الروح. اجتمع أهل القرية يباركون للمحرر والصابرة.

زُفت أمل في ثوب أبيض بسيط، لم يزينه ألماس القصر، بل زينه نور وجهها الذي استرد عافيته.

أما بلال، فقد بدا كملك متوج بوقاره. حين اقترب منها في ليلة الزفاف، ساد صمت عجيب، كانت نظراتهما تتحدث بلغة لا يفهمها إلا من تذوق طعم الظلم ثم ذاق برد العدل.

كانت لمسة بلال ليد أمل لأول مرة مليئة بالرفق والرهبة، وكأنه يلمس طيراً جريحاً يخشى عليه من الانكسار. همس في أذنها:

يا أمل، أعدكِ أمام الله، أن أعوضكِ عن كل سوط نال من جسدك، وعن كل كلمة جرحت كبرياءك. أنتِ الآن حرة في قلبي، والقلب لا يملك إلا أن يحب مالكه.

ردت عليه بنظرة خجولة مليئة بالحب:

يا بلال، لقد رأيت فيك النور حين كان العالم مظلماً. وأنا اليوم زوجتك التي ستسير معك في طريق الصلاح، فكن لي كما كان رسول الله لأهله، وأعدك أن أكون لك السكن الذي تلجأ إليه.

الفصل الخامس وعشرون

ليس الموت هو ما نخشاه، بل أن نعيش طويلاً لدرجة أن نرى كل من أحببناهم يتحولون إلى غرباء، وشخص الوحيد الصادق يتوفاه الموت.

لم تكن الممرات مجرد ردهات إسمنتية، بل كانت أمعاءً حجرية لغولٍ يبتلع الأحياء. سحب الحراس جيوفاني، وكان صرير قيوده يتردد في الرواق الطويل كأنه نعيٌ أخير. كانت الجدران تنضح بمادة لزجة تشبه القيح، تفوح منها رائحة الفور مالين الممزوجة بعرق السجناء القديم والصدأ الذي أكل الحديد والنفوس.

كان جيوفاني يجرّ جثته جرّاً؛ آثار ضربات بلال وعبيد لم تكن مجرد كدمات زرقاء، بل كانت خريطة هزيمة مرسومة على جلده. عينه اليسرى منغلقة تماماً، وشفته المشقوقة تنزف دماً داكناً يلوث قميصه الحريري الممزق، ذلك القميص الذي كان يوماً رمزاً لسطوته كتاجر للبشر، وأصبح الآن كفناً لكرامته.

توقف الحراس أمام الزنزانة رقم 9، المعروفة بالقبر الواسع.

فتح الباب الحديدي بصوتٍ يشبه صرخة شيطان محبوس.

في الداخل، كان الجو ثقيلاً لدرجة أن التنفس يتطلب مجهوداً عضلياً. الضوء الوحيد كان يأتي من شق صغير في السقف، يرسل شعاعاً هزيلاً يظهر ذرات الغبار والذباب الذي يحوم فوق رؤوس السجناء.

هناك، في الظل، كان يقبع رجالٌ تحولوا إلى تماثيل من غضب. أحدهم يسنّ قطعة معدنية على حجر، وآخر يحدق في الفراغ بعينين غارقتين في السواد.

تقدم رجل ضخم البنية، ذو نظرة ثاقبة وهيبة فطرية، وجهه مليء بندوب إنه رئيس الزنزانة أكاجي.

ساد الصمت وهو يتفحص الوافد الجديد المحطم.

همس الرئيس بصوت رخيم هز جدران المكان: سمعتك القذرة سبقتك يا هذا.

بينما كان السجناء يحيطون بجيوفاني . تاجر اللحم البشري.

نفتح الباب الجانبي ليدخل رجلٌ يقطر عرقاً، بملابس رثة ممزقة من أثر الأعمال الشاقة التي كُلف بها. إنه هاتس، المحقق الذي سقط من قمة النزاهة إلى قاع الجريمة.

استقبله رئيس الزنزانة أكاجي بابتسامة نادرة تنم عن احترام عميق، فهاتس بذكائه وبروده استطاع أن يصبح نائبه ويده اليمنى في هذا المجتمع المصغر.

قال أكاجي وهو يشير إلى جيوفاني: هاتس، ألقِ نظرة على ضيفنا الجديد.

جيوفاني، الرجل الذي بنى مزارعاً من البشر.

تصلبت ملامح هاتس. في تلك اللحظة، لم يرَ أمامه مجرماً عادياً، بل رأى شبح الماضي ينهض من القبر. تذكر القضية التي دمرت حياته؛ تذكر صديقه

الوفي جاسر ذلك رجل الأربعيني الذي خاطر بكل شيء، وتظاهر بأنه عبد في مزرعة البشر ليجمع الأدلة. تذكر تلك الأوراق التي سلمها له الصديق وهو يرتجف، آملاً أن يحرر المظلومين.

لكن النظام كان أقذر. الرشاوي والتهديدات أغلقت الملف، وصديقه جاسر قُتل بدم بارد على يد جيوفاني، وضاعت التضحية في دهاليز الفساد. هاتس فقد نزاهته بعدها، علم أن الحق لن يتحقق في مثل هذا العالم الغارق في الظلام ، ثم طاوعته نفسه لاتهام انسان برئ بقتل، وارتكب جريمتا قتل، وانتهى به الأمر هنا.. بينما جيوفاني ظل طليقاً حتى الآن.

رفع جيوفاني رأسه برعب، ليرى وحشاً يرتدي ثياب سجين.

هجم هاتس كإعصار، لم تكن مجرد لكمات، كانت تفريغاً لسنوات من القهر والندم. صرخ بغضب:

- كل سوط ضربتَ به عبداً، كان يمزق قلبي!
- كل صرخة لصديقي وهو يُقتل، كانت تطاردني في نومي!

كان يضربه ودموعه تختلط بعرقه ودماء خصمه. تضحية جاسر لم تكن هباءً.. واليوم، أنا لستُ محققاً، ولا سجين ،أنا الجلاد!

تدخل أكاجي وأمسك بهاتس ليهدئه، ليس رحمة بجيوفاني، بل لأن الموت السريع رحمة لا يستحقها.

وقف هاتس وسط الزنزانة، وروى للسجناء الذين هم أنفسهم ضحايا مجتمع ظالم قصة جاسر ووحشية جيوفاني.

وطلب من أكاجي أن يسمح له أم يطفئ نيران قلبه.

ساد صمتٌ مرعب، لم يُسمع فيه إلا أنفاس جيوفاني المرتجفة. السجناء، الذين فقدوا كل شيء، وجدوا في جيوفاني الشيطان الذي يستحق أن يُرجم.

قال أكاجي بصوت رخيم:

في سجننا، لا يوجد قانون.. يوجد حق. وهذا الرجل مديون لك يا هاتس، واليوم يُسدد الدين باللحم لا بالذهب.

بأمرٍ من أكاجي اقترب رجلان من جيوفاني أمسكاه بالقوة، جعلاه يجلس على ركبتيه، وثبّتوه أرضاً في وسط الزنزانة تحت شعاع الضوء الباهت.

كل حركة منه محدودة لا قدرة له على المقاومة.

وقف هاتس أمامه، وجهه الآن بارد كالثلج، وعيناه ميتتان إلا من بريق انتقام وحشي. ونظر إلى جيوفاني وقال:

جاسر مات وهو يحاول إخراج الناس من جحيمك.. أما أنا، فسأدعك تعيش في جحيمي إلى الأبد.

بصق هاتس على الأرض، وبدأ الطقس الأخير، بينما بدأ السجناء يطرقون على الجدران بإيقاع منتظم وجنائزي، معلنين بداية عذاب جيوفاني الأزلي.

مال هاتس بعُنقه قليلاً فصدر صوتُ طقطقةٍ كأنّه يُعيد بذلك ترتيب ما تبقّى من غضبه. كان ضوء المصباح الخافت المتدلي من سقف الزنزانة يتذبذب، يرمي بظلالٍ مشوهة على الجدران المقشرة التي تفوح منها رائحة الرطوبة والصدأ.

وقال ببرود للرجال الذين يُمسكون بجيوفاني:

اتركوه فأنا لستُ ضعيفاً حتى أحتاج مساعدتكم، وتذكّروا: لن يتدخّل أحدٌ منكم مهما حدث وسيحدث أمّا أن يقتلني أو اقتله..

تراجع الرجال خطوةً إلى الخلف بينما رفع هاتس قبضتَيه في وضعية الهجوم، وصوته خرج ساخراً وهو يلتفت إلى أكاجي:

عُدّ لعشر دقائق، في هذا الوقت سأفقد آخر ذَرّةٍ من إنسانيّتي، ليعرفوا أن رجل القانون قد تحطّم إلى الأبد، ولم يعد لديه ما يخسره..

كان جيوفاني منهك الجسد، يحدّق فيه بعينين امتلأتا خوفاً..

اندفع هاتس فجأة وركلةٌ خاطفة بقدمه أصابت منتصف وجه جيوفاني، وتطاير رذاذٌ أحمر. أفقدته الضربة توازنه، ترنّح خطواتٍ إلى الوراء لكن لم يُمهله هاتس، قفز نحوه ولكمةٌ ثقيلة استقرّت على أنفه فتهشّم تحتها..

سقط جيوفاني ممدّداً على الأرض والدم ينزف من أنفه المعطوب..

بينما ابتسامةٌ باردة ارتسمت على ثغر هاتس لا فرح فيها ولا نشوة..

عاد إليه طيفُ جاسر صديق العمر، الأخ الذي لم يُنكره يوماً، الملجأ الوحيد الذي كان يجد عنده أماناً في هذا العالم القاسي. جاسر الذي مات لأن العدالة خانته.

قطع شروده ضحكٌ خافت من أكاجي وهو يقول: أنت وغدٌ بالكامل، من رأسك إلى اخمص قدميك..

مال هاتس برأسه إليه وقال بصوتٍ خافت:

إذاً فقد كنت معلماً ناجحاً، والآن انظر إلى تلميذك وهو يتجاوز أستاذه..

قال ذلك ثم تقدّم بخطواتٍ وئيدة نحو جيوفاني، ومدّ يده قائلاً:

لن أسمح لك بالموت الآن، هات يدك وقف..

تردّد جيوفاني قليلاً لكنه مدّ يده وهو ليرى بضبابية.

وما إن نهض حتى استدار هاتس خطوةً إلى الخلف تاركاً له المسافة.

بصق جيوفاني علقماً أحمر من فمه على الأرض وهو

يحدق فيهم باحتقار، بينما أحكم قبضتيه حتى ابيضّت مفاصل أصابعه، ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ تخلو من أي ود ونطق:

تتقاسمون ألقاب الوغادة بينكم وأنا حاضر؟

الوغد الحقيقي هنا هو أنا، والآن، سأريكم كيف يكون الفعل لا الكلام..

ساد صمتٌ ثقيل، حتى صوت قطرات الماء المسربة من أنابيب الزنزانة كان مسموعاً

واندفع نحو هاتس وضرب بكل قوته بقبضة يده على فكه فتطايرت قطراتٍ صغيرة من اللعاب الممزوج بالدم..

ثم استهدف ساقه بركلةٍ قاسية بأسفل الساق اصطدمت بعضلة فخذه، مما جعلت ركبته تخونه وتلامس الأرض رغماً عنه، فقبض على شعر هاتس ورفع رأسه للأعلى، ليجبره على النظر في عينيه وكأنه يريد منه أن يرى هزيمته قبل الضربة الأخيرة.

هتف السجناء بحماس، وبعضهم التصقت وجوههم بالقضبان ليروا المشهد بوضوح أكبر.

ابتسم جيوفاني ببرود ثم صفع بقوةٍ جعلت رأس هاتس يهوى بعنف، ليرتخي جسده تماماً وينكفئ وجهه على الرخام البارد والدماء تسيل من فمه..

عمت لحظة صمتٍ في الزنزانة وعيون الجميع صوب هاتس تحرك أحد الرجال سريعاً واندفع جيوفاني لكن اكاجي صاح بصرامة: قف مكانك يا هذا هاتس لم يمت بعد، المعركة قائمة للفناء..

سكن جسد هاتس لثوانٍ بدت كأنها دهر، قبل أن يضغط بكل قوته ليوقف ارتعاش ذراعه، ويقف، تمايل لثوانٍ، ونظر إلى جيوفاني بعينين تشتعلان بالجنون قائلاً:

كنتُ سأرد على كلامك التافه لكنك اخترت الغدر، خطى نحوه بخطواتٍ هادئة وارتسمت على سيمائه ملامح شخصٍ ليس لديه ما يخسره، وكأن قضبان الزنزانة خلفه لم تعد سجناً له، بل صارت عرينه الخاص..

حاول جيوفاني توجيه لكمةٍ لكن هاتس أمسكه من معصمه وأدار جسده، وأسقطه أرضاً ثم وضع قدمه على صدره وضغط بقوة، فتعالى أنين جيوفاني ألماً.

حدّق فيه بمرارة وقال: مات جاسر، لكن طيفه بقي حياً، تحطم رجل القانون هاتس، لكنه لم يفقد كبريائه..

وأخرج من جيبه علبة سجائر، أخذ واحدة، أشعلها، وسحب منها نفساً عميقاً ثم زفر بدخانها ببطء وحوّل بصره إلى الرجل الذي كان قبل قليل يسنّ قطعةً حديدية، وقال: أريد سلاحك..

أومأ الرجل برأسه إيجاباً ورماه إليه. أمسكه هاتس، فأشار أكاجي إلى رجاله قائلاً:

أظنّكم لم تفهموا بعد فلسفة هاتس، ارموا سلاحاً آخر لتاجر العبيد...

رفع أحد الرجال الفِراش عن السرير وأخرج من تحته سلاحاً حاداً ورماه نحوه.

أخذ هاتس نفساً عميقاً من سيجارته ثم رفع قدمه عن صدر جيوفاني، وتراجع خطوتين إلى الخلف، ورمى بالسجارة أرضاً وداس عليه بقدمه والشرر يتطاير من عينيه بينما السلاح في يده، ثابت كامتداد لذراعه، لا ارتجاف ولا خوف..

نهض جيوفاني ببطء وهو يلهث ممسكاً بسلاحه كالغريق الذي يلتقط طوق نجاة بلا ثقة فقط غريزة للبقاء حياً..

اندفع وصياحه سبق الهجوم، ضربته العشوائية شقّت الهواء لا غير بينما تحرك هاتس بخفة بالتفافة سريعة، ثم ردّ بجرح جانبي دفع جيوفاني خطوة للوراء كانت ضربة خفيفة اصاب وجهه..

في تلك اللحظة، توقف السجناء عن الضجيج، وحبسوا أنفاسهم، فالهواء في الزنزانة أصبح مشحوناً برائحة الموت الوشيك.

ارتسمت ابتسامة باردة لا حياة فيها على سيماء هاتس فاندفع وطعن كتفه بينما ارتجف جسده من الألم لكن هاتس لم يتوقف عند هذا الحد، بل طعن ذراعه فسقط السلاح من يده فامسكه هاتس وطعن الجانب الأيمن من صدر هاتس، وقبل أن يرتد الأخير من الأثر، كانت يده اليسرى تطعنُ الجهة المقابلة، مخترقةً دفاعاته لتصيب الأنسجة الرخوة تحت الأضلاع.

استمر في هذا الإيقاع وهو ينخفض بجسده تدريجياً طعنةٌ في البطن، تلتها أخرى في الخاصرة، وكل ضربة كانت تدفع جيوفاني للأسفل، مجبر إياه على الانحناء حتى سقط على ركبتيه ودمه الغزير لطخ قميصه الممزق وأنفاسه تتقطع بينما دار هاتس حول نفسه دورة سريعة ثم حرك السلاح بسرعة نحو عنقه فانشقت الجلد وتدفق الدم القاني ليلطخ وجه هاتس..

فسقط جيوفاني أرضاً وهو يلفظ آخر أنفاسه..

بينما ارتسم على ثغر هاتس ابتسامة عريضة والدماء تتقطر من يديه وهو يقول: من الوغد الآن....

الفصل السادس وعشرون:

أنا لا أحاربُ الأعداء فحسب، بل أحاربُ ذكرياتي، وضعفي، وصوتَ التعبِ في داخلي الذي يرجوني أن أستسلم.. أنا جيشٌ من رجلٍ واحد

كانت أشعة الشمس ترسم خطوطاً ذهبية متراقصة على الأرضية الترابية الممزوجة بالتبن، وتلقي بنورها على الستائر القطنية البسيطة التي كانت تتحرك ببطء مع نسمات الصباح الباردة. في ذلك البيت، كان الصمت يلف الأركان، لكنه لم يكن صمت خوف، بل صمت السكينة التي افتقدوها لسنوات.

استيقظت أمل بقلب يخفق برضا لم تعهده؛ شعرت لأول مرة أن الهواء الذي يدخل رئتيها طاهر، لا تشوبه رائحة العفونة أو الخوف التي كانت تسكن زوايا ذلك القصر اللعين.

قامت من فراشها، ورتبت ثيابها البسيطة التي كانت تبدو في عينيها أرقى من حرير الملوك لأنها ثياب الحرية. وقفت أمام المرآة الصغيرة المكسورة الطرف، ومسحت على وجهها الذي بدأت تعود إليه حمرة الحياة بعد شحوب دام سنوات تحت وطأة السياط والذل.

توجهت نحو المطبخ الصغير، وبدأت تمارس طقوس الحرية كما تسميها. غسلت الأواني الفخارية ببطء، وأشعلت الموقد الصغير، ووضعت إبريق الحليب. كانت رائحة الحليب الدافئ الممزوج برائحة الخبز الطازج تمثل لها قمة

الرفاهية. كانت تدندن بلحن قديم كانت والدتها تغنيه لها قبل أن تسرقها المنية، لحن لم تكن تجرؤ على الهمس به خلف أسوار القصر حيث كان الغناء محرماً على العبيد إلا إذا كان للترفيه عن الأسياد.

سكبت الحليب في الكوب الفخاري الكبير الذي اشتراه بلال خصيصاً للعم صالح، ووضعت قطعة من الخبز الساخن وقليلاً من العسل.

حملت الصينية بيديها اللتين كانت ترتجفان لا خوفاً، بل غبطةً ويقيناً. اتجهت نحو غرفة والدها بخطوات وئيدة، كانت تريد أن تفاجئه بهذا الفطور الجميل قبل أن يخرج للصلاة. طرقت الباب بلطف:

والدي.. يا نور عيني وسر وجودي، استيقظ فقد أشرقت الشمس وتنتظرك لتبارك يومنا.. أعددت لك الحليب الذي تحبه.

لم يأتِ رد ظنت أمل أن التعب قد نال منه، فوالدها لم ينم ليلة أمس إلا قليلاً، فقد قضى معظم ليله يصلي ويشكر الله على نصرهم. فتحت الباب ببطء، فصدر منه صرير طفيف. كان العم صالح مستلقياً على ظهره بوقار شديد، يده اليمنى موضوعة بسلام فوق صدره جهة القلب، واليسرى ممدودة بجانبه كأنها تستريح بعد طول عناء.

كان وجهه منيراً بشكل لم تره من قبل، كانت ملامحه ساكنة جداً، والابتسامة الخفيفة المرتسمة على شفتيه كانت توحي بأنه رأى في منامه مقعده من الجنة أو التقى بأحبة طال شوقه إليهم.

وضعت أمل الصينية على الطاولة الخشبية المجاورة، وانحنت لتقبل يده الخشنة التي أفنى عمره وهو يعمل بها ليحميها. عندما لامست شفتاها يده، صدمتها برودة غريبة، برودة ليست من برد الشتاء، بل برودة السكون الأبدي.

تجمدت الدماء في عروقها، واتسعت عيناها بذهول. رفعت رأسها لتنظر إلى وجهه، كانت عيناه مغمضتين بهدوء تام، ولم يكن هناك أي أثر لحركة في صدره أو نبض في عروق رقبته.

وضعت يدها المرتجفة فوق قلبه، ضغطت قليلاً كأنها تحاول استجداء خفقة واحدة، لكن الصمت كان هو الجواب الوحيد. في تلك اللحظة، انهار السقف فوق رأسها، وانشطر العالم في عينيها إلى نصفين. سقط كوب الحليب من يدها ليتهشم على الأرض وتتناثر شظاياه الفخارية، وخرجت من أعماق صدرها صرخة مدوية هزت أركان البيت الريفي، صرخة حملت في طياتها وجع سنين العبودية وفزع اليتم الذي جاء في وقت لم تتوقعه:

"يااااااااااا بلال! أدركني يا بلال! والدي لا يجيب! والدي رحل وتركني يا بلال!"

كان بلال في الفناء الخارجي الصغير، يقلّم بعض الشجيرات ويخطط لمستقبل أجمل، وما إن سمع تلك الصرخة التي مزقت نياط قلبه حتى سقط المقص من يده واقتحم المنزل كالإعصار. دخل الغرفة ليتفاجأ بأمل جاثية على ركبتيها بجانب السرير، تمسك بقميص والدها وتنتحب بصوت يقطع القلب، وهي تهزه بعنف يائس:

استيقظ يا أبي.. لا تتركني الآن، لقد وعدتني أن نعيش معاً في ظل الحرية.. لا تكسر قلبي يا والدي!.

جثا بلال بجانبها، وضع يده على رقبة العم صالح يبحث عن بصيص نبض، ثم وضع أذنه فوق صدره لعله يسمع صوتاً، لكنه أدرك الحقيقة المرة. أغلق بلال عينيه بقوة، وانفجرت دموعه بصمت مرير، كان يبكي بمرارة على الرجل الذي كان له الأب والقدوة، الرجل الذي أدخله دين الإسلام، والذي علمه وأعطاه ما لم يعطي أب ولده ، احتضن بلال أمل بقوة، وضم رأسها إلى صدره وهو يشهق بنحيب مكتوم:

إنا لله وإنا إليه راجعون.. يا أمل، لقد استرد الله أمانته.. رحل الرجل الصالح الذي علمنا أن الحق لا يموت.. اصبري يا ابنة الأكرمين.

كان المشهد يفطر القلوب؛ رائحة الحليب المسكوب على الأرض، وشظايا الفخار المحطمة، وجثمان رجل صالح يبتسم للموت، وشابان يبكيان ضياع السند في أول فجر حقيقي لهما.

بعد أن هدأت عاصفة الصراخ الأولى، ساد الغرفة صمتٌ ثقيل لا يقطعه إلا شهقات أمل المنكسرة التي كانت تحاول جاهدة استيعاب فكرة أن جسد والدها المسجى أمامها لم يعد فيه روح. كان بلال لا يزال جاثياً على ركبتيه، يمسح دموعه بطرف كمه، وعيناه لا تفارقان وجه العم صالح. قام بلال ببطء، وكأن أثقال الجبال قد وضعت على كتفيه، واقترب من رأس السرير.

جلس بلال على حافة الخشب القديم، وأمسك بيد العم صالح الباردة بكلتا يديه، وقبل ظهرها وباطنها بخشوع ومحبة. نظر إلى التجاعيد المحفورة في يد الراحل، تلك التجاعيد التي كانت تروي قصة كفاحٍ مرير من أجل الحق. بدأ

بلال يتحدث بصوت منخفض ومبحوح، لكنه كان صوتاً يحمل قوة العهد والميثاق:

يا عم صالح.. يا والدي، أقسم لك بالله العظيم، وبكل حرف علمتني إياه من كتاب الله في لياليا المظلمة، أن أكون لـ أمل الحصن الحصين، والمنار الهادي. سأحفظها في سواد عيني، وسأفتديها بروحي قبل جسدي. لن يمسها ضيمٌ وأنا أتنفس، ولن تذرف دمعة حزنٍ إلا ووجدت منديل حناني يسبقها. سأكون لها الأب الذي فقدته، والأخ الذي لم تنجبه أمها، والزوج الذي لا يرى في الأرض امرأة سواها.

سكت قليلاً ليبلع غصة الحزن، ثم تابع وعيناه تفيضان بالدمع:

أعدك يا والدي أن أسير على نهجك الذي رسمته لنا، ألا أحني رأسي لظالم، وألا أصمت عن حق مظلوم. سأظل مدينًا لك بكل نَفَس حر أتنفسه، وسأذكر اسمك في كل سجدة بين يدي الله، سائلاً له أن يسكنك الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين. لقد رحلت بجسدك، لكن روحك ستبقى تسري في عروقنا، ونورك سيضيئ لنا دروب الغربة.

التفت بلال نحو أمل التي كانت تنظر إليه بعيون تملؤها الحيرة والوجع، فقام نحوها وجلس تحت قدميها، ورفع وجهها المبلل بالدموع بكفيه، وقال لها بلينٍ نبويّ وصوتٍ يقطر حناناً:

"يا أمل.. يا حبيبة الروح، انظري إليّ واسمعيني جيداً. الموت حق، واللقاء في الجنة حق.

يقول الله تعالى في محكم تنزيله:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ لْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).

لقد نلنا نصيبنا من الخوف والجوع في القصر اللعين، واليوم يبتلينا الله في الأنفس بوفاة والدك. لقد مات وهو يبتسم، ألا ترين نوره؟ لقد مات بعد أن أتمّ رسالته، واطمأن أنكِ في حماية رجلٍ يصونك. لا تبكي يا بنيتي كمن لا يرجو لله وقاراً، بل اصبري واحتسبي، فوالله وبالله وتالله إنني لكِ كما كان هو لكِ، وأكثر.

بدأت أخبار وفاة العم صالح تنتشر في أرجاء القرية كالنار في الهشيم. لم يكن العم صالح مجرد عابر سبيل، بل كان رمزاً للحق والعدل. توافد أهل القرية، الصغير منهم والكبير، لتقديم واجب العزاء. قام بلال بنفسه بمساعدة إمام

المسجد في تغسيل الجثمان، وكان يسكب الماء بيده وهو يتمتم بالدعاء، ويشعر بأن كل قطرة ماء تغسل هموم السنين عن جسد هذا الرجل الصابر.

كُفن العم صالح في أطهر الأثواب البيضاء، وحُمل النعش على أكتاف الرجال. كانت الجنازة مهيبة بشكل لم تشهده القرية من قبل؛ مشهد تقشعر له الأبدان، حيث سار مئات الرجال خلف النعش بصمتٍ مطبق لا يقطعه إلا صوت التهليل والتكبير.

كانت أمل تنظر من خلف نافذتها، والدموع تنهمر بصمت وهي ترى والدها يغادر البيت الذي لم يشبع من السكن فيه، لكنها كانت تشعر بفخرٍ غريب، فقد رأت كيف أن الصالحين يُزفون إلى قبورهم كالملوك.

وصلت الجنازة إلى المقبرة، وتقدم بلال لينزل في القبر ليستقبل جسد والده ومربيه.

كانت يده ترتجف وهو يضع الجثمان في لحده، وكأنه يضع قلبه تحت التراب. سد بلال اللحد باللبن، وأهالوا عليه التراب حتى واروه الثرى. وقف بلال عند رأس القبر، وقد اختلط عرق جبينه بدموع عينيه وبتراب الأرض، ورفع يده بالدعاء طويلاً، بينما تحلق الناس حوله يؤمنون على دعائه.

بعد انصراف الناس، بقيت أمل وبلال أمام القبر في لحظة وداع أخيرة. جثيا معاً فوق التراب الطري، وقالت أمل بصوت مخنوق:

وداعاً يا سندي، وداعاً يا أول من علمني أن الحرية تُنتزع ولا تُوهب. أعدك أن أربي أبنائي على اسمك، وأن تظل ذكراك عاطرة في بيتنا الجديد.

أمسك بلال يدها بقوة، ونظر إلى القبر نظرة أخيرة وقال:

نلتقي عند حوض النبي ﷺ يا والدي.. نم قرير العين، فالأمانة في أيدٍ أمينة.

بعد انقضاء أيام العزاء الثلاثة، كان الحزن لا يزال يخيم على البيت الصغير، لكن بلالاً أدرك أن عليه واجبًا أخيراً تجاه ماضيه لكي يستطيع المضي قدماً نحو المستقبل بقلبٍ فارغ من أي قيود خفية.

استيقظ بلال في صبيحة اليوم الرابع، وارتدى ثيابه البسيطة لكنها كانت نظيفة ومرتبة تعكس وقاراً لم يكن يمتلكه حين كان يرسف في الأغلال.

نظر إلى أمل التي كانت تحاول جاهدة أن تبتسم في وجهه رغم غصة الفقد، وقال لها بهدوء:

يا أمل، سأذهب اليوم لإغلاق بابٍ قديم، لكي لا يطرق أحد منه حياتنا مرة أخرى. ابقي هنا، وسأعود إليكِ قبل غروب الشمس.

لم تسأله أين يذهب، فقد كانت تثق بقلبه ثقة عمياء، وكأنها تعلم أن زوجها الفارس يذهب ليقطع آخر حبال العبودية.

توجه بلال نحو المدينة، وتحديداً نحو قصر آل غانم.

ذلك القصر الذي قضى فيه سنوات من عمره، لا كابنٍ مدلل كما تقتضي الفطرة، بل كغريبٍ ومنبوذ، ثم كعبدٍ بيع بأبخس الأثمان حين طالب بكرامته.

كان القصر لا يزال يربض في مكانه بأسواره العالية وأعمدته الرخامية، لكنه في عين بلال بدا اليوم أصغر بكثير، بدا كأنه قفص ذهبي يسكنه أناسٌ محبوسون في غرورهم.

اجتاز بلال البوابة الكبرى، وحين رآه الحراس ارتبكوا؛ فقد سمعوا عن بلال المحرر الذي هز قاعات المحاكم.

دخل إلى قاعة الاستقبال الكبرى، حيث كان والده، السيد غانم، يجلس مع أبنائه الآخرين حول مائدة عامرة بالترف. ساد الصمت المفاجئ فور دخوله، وانصبّت الأنظار عليه بمزيج من الدهشة والارتباك والحقد المكتوم.

تقدم بلال بضع خطوات، وقف بصلابة في منتصف القاعة، ولم ينحنِ كما كان يفعل قديماً، بل ظل رأسه مرفوعاً يلامس سقف العزة. تنحنح السيد غانم وحاول استرداد هيبته وقال بصوت أجش:

أهلاً بالابن الضال.. هل جئت لتطلب العفو؟ أم أنك طمعت في ميراثك بعد أن صرت حراً؟.

ابتسم بلال ابتسامة هادئة، ابتسمت فيها روحه قبل شفتيه، وقال بصوتٍ جهوريّ هزّ جدران القصر:

لا تخف يا سيد غانم، ولم أقل يا والدي لأن الأبوة رحمة وأنت لم تعرفها يوماً.

لم آتِ لأطلب مالاً ولا ذهباً، فميراثي الحقيقي هو هذه الكرامة التي أقف بها أمامك اليوم. جئت فقط لأخبركم أنني دفنت قبل أيام الرجل الوحيد الذي استحق أن أناديه أبي؛ العم صالح الذي أنقذني من ذلكم، وعلمني أن الإنسان روحٌ لا تُباع ولا تُشترى.

صمت بلال قليلاً ليشاهد وقع كلماته على وجوههم الشاحبة، ثم تابع:

"لقد جئت لأمنحكم ما لم تمنحوني إياه يوماً.. جئت لأخبركم أنني سامحتكم أمام الله.

سامحتكم لكي لا أحمل ثقل كراهيتكم في قلبي وأنا أمضي في دربي الجديد. سامحتكم لأن قلبي صار أطهر من أن يلوثه الحقد. لكن، اسمعوني جيداً:

لا تأتوا لي يوماً معتذرين، ولا تذكروا اسمي في مجالسكم، فأنا لست منكم ولستم مني. لقد شطبت أسماءكم من كتاب حياتي، وأغلقت خلفي هذا الباب إلى الأبد.

انعموا بقصركم، فإني وجدت في كوخ العم صالح ما لم تجدوه أنتم في كل كنوزكم.. الوداع.

استدار بلال بكل شموخ، وخرج من القصر دون أن يلتفت خلفه، تاركاً إياهم في ذهولٍ مطبق، وكأنه ألقى في وجوههم بمرآة كشفت قبح نفوسهم.

كانت شمس الغروب تصبغ سماء الريف بلون الياقوت، وكان بلال يسير في الممر الطويل المؤدي إلى منزله الريفي الصغير، يحمل في يده باقة من الياسمين

البري. كان قلبه يرقص فرحاً؛ فقد انتهت المحاكمة، وأصبح حراً ليس فقط في الأوراق، بل في روحه أيضاً.

من بعيد، لمح أمل. كانت تقف أمام باب المنزل الخشبي، ترتدي فستاناً أبيض يرفرف مع نسمات المساء، وشعرها يتطاير كأنه قطعة من الليل. عندما رأته، ارتسمت على وجهها ابتسامة أضاءت الكون، ورفعت يدها تلوح له بلهفة اللقاء، وهي تنادي بصوتٍ ملأه الحب:

بلال! عدتَ يا حبيب العمر! عدتَ تعال .

أسرع بلال خطاه، كانت المسافة بينهما تتقلص، والضحكات تملأ الفناء. كان يرى في عينيها المستقبل، البيت الصغير، والأطفال، والحياة التي سُرقت منهما لسنوات. مد يده نحوها وهو يضحك، ولم يتبقَّ بينهما إلا خطوات معدودة ليلتقي الجسدان في عناق النصر.

وفجأة، تجمد الزمان. من خلف إحدى شجيرات الصفصاف الكثيفة، برز ظلٌ أسود، حركة سريعة كالبرق لم يلحظها بلال في غمرة فرحه. سُمع صوت تمزق النسيج، وتبعه صوت انغراس نصلٍ بارد في لحمٍ دافئ.

كان أحد أتباع جيوفاني المخلصين، ممن فروا من قبضة القانون، قد قرر أن يغرس خنجره في ظهر المحرر.

شهق بلال شهقةً مكتومة، اتسعت عيناه بذهول، وسقطت باقة الياسمين من يده لتتبعثر على التراب. تجمدت أمل في مكانها، تجمدت الابتسامة على شفتيها لتتحول إلى ملامح رعبٍ لا يوصف.

سقط بلال على ركبتيه ببطء، والدماء القانية بدأت ترسم دائرة حوله. صرخت أمل صرخةً مزقت سكون الريف، صرخةً لم تكن بشريّة، بل كانت عويلاً لروحٍ تُذبح. ارتمت على الأرض، تسحف نحو بلال الذي كان يحاول التقاط أنفاسه، واحتضنت رأسه وهي تنتحب بجنون:

بلال! لا تتركني! استيقظ!

لقد انتصرنا يا بلال.. لا تغمض عينيك!

كانت يداها ترتعشان وهي تحاول سد الجرح المنهمر بدماء بلال الطاهرة، ودموعها تسقط على وجهه الشاحب، بينما بدأ أهل الريف يهرعون من كل حدبٍ وصوب، وجوههم تعلوها الصدمة والذهول وهم يرون بطلهم يصارع الموت في أحضان حبيبته.

حُمل بلال على الأكتاف وسط ضجيج البكاء ودعوات العجائز. نُقل في سيارةٍ متهالكة نحو المشفى المركزي، وكانت أمل تجلس بجانبه، تمسك يده التي بدأت تبرد، وتهمس في أذنه بكلماتٍ لا يسمعها غيره، تتوسل إليه ألا يرحل ويتركها وحيدة في هذا العالم القاسي.

وصلوا إلى المشفى، حيث هرعت الأطقم الطبية، واختفى جسد بلال خلف الأبواب الفولاذية لغرفة العمليات.

جلست أمل على الأرض، ظهرها للمسند، وعيناها مسمرتان على المصباح الأحمر المشتعل فوق الباب. مر الساعات كأنها دهور، حتى خرج الطبيب، كان العرق يتصبب من جبينه، ونظر إلى أمل بنظرةٍ كسيرة ورأسه إلى الأرض قال بصوتٍ خفيض:

للأسف.. يا أختي، الإصابة كانت عميقة جداً ووصلت للرئة. حالته حرجة للغاية، وقد نفقد المريض في أي لحظة. ادعوا له، فالمعجزة الآن بيد الله وحده.

انهارت أمل، لم تعد تقوى على الوقوف. بدأت تحوم في أروقة قسم العمليات كروحٍ هائمة، لا تأكل ولا تشرب، ترفض مغادرة المكان.

مر أسبوع.. ثم أسبوعان.. ثم شهر كامل.

كان بلال لا يزال في غيبوبة عميقة، تحيط به الأجهزة من كل جانب، وصوت المنبه الخاص بضربات قلبه هو الإيقاع الوحيد في الغرفة ، وكان ضغيفاً حتى، وفجأة توقفت دقات قلب بلال عن نبض، صرخت الممرضه :

لقد فقدنا المريض!!!.

أيها طبيب لقد توقف نبض المريض بلال!!

توجه الأطباء نحو غرفة وقاموا بالإنعاش بالكهرباء، أعادت له نبضه لكنه بطئ.

بينما سحبت أمل خارج المشفى لكي لا تنهار فوق انهيارها .

الجميع قد فقد الأمل؛ الأطباء بدأوا يتحدثون عن موت سريري، والجيران بدأوا يواسون أمل بكلمات الوداع.

لكن أمل لم تفقد إيمانها. كانت تزوره كل يوم، تمسك يده النحيلة، وتقرأ له آياتٍ من القرآن، وتحكي له وهي تبكي بصمت:

أعلم أنك تسمعني يا بلال. لن ترحل، لأنك وعدتني أننا سنبدأ صفحة بيضاء. أنا بانتظارك هنا خلف الباب، ولن أتحرك حتى تخرج ماشياً على قدميك.

كانت أمل تجلس في الممر، شاحبة، ذابلة كزهرةٍ حرمت من الماء، لكن في عينيها كان هناك بريقٌ غريب.. بريقٌ يقول إن بلال الذي حطم أغلال القصر، لن يهزمه نصل خنجر غادر، وأن قصة الحب التي تعمدت بالدم، لا بد أن تُتوج بالبقاء.

فصل السابع وعشرون والأخير:

بين الصبر والاستسلام شعرة رفيعة يُسمونها الأمل، وإذا انقطعت، تساوى عند الإنسان النور والظلام، لذلك فإن الصبر الذي لا يثمر حرية، هو مجرد قبرٍ نبنيه لأنفسنا بينما نحن لا نزال نتنفس.

بعد شهرٍ من الغياب في غياهب الغيبوبة، وفي ليلةٍ كان الأطباء قد استسلموا فيها تماماً، بدأت أصابع بلال تتحرك فوق الملاءات البيضاء.

فتح عينيه ببطء، وكأنما يستعيد روحه من عالمٍ بعيد. كان أول ما رآه هو وجه أمل الشاحب الذي يراقب الأجهزة بيأس.

وما إن أحست أمل بحركته، حتى نهضت كغزال ، تصرخ.

أيها طبيب لقد استيقظ بلال!؟؟؟.

جاء طبيب مسرعا ، ليتفحصه، وأمل فوق رأسه تحمد الله وتدعوا لبلال بشفاء.

توجه الطبيب نحوها وقال:

إنها معجزة لقد استقرت حاله ، ومع عديد من الأسابيع سيكون بخير بإذن الله.

مرت أسابيع التعافي كأنها سحر؛ استعاد بلال قوته، صلب عوده، وعاد جسده الرياضي المتين ليتحدى أثر النصل. وفي يوم خروجه، لم يخبر أمل بموعده الدقيق، أراد أن يكون لقاؤهما بعثاً حقيقياً.

كانت أمل تجلس خلف الباب الخشبي، تضع رأسها على ركبها، والسكينة الموحشة تملأ المنزل. فجأة، تعالت طرقاتٌ قوية، واثقة، لم تكن تشبه طرقات الجيران المشفقة.

قامت ببطء، فتحت الباب، وتسمرت في مكانها. سقطت منها الآنية التي كانت تحملها، وتحطمت على الأرض كأنها تُعلن تحطم الحزن. كان هو.. بلال. وافقاً بشموخ، يرتدي قميصاً أبيضاً، وعيناه تفيضان بحياةٍ لم ترهما بها من قبل.

لم تنطق بكلمة، بل جثت على ركبتيها وهي تنشج بالبكاء، شهقاتها كانت تهز جسدها النحيل. انحنى بلال نحوها، رفعها بيديه القويتين واحتضنها بقوةٍ كادت تذيب الضلوع. همس في أذنها وسط دموعهما الممتزجة:

قلتُ لكِ لن أتركِكِ وحدكِ.. المحاربون لا يموتون قبل أن يكملوا قصص حبهم يا أمل.

في ليلةٍ مقمرة، جلسا في فناء المنزل الصغير. كانت نسمات الريف تحمل رائحة الياسمين، لكن بلال كان ينظر إلى الأفق بمرارة. أمسك يد أمل، وتلمس أصابعها برقة وقال بصوتٍ عميق:

يا أمل.. هذه الأرض جميلة، لكن تربتها شربت من دماء إخواننا، وهواؤها لا يزال يحمل صدى سياط جيوفاني.

في كل زاوية أرى طيف والدكِ المعذب، وفي كل زقاق أسمع قعقعة السلاسل التي قيدتنا لسنوات. لا أريد أن يكبر أطفالنا في أرضٍ تناديني بالعبد المحرر.

نظرت إليه أمل، وعيناها تعكسان ضوء القمر:

إلى أين نذهب يا سندي؟ أنت وطني، وحيثما حللت حلَّ الأمان.

قال بلال وعيناه تلمعان ببريق الأمل:

إلى مصر.. إلى أرض الكنانة. يقولون إن نيلها ليس مجرد ماء، بل هو ترياق يغسل الهموم.

هناك، في زحام القاهرة وطيبة أهلها، سنكون مجرد بلال وأمل. سنبني بيتاً بالتقوى والعمل، ونكتب صفحة بيضاء، مدادها الحب وورقها الحرية.

باعا ما تبقى لهما، ودعا قبر العم صالح بدموع الوفاء، وانطلقا في رحلةٍ عبر البحار، تاركين خلفهما قارةً من الألم.

وعندما وطأة أقدامهما القاهرة، استقبلهما ضجيج الحياة الجميل. استأجرا بيتاً بسيطاً في حي الحسين، حيث المآذن تعانق السماء، ورائحة البخور المختلطة بعبق التاريخ تمنح الروح طمأنينةً مفقودة. هناك، افتتح بلال دكاناً صغيراً لتجارة الأقمشة الملونة، وصار يُعرف بين التجار بصدقه ومروءته.

في كل ليلة، بعد أن تهدأ ضوضاء المدينة، كان بلال يجلس مع أمل تحت أضواء المدينة كان يحرص على أن يغرس في قلبها عزة النفس التي حاول الطغاة سلبها.

أمسك يدها يوماً وقال لها برفق:

أحبك يا أملي.

قالت له وهي تضحك :

لقد سمعت أنك خطبت قلبي فتاة تدعى ليلى وانزعجت عندما سمعت بذلك، خشيت أن أخسرك ، هل قلت لي كم مقدار الحب الذي منحته لها ؟

كم من مرات قلت لها أحبك ؟

ولماذا انفصلت عنك برغم من أنك رجل شهم؟

نظر لها بلال وقال : لم أقلها لها أبداً يا وردتي .

ولماذا؟

ألم تكن خطيبتك سابقة ؟

أم أنك تكذب على يا بلال؟

مسك يدها وقال بحزن : هل تشبيهن نفسك بها يا أمل، ورى له من الأحداث ما جرى .

شهقت أمل وقالت : هل هي حقاً أختك، وما الذي دفعك لحبها .

أضاف بلال قائلاً: لم أكن أعرف .

أتعلمين يا أملي رغم اهتمامي بها ، إلا أنها كانت تقرأني كما الكتاب، لا والله بل كانت تقرأ ورق القديم في عملها وتهتم به أكثر مني ، أتعلمين لم تفهم كلمة واحدة من نصوص قلبي، لم تفهم متى أكون متعب أو متى أكون حزين أو مهموم ، لم تفهم لغة حزني يوماً.

لم تكن حتى تمنحني فرصة لأقول ما بي ، كانت تتكلم طوال فترة جلوسنا دون أن تسألني عن حالي .

وإن حصل وسألتني لا سمح الله أقول لها الحمد لله بخير ، فترد ان شاء الله دائما ،حتى من نبرة صوتي لم تفهم حزني حتى من صوتي هل تتخيلي يا أمل

، بل حتى أنها لم تدرك أنها كانت تدعوا عليّ بأن يبقى حالي هكذا سيء ، تقولها دون قصد.

أما أنا فقط كنت أستمع لكل حرف تقوله ، أدركت حينها وقبل أن اكتشف أنها أختي، أن الذي بيننا لم يكن حب ، بل كان جلسة فضفضة عن أحداث يومية حدثت لها .

أدركت يا أمل بأن هناك فرق بين الحب والإعجاب، أعجبت بعقلها بأفكارها بشكلها لكنني اكتشفت أنني نسيت أن أنظر لروحها ونقاء قلبها وأخلاقها ودينها ، هذا هو سيء يا أمل أن جميع يختار حب حياته بعينه.

لكن قلبي ورحي لم يخطأ عندما أختار روحك وقلبك وأسلوبك وحنانك يا أمل ، بل أن جميع صفات كمال وجدت بكِ ، أنت عكسها تماماً.

نظرت له وضعت رأسه على كتفها قالت وهي تلعب بخصل شعره : إذن أنت تحبني.

اجبها لا .... لا أحبك .

ولم أحبك يا أمل يوماً.

أنا مولعٌ بك ، أن أعشق كل شئ له صلة بكِ ، أنا لا أستطيع العيش بدونك، لقد تفوق شعوري نحوك على مسمى الحب ، حتى عجزت عن وصفه ، لذلك

اعلمي أنني لا أحبك فقط بل أعشقكِ عشق مزق قلبي، والحمد لله أنك قدري الجميل، بل أعظم شئ حصل لي يوماً.

مرت الأيام في القاهرة كأنها نهر هادئ يغسل ندوب الماضي. واستقر بلال وأمل في منزلهما المتواضع بحي الحسين، ذلك الحي الذي تفوح من أزقته رائحة التاريخ والسكينة. كان روتين بلال اليومي يبدأ مع آذان الفجر الأول؛ ينهض برفق لكي لا يوقظ أمل، يتوضأ ويخرج ليمشي بين المآذن العالية، يصلي الفجر في رحاب المسجد، ثم يعود ليجد أمل قد أعدت مائدة الإفطار البسيطة.

في أحد صباحات الربيع، وبينما كان النيل ينساب بهدوء خلف النوافذ، لاحظ بلال شحوباً في وجه أمل ممزوجاً بابتسامة غامضة لم يعهدها. اقترب منها، أمسك يديها وقال بقلق المحب: ما بكِ يا حبيبة الروح؟ هل نال منكِ التعب؟

نظرت إليه أمل وعيناها تلمعان بدموع الفرح، ووضعت يده على قلبها وقالت بصوت خفيض:

يا بلال، يبدو أن الله أراد أن يزرع في بستاننا غراساً جديدة.. سوف يرزقنا الله بأطفال .

سقط بلال ساجداً لله من فورته، يبكي فرحاً، فهو الذي ظن يوماً أن سلالته ستنتهي تحت سوط العبودية، يرى اليوم وعد الله يتحقق.

ومنذ تلك اللحظة، تحول بلال إلى خادمٍ مخلص لراحة أمل؛ كان لا يسمح لها بحمل شيء ثقيل، ويخرج للسوق ليجلب لها أطيب الثمار، وفي المساء يجلس عند قدميها يقرأ لها القرآن بصوته الرخيم، ويحدث جنينهما المنتظر عن جده العم صالح وعن عزة الإسلام.

جاءت ليلة المنتظرة كانت ليلة طويلة وشاقة. كان بلال يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، قلبه يخفق مع كل أنين يخرج من صدر أمل. لم يكن يملك إلا الدعاء والصدقة.

وفجأة، شق سكون الليل صراخٌ حاد، ثم صراخٌ آخر. دخل بلال الغرفة لتزف له القابلة البشرى: مبارك يا بلال، لقد رزقك الله بذكر وأنثى، كأنهما فلقتا قمر.

حمل بلال طفله الأول، سماه صالح وفاءً لمن محنه الحياة، وحمل طفلته وسماها عائشة تيمناً بأم المؤمنين.

في تلك اللحظة، شعر بلال أن القيود قد تكسرت تماماً، وأن التاريخ قد كُتب من جديد. بدأ بلال يمارس دور الأب بتفاصيل يومية مدهشة؛ كان

يستيقظ ليلاً ليهدهد عائشة، ويحمل صالحاً على صدره ليغفو، مقتدياً بالنبي ﷺ الذي كان في مهنة أهله.

كان يرفض أن تكون أمل وحيدة في التعب، بل كان يتقاسم معها السهر والتعب والتربية، مؤمناً بأن الرجولة هي الحنان والمسؤولية.

بعد مرور خمس سنوات، أصبحت عائلة بلال هي الحديث العطر في الحي. صالح الصغير بملامحه القوية وذكائه، وعائشة برقتها التي تشبه أمها. في مساء مشرق، توجهت العائلة إلى إحدى الحدائق المطلة على النيل. كان بلال قد تحول إلى طفل كبير؛ يركض خلف صالح، ويحمل عائشة على كتفه، ويقلد لها أصوات الطيور، ثم يلقي بصالح في الهواء ويلتقطه وسط ضحكات مجلجلة تمسح غبار السنين الماضية.

كان يتعامل مع أطفاله كأصدقاء؛ يعلمهم الصدق بالحب، والقوة باللين. بينما كانت أمل تجلس على بساط أخضر، تحمل كتاب بين يدها تقرأه بتركيز ، وما ان انتهت من القراءة بدأت تراقب بلال وكيف يلعب مع مثل الأطفال،

قهو كبير مع كبار وصغير مع صغار ،اقترب بلال منها، وجلس بجانبها، مسح دمعتها بطرف كمه وقال بحنو:

لماذا البكاء يا ملكتي ؟ ألسنا في نعمة؟.

قالت أمل بصوت يرتجف من العاطفة: إنه بكاء الحمد يا بلال. كنت أدعو الله في زوايا القصر المظلمة، حين كان العالم يضيق بي، أن يرزقني رجلاً حنوناً، رجلاً يخاف الله فيّ، ويصون كرامتي، ولا يرى فيّ مجرد شئ عادي،

أريدُ رجلاً يُقوّم اعوجاجي باحتواءٍ لا بعقاب..

يغمرني بعلمه ويسترُ جهلي بوقارٍ لا بإحراج..

يمنحني أمان الثقة المطلقة، فلا يقتفي أثري ولا يترصد خطاي..

يكونُ لي كُليّاً، يصغي لقلبي حين يصمت العالم..

أريده وطناً يسكنني وأسكنه، يحبني بصدقِ الأوفياء، ويكون لي سنداً لا ينحني، ومعي روحاً لا تغيب.

وجدتك زوجاً صالحاً، وأباً حنوناً، وصديقاً صدوقاً. لقد وجدت فيك كل مواصفات رجل أحلامي التي كنت أرجوها من الله.

نظر إليها بلال طويلاً، وقبل رأسها أمام أطفاله ليعلمهم أن تكريم المرأة هو قمة الرجولة، وقال:

يا أمل، أنتِ وأطفالي هم أمانتي التي سأُسأل عنها. والله لو طلبتِ عمري لكان قليلاً في حقكِ. سأبقى خادمكم الحارس، وسأربي صالح وعائشة على أن الحرية هي طاعة الله، وأن الكرامة لا تُشترى بالمال، بل تُنال بالتقوى، سوف أحبك حتى آخر رمق من عمري، أنت قلبي وجوهري ونبضي الذي لا يمكن أن أتخلى عنه.

ثم أضاف بلال بصوت هادئ وعينين تملؤهما الحيرة:

أمل.. أراكِ دائماً بين طيات الورق، تغيبين عنا وأنتِ جالسة بيننا.

أخبريني بصدق، إلى أي مدى تحبين هذه الكتب؟

وما الذي تجدينه بين السطور ولا نراه نحن؟

أمل تبتسم برقة، وتضم كتابها إلى صدرها:

أتعلم يا بلال.. الكتب ليست مجرد أوراق وحبر. هي رئتي الثالثة التي أتنفس بها حين يضيق بي عالمكم هذا.

أنا لا أقرأ لأعرف فحسب، بل أقرأ لأنجو.

اجابها مندهشاً:

تنجين؟ وممَّ تخرجكِ القراءة؟

قالت له وهي تضحك:

تخرجني من حدود جسدي، من ضجيج الواقع، ومن رتابة الأيام. الكتاب بالنسبة لي هو المعبر الذي أمشي عليه لأصل إلى عوالم لا تحكمها القوانين، حيث يمكنني أن أكون بطلة، أو عابرة سبيل، أو حتى نسمة هواء.

القراءة هي الصمت الذي يمنحني صوتاً ،هل في كلامي ما هوا خاطئ.

لست مخطأة أبداً يا أمل، أنا أشعر بكِ ، ما أجمل أن يهرب الإنسان إلى عالمه البسيط ، عندما يدرك الإنسان ما أعظم الخيال ، سوف يكون سعيداً جداً في حياته.

ثم نظرت أمل لبلال بحب ملموس وقالت:

سأخبرك سراً.. أنا أحب كتبي جداً، أحب ملمسها ورائحة الزمن فيها، لكنني أحبها كما أحبك تماماً.

فكما يمنحني الكتاب حياة جديدة، تمنحني أنت الأمان لكي أعيش تلك الحياة. أنتَ كتابي المفتوح الذي لا أملُّ من قراءته، والوطن الذي أعود إليه بعد كل رحلة بين الرفوف.

تركها بلال وعاد ليركض خلف أطفاله، يقبلهم ويحتضنهم، بينما وقفت أمل ترفع يدها للسماء، والابتسامة تملأ وجهها، تشكر الله الذي أبدل خوفهم أمناً، وحزنهم فرحاً، ويتمهم عائلةً يملؤها النور واليقين.

قف معي هنا في هذه اللحظة الساكنة من عمر الزمن، لا لتنظر إلى ما وصلتُ إليه من راحة، بل لتتأمل في الحقيقة التي صهرتها السياط في روحي قبل جسدي.

أنا بلال، الرجل الذي كان يوماً مجرد بضاعة في سوق النخاسة، الرجل الذي ظن السجانون أنهم امتلكوا نبض قلبه حين كبلوا معاصمه بالحديد البارد.

اليوم، وأنا أقف تحت سماء القاهرة الصافية، أرقب النيل وهو ينساب بهدوء كأنه يغسل ما تبقى من رماد الماضي في ذاكرتي، أهدي لك يقيني الذي اشتريته بدمي:

إن الظلم مهما استطال ليله، ومهما انتفخت أوداجه، فهو أهون عند الله من هباءة ريح في مهب العاصفة.

لا يغرنك تجبّر الظالمين في قصورهم، ولا يكسرنك أنين المظلومين في زنازينهم؛ فالله لم يخلقنا لنكون أرقاماً في دفاتر الطغاة، بل خلقنا أحراراً بكرامته، وأعزنا بهذا الدين الذي جعلني سيداً لنفسي بعد أن كنت عبداً لغيري.

لقد تعلمتُ في عتمة السجون أن القيد الحقيقي ليس الحديد الذي يدمي اليدين، بل هو قيد الروح التي ترضى بالهوان وتستكين للذل خوفاً على حياةٍ فانية.

بينما كانت الصفحات تطوى، أدرك بلال أن الحياة ليست رحلةً للهروب من الألم، بل هي شجاعة المواجهة.

تيقن أن عين الله التي كانت ترقبه في غياهب السجون هي ذاتها التي أشرقت بنور العدل في فجر حريته، فالحق قد يتأخر، لكنه لا يموت خلف الأسوار.

إن دماء العابثين التي سالت لم تكن قرباناً للغضب، بل كانت ثمن استرداد الروح من براثن العدم. إليك يا من تقرأ ندوبي:

لا تجعل من انكسارك قبراً، بل اجعله رحماً لولادتك الثانية. لقد طويتُ صفحات السواد، لا لأنسى، بل لأعبر.

علمتني أمل أن الحب هو الوطن الوحيد الذي لا يحتاج إلى جواز سفر، وعلمني صالح أن الحرية تبدأ حين تسقط الأصنام من العقل قبل أن تسقط

القلاع. ارحل بجرحك نحو الضوء، فالفجر لا يبزغ إلا من قلب العتمة الأكثر حلكة.

ارحل عن أحقادك، سامح لترتقي بروحك فوق دناءة البشر، ولكن لا تساوم أبداً على حريتك. لقد سامحت مَن ظلموني لا حباً فيهم، بل حباً في طهارة قلبي الذي أريد أن ألقى به ربي. اليوم، وأنا أسمع ضحكات طفليّ صالح وعائشة وأرى السكينة في وجه أمل، أدركتُ أن النصر الحقيقي ليس في هزيمة العدو، بل في بناء حياةٍ لا يظلم فيها إنسانٌ إنساناً.

وداعاً من رحاب الحسين، حيث أعيش الآن إنساناً ممتناً لكل جرحٍ جعل مني هذا الرجل. تذكروا دائماً:

الظلم سحابة صيف عابرة مهما رعدت، أما الحق، فهو شمسٌ أزلية لا تعرف الغروب. ارفعوا رؤوسكم، فالسماء لا تمطر حرية، بل نحن من نزرعها بدموعنا وصبرنا لتزهر في قلوب أبنائنا.

رسالةٌ الأخيرةٌ مِن الكاتبة لك أيها القارئ .....

هذه الرسالة هي العهدُ الأخيرُ بيننا، قبل أن يجفَّ مِدادُ دماءِ العابثين.

أَغْلِقِ الكِتَابَ الآن...

لَقَدِ انْتَهَتِ الرِّحْلَةُ بَيْنَ زَوَايَا هَذِهِ الصَّفَحَاتِ المضَرَّجَةِ بِالوَجَع؛ لَكِنَّ الدِّمَاءَ الَّتِي سُفِكَتْ هُنَا لَنْ تَجِفَّ بِسُهُولَة...

كُنْتُ أُرِيدُكَ أَنْ تَعِيشَ مَعِي خَلَفَ القُضْبَان، أَنْ تَشُمَّ رَائِحَةَ الخَوْف، وَأَنْ تُبْصِرَ كَيْفَ يَعْبَثُ الطُّغَاةُ بِأَحْلَامِ البُسَطَاء؛ كَمَا عَبَثُوا بِرُوحِ بِلَالٍ وَأَمَل.

عَزِيزِي القَارِئ؛ لَقَدْ شَهِدْتَ عَلَى مَوْتِ الكَثِيرِ مِنَ الأَشْيَاءِ فِي هَذَا الكِتَاب... فَلَا تَدَعْ مَوْتَهُمْ يَمُرُّ دُونَ أَنْ يُحْيِيَ فِيكَ رَفْضَ القَيْد. شُكْراً لأَنَّكَ لَمْ تَهْرُبْ مِنَ الحَقِيقَة، وَلأَنَّكَ صَمَدْتَ أَمَامَ كُلِّ هَذَا الخَرَاب.

تَذَكَّرْ دَائِماً... أَنَّ العَابِثِينَ قَدْ يَمْلِكُونَ السَّوْط، لَكِنَّكَ تَمْلِكُ القَلْبَ الَّذِي لَا يَنْسَى.

وَدَاعاً... وَلْتَبْقَ دِمَاءُ العَابِثِينَ شَاهِداً عَلَى أَنَّ الحُرِّيَّةَ.. لَهَا ثَمَنٌ بَاهِظ."

تمت الرواية بحمد الله.